الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الجامعات والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة ـ

معهد أصول الدين
ـ شعبة علوم القرآن ـ

عنوان البحث

الكون والإنسان في القرآن الكريم

بحث مقدم لنيل درجة الماجيستير

إعداد الطالب :
الهـــادي ثـابت

إشراف الدكتور:
مساعد مسلم آل جعفر

السنة الجامعية

١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

مقدمة

تمهيد

الفصل الأول : الكون في القرآن الكريم

المبحث الأول : نظرة الإنسان الروحية إلى الكون 3

المبحث الثاني : حقيقة الكون وصلته بالله في القرآن الكريم 13

المبحث الثالث : الكون معلم هداية إلى الله 50

الفصل الثاني : علاقة الكون بالإنسان في القرآن الكريم

المبحث الأول : دعوة القرآن إلى دراسة الكون وإعماره 63

المبحث الثاني : تسخير الكون للإنسان 95

الفصل الثالث : حقيقة الإنسان وصلته بالله في القرآن الكريم

المبحث الأول : نشأة الإنسان في الفكر الغربي اللا ديني في العصر الحديث 107

المبحث الثاني : حقيقة الإنسان في القرآن الكريم 123

المبحث الثالث : صلة الإنسان بالله في القرآن الكريم 156

الفصل الرابع : أثر تلك العلاقة في بناء الحضارة الإنسانية

المبحث الأول :ملامح الحضارة في ظل التصور القرآني 186

المبحث الثاني : ملامح الحضارة في غياب التصور القرآني 213

الخاتمة 228

قائمة المصادر والمراجع 232

الفهارس 243

فهرس الآيات 244

فهرس الأحاديث 260

فهرس الأعلام 261

فهرس الموضوعات 267

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة البحث

الحمد لله الذي " علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم " . احمده حمدا كثيرا يوافي نعمه ويكافئ مزيده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وحبيبه ، أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . فأخرج الناس من الضلالة إلى الهداية ومن الظلمات إلى النور. فصلّ اللهم عليه وعلى آل بيته الطاهرين وارض اللهم عن صحابته الغر الميامين وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

من الثابت من ثُرات البشرية وثقافة الشعوب كل في حضارته (الإهتمام بالكون والإنسان) حيث شكلا مجالا هاما لدى الكثيرين ممن ينتمون إلى المذاهب الفكرية والعلمية على اختلاف بيئاتهم وعصورهم .

ومهما بلغ هذا الإهتمام البشري بالكون والإنسان من الدقة والموضوعية ، فلن يصل إلى الحقيقة المطلقة المتعلقة بالكون والإنسان . ولذلك يحتاج الإنسان إلى من يقدم له التصور الحقيقي لكثير من القضايا الكبرى ، كتلك التي لم يشهد ميلادها أو تلك التي لا تخضع بطبعها إلى التجربة المخبرية.

ومن هذه القضايا الضاربة في القدم : الكون و الإنسان .

وليس هناك مصدر نستقي منه التصور الحقيقي لكل من الكون والإنسان غير القرآن الكريم ، لأنه كلام رب العالمين ، رب الكون والإنسان ، الذي (خلق فسوى)[1] و (قدر فهدى)[2] و (أحاط بكل شيء علما)[3].

ولهذا آثرت أن أتناول موضوع (الكون والإنسان) من خلال المنظور القرآني ، لأني رأيت التصور البشري للكون والإنسان يذهب ذات اليمين وذات الشمال ولا يمس جوهر القضية بسبب قصور العقل البشري عن إدراك كل شيئ وبسبب عوامل أخرى هي من صنع الإنسان

---

(1) سورة الأعلى: الآية 2

2) سورة الأعلى: الآية 3

3) سورة الطلاق: الآية 12

نفسه . إذ الملاحظ أن الجاهليات القديمة والحديثة أحدثت فسادا في كل تصورات الإنسان وارتباطاته بالله وبالكون والحياة .

فالمفاهيم والتصورات البشرية التي سبقت نزول القرآن قامت على أساس تعدد الآلهة وتآليه الكون . وكان مرد ذلك إلى انحراف البشرية عن العقيدة الحقة التي جاء بها الأنبياء والرسل

أما التصورات والمفاهيم التي جاءت بعد نزول القرآن ، فقد قامت على أساس الإلحاد وإسناد الخلق والإنشاء إلى الطبيعة نفسها ، وكان الدافع إلى هذه المفاهيم والتصورات ـ فيما أعتقد ـ الرغبة الملحة في التخلص من الكنيسة وسلطانها الذي بسطته بحق وبغير حق على الناس ، ثم تطور هذا الدافع إلى الرغبة في التخلص من الدين كلية إذا أمكن ذلك . أو حصر نفوذه في دائرة ضيقة جدا بحيث لا يخرج عن كونه مسألة شخصية وعلاقة روحية بين الإنسان وما يعبد ، ثم حصل الفصام المتمثل في رفض الدينونة لمنهج الله.

ومما ساعد على انتشار هذه المفاهيم والتصورات الخاطئة والمضي بها قدما الاكتشافات العلمية الباهرة وما نتج عنها من تيسير ورفاهية في حياة الناس .

ونظرا لكون مناهج البحث المعتمدة في هذا المجال تقطع ماوصل الله من وشيجة بين الإنسان والكون ، كان لا بد من اعتماد المنهج العلمي الإيماني الذي يربط الحقائق العلمية التي يهتدي إليها برباط العقيدة الحقة فتغدو بذلك الحقائق العلمية إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم يزداد معها ارتباطهم بالله عز وجل .

وهذا المنهج الإيماني لايبخس الحقيقة العلمية في شيئ بل يزيدها مصداقية ، وعليه يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التي يتوصل إليها بهذا الرباط الوثيق ،

ومن تلاوتي للقرآن الكريم تبين لي :

---

1 ـ أنه يوجه أنظار الناس إلى الكون ويحث على السير في مناكب الأرض ومعرفة سنن الله في خلقه . لكن مع حث القرآن على التدبر والنظر في الكون ، لاحظت جفوة بين المسلمين وبين الكون جعلتهم في ذيل الركب الحضاري ، بينما انتفع غيرهم بالسنن الكونية انتفاعا منحهم القوة والصدارة في كل شيئ .

2 ـ أنه اهتم بالإنسان اهتماما عظيما شمل جوانبه المختلفة : نشأته ، خصائصه ، غاية وجوده ، طرائق تربيته ليظل إنسانا سويا يحقق رسالته المنوطة به .

3 ـ أنه المصدر الوحيد الذي يوضح لنا حقيقة كل من الكون والإنسان ويبين نوع العلاقة بينهما . تلك العلاقة التي يتوقف بناء الحضارة الإنسانية الرشيدة على معرفتها . لأن الحضارة في مجملها لا تخرج عن كونها ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة . وهو تفاعل شبيه بالتفاعلات الكيماوية إذا تم دون معرفة بخصائص العناصر المزوجة ببعضها أعطى نتائج مدمرة .

تلك إذا هي مبررات الجمع بين الإنسان والكون في موضوع واحد .

فهذه الرسالة تهدف إلى :

1 ـ بيان حقيقة الكون وصلته بالإنسان وصلة الإنسان به من خلال القرآن الكريم .

2 ـ بيان حقيقة الإنسان وصلته بالله عز وجل .

3 ـ بيان ملامح الحضارة الإنسانية القائمة على معرفة تلك الحقائق ، وملامح الحضارة التي تجاهلت تلك الحقائق ولم تصغ إلى البيان الإلهي الذي فصلها تفصيلا .

وقد جعلت لهذه الرسالة أربعة فصول .

اشتمل الفصل الأول على ثلاثة مباحث ، دار الحديث في المبحث الأول عن نظرة الإنسان الروحية إلى الكون .

وتناولت في المبحث الثاني حقيقة الكون في القرآن الكريم . وفي المبحث الثالث بينت أن القرآن الكريم يجعل الكون معلم هداية إلى الله ويحقق من خلاله مقاصده الكبرى .

أما الفصل الثاني " علاقة الكون بالإنسان في القرآن الكريم "

فقد خصصت مبحثه الأول للحديث عن دعوة القرآن الإنسانَ إلى إعمار الكون ومعرفة سننه ونواميسه

وبينت في المبحث الثاني من خلال تتبع آيات القرآن أن الكون مسخر بمشيئة الله لخدمة الإنسان ، وأنه ليس بينه وبين الإنسان صراع وتحد كما تزعم التصورات الغربية .

واشتمل الفصل الثالث " حقيقة الإنسان وصلته بالله ، على ثلاثة مباحث : تناول المبحث الأول نشأة الإنسان في الفكر الغربي اللاديني في العصر الحديث .

أما المبحث الثاني فقد تناول حقيقة الإنسان في القرآن الكريم : نشأته ، أحواله ، أوصافه، ودلالات ذلك وفي المبحث الثالث ، ركزت على عبودية الإنسان لله وما يصحبها من تكريم وتشريف .، ثم تحدثت عن وظيفة الإنسان من خلال القرآن .

أما الفصل الرابع والأخير من الرسالة ، فقد تناول مبحثه الأول ملامح الحضارة الإنسانية في ظل التصور القرآني للكون والإنسان والحياة .

وخصصت المبحث الثاني لبيان ملامح الحضارة الإنسانية التي قامت على تصورات مغايرة بل معاكسة للحقائق التي قدمها القرآن عن الكون والإنسان والحياة .

وأنهيت الرسالة بخاتمة ضمنتها النتائج التي توصلت إليها .

أما المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذا البحث فيمكن تصنيفها حسب منحاها إلى قسمين :

١ ـ كتب التفسير وعلوم القرآن والحديث .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 ـ كتب الدراسات الفكرية الحديثة والمعاصرة .

وإذا كان لابد من الحديث عن الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث فيمكن أن أقول أنها تنحصر فيما يلي :

1 ـ صعوبة الحصول على المراجع .

2ـ تشعب الموضوع وسعته مما جعلني أحيانا أشعر بالرغبة في استبداله لولا تشجيع الأستاذ المشرف وأنا شاكر له فضله .

3 ـ ظروفي الخاصة ، وهي ظروف قاسية ، وإن كان الاعتذار بها قد لا يعتد به في ميدان البحث العلمي .

ولما كانت هذه الرسالة هي أول خطوة أخطوها في طريق البحث العلمي ، فلا بد أن تظهر فيها سمات المبتدئين وعثراتهم على الرغم من بذل أقصى ما في الوسع .

وبعد هذا أتوجه بالشكر إلى كل من مد لي يد العون من قريب أو من بعيد .

وأخص بالشكر والتقدير الدكتور مساعد مسلم آل جعفر الذي تفضل بالإشراف على هذه الرسالة ، ولم يبخل عليّ بتوجيهاته ونصائحه في كل ما يتعلق بالبحث شكلا ومضمونا . وإن أنسَ فلا أنسى أنه كلما لاحظ عليّ نوعا من الفتور بدده بطريقة ذكية ملؤها الإخلاص ، فجزاه الله عني خير الجزاء .

كما لا يفوتني أن أشكر إدارة الجامعة ورئيسها وعمال المكتبة الذين يسروا لي طريق الوصول إلى المراجع المتوفرة لديهم .

والحمد لله أولا وأخيرا الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيرا .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد :

لعل موضوع بحثي يدخل في دائرة التفسير الموضوعي الذي يعتبر جديدا من حيث التسمية فقط ، وإلا فإننا نجده عند المفسرين القدامى . وما الكتب التي ألفت في : (الناسخ والمنسوخ) ، (إعجاز القرآن) ، (غريب القرآن)، (مجاز القرآن)، (تأويل مشكل القرآن)، (أسباب النزول) ، (معاني القرآن) ،(تناسب الآيات والسور)، (أقسام القرآن) وغيرها إلا من هذا النوع .

فهو أي التفسير الموضوعي قديم من حيث النشأة جديد من حيث التسمية ، إلاأنه من الطبيعي أن يتسع أفقه في العصر الحديث وتتأصل قواعده ويكثر روّاده ، خاصة في هذا العصر الذي تقدمت فيه العلوم والمعارف فأصبحنا في حاجة ماسة إلى عرضها على القرآن ليكون بمثابة المصفاة التي لا يمر منها إلا النافع .

وهو على كل حال حلقة من حلقات التفسير التي تصب على تنوعها في مصب واحد وتهدف إلى هدف واحد وهو تحقيق المقصد الأساسي من نزول القرآن ، والذي يتمثل في هداية الناس إلى رب العالمين وربطهم بالخالق جل وعلا ارتباطا تتحقق به عبوديتهم الكاملة لله ، فيتحقق لهم بها السعادة في الدارين .

وتجدر الإشارة إلى أن التفسير مر بمراحل وأطوار فامتزجت به كثير من العلوم الأدبية والكونية . وكان لهذا الإمتزاج أسباب وآثار أشار إليها الباحثون في علم التفسير

كان الذين شوفهوا بالقرآن الكريم عربا خلصا ولهذا كان فهمهم لهداية القرآن وإعجازه من الأمور الهينة السهلة الجارية على الفطرة والبساطة فلا يحتاجون في ذلك إلى اصطلاحات فنية ولا إلى قواعد نحوية وبلاغية ، ولا إلى نظريات علمية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مضى الأمر على ذلك مدة ثم جاءت الفتوحات الإسلامية ، فأظلت راية الإسلام أمما وشعوبا لم تكن تعرف العربية ، ولكنها كانت على ثقافة في العلوم والفنون والفلسفة وكان من نتائج إتصال الأمم المفتوحة بتلك الأمة الفاتحة مع إمتداد الزمن أمران :

ـ أحدهما : فساد اللغة العربية في الألسن فأصبح الجميع في حاجة إلى ضوابط تضبط اللغة ، وتضمن سلامتها ، وتعصم الناس من الخطأ في فهم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام فنشأت بسبب ذلك علوم اللغة العربية .

ـ ثانيهما : ترجمة علوم هذه الأمم الداخلة في الإسلام مع تهذيبها وتنقيحها فأدى ذلك إلى انتشارها بين المسلمين على اختلاف أجناسهم .

لهذه الأسباب بدأت العلوم الأدبية والكونية تدخل في تفسير القرآن وتمتزج به على اعتبار أن هدايته وإعجازه لا يفهمان فهما صحيحا كاملا بالنسبة إليهم إلا عن طريق هذه العلوم والمعارف .

وكان لهذا الإمتزاج آثار طيبة أذكر منها(1) :

1 ـ مسايرة أفكار الناس ومعارفهم وتفسير القرآن لهم تفسيرا يشبع حاجتهم من الثقافة الكونية .

2 ـ إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن من ناحية ما يحويه أو يرمز إليه من علوم الكون والإجتماع .

3 ـ دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين .

4 ـ استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمي الذي يخضعون له دون سواه في هذه الأيام .

5 ـ الحث على الإنتفاع بقوى الكون .

---

1) عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ـ دار الفكر ـ ط 3 ، (بدون تاريخ) ، الجزء الثاني ص 38 ومابعدها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

6 ـ إمتلاء النفس إيمانا بعظمة الله وقدرته حينما يقف الإنسان في تفسير كلام الله على خواص الأشياء ودقائق المخلوقات حسب ما تصورها علوم الكون .

على أنه يجب التنبية إلى حقيقة هامة وهي أن تلك الآثار الجليلة لا تتحقق إلا إذا روعيت فيها الأمور التالية :

1 ـ ألا تطغى تلك المباحث عن المقصود الأول من القرآن وهو الهداية والإعجاز وتنظيم شؤون الناس وتقويم معوج حياتهم . أما إن أسرف المفسر واشتغل بتفريعات العلوم الأدبية ونظريات الفنون الكونية ، فقد انعكست الآية ولم يعد التفسير تفسيرا . وهذا الأمر تكاد تتفق عليه كلمة المفسرين .

2 ـ « أن يلاحظ في امتزاج التفسير بتلك العلوم ما يلائم العصر ويوائم الوسط ، لأن تلك الأبحاث الكونية والأدبية قد تكون ضرورية ومفيدة إذا شرح بها القرآن في عصر من عصور الثقافة أو لجمهور من المفتونين بعلوم المادة والكون أو لطائفة من المتأدبين المشغوفين بفنون البلاغة ، بينما تكون هذه الأبحاث نفسها نكبة وفتنة إذا شرح بها القرآن في عصر من عصور الجهالة أو لفئة أخرى من فئات الناس(1) »

3 ـ أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة ويلفتهم إلى جلال القرآن، ويحركهم إلى الإنتفاع بقوى الكون إنتفاعا يعيد لأمة الإسلام نهضتها ومجدها (2) .

وهذا الأمر كان من أهم الدوافع التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع .

ويضاف إلى هذا الذي ذكر أمر آخر ، وهو أن المشتغلين قديما في خدمة الكتاب الكريم يفرضون أنهم يخاطبون إيمانا كاملا ولهذا لا يتكلفون كثيرا بما يخدم قضية الإيمان .

أما اليوم فإذا لم تخدم قضية الإيمان في عصرنا المادي فكأن المفسر لم يفعل شيئا .

وأعتقد أن الحق مع من فسر القرآن تفسيرا يقود الناس إلى معرفة مقاصد القرآن وهدايته ، سواء تم ذلك بالتفسير البياني أو بالتفسير العلمي ، ومن هنا فلا خطر في تنوع التفاسير بل لعله من الضروري تنوعها إذا روعيت الضوابط .

---

1) عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ـ الجزء الثاني ـ ص 10.

2) عبد العظيم الزرقاني : المرجع السابق ـ ص 10.

الفصل الأول

الكون في القرآن الكريم

- المبحث الأول : نظرة الإنسان الروحية إلى الكون
- المبحث الثاني : حقيقة الكون وصلته بالله في القرآن الكريم
- المبحث الثالث : الكون معلم هداية إلى الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول :
نظرة الإنسان الروحية إلى الكون

- تآليه بعض أجزاء الكون
- غرور الإكتشافات العلمية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : نظرة الإنسان الروحية إلى الكون

1ـ تأليه بعض أجزاء الكون :

لم يستطع الإنسان أن يعيش في فراغ من العقيدة في جميع عصور حياته . فحينما ينقطع ما بينه وبين الرسل وما جاءوا به من عقيدة سليمة يظل يلتمس معبودا يعبده ويجسد فيه ما أبقى الضمير البشري من فكرة غامضة عن الإله الذي دعا إليه الرسل ، فاتجه نتيجة هذا الفراغ أو هذا الإنقطاع إلى عبادة بعض أجزاء الكون كالشمس والقمر ، والنجوم ، أو ما كان يخافه ولا يدرك كنهه .

وقد ذكر القرآن الكريم عبادة الإنسان لتلك الأجزاء الكونية . قال الله سبحانه على لسان إبراهيم وهو يقيم الحجة على قومه الذين كانوا يعبدون الكواكب : « .. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قومي إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين »(1) .

قال القرطبي في تفسير قول تعالى (قال هذا ربي) : « على قولكم لأنهم كانو يعبدون الأصنام والشمس والقمر . ونظير هذا قوله تعالى (أين شركائي) على قولكم . وقيل : إنما قال هذا ربي لتقرير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم . فلما أفل النجم قرر الحجة وقال ما تغير لا يجوز أن يكون ربا . وقيل هو على معنى الإستفهام والتوبيخ منكرا فعلهم . والمعنى هذا ربي ؟ أو مثل هذا يكون ربا ؟ واستدل بالأفول لأنه أظهر آيات الحدوث »(2).

وقال ابن كثير : « والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ماكانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في

---

1) سورة الأنعام : الآيات 77 ،78 ،79 ،80

2) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ـ دار الكتاب العربي ـ الجزء التاسع ـ ص 25 ـ

عبادة الأصنام الأرضية ، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة ... فلما انتفت الإلهية عن هذا الأجرام وتحقق ذلك بالدليل القاطع (قال يا قومي إني بريء مما تشركون) (1) .

وقال الفخر الرازي : « إن أفول الكواكب يدل على حدوثها ، وحدوثها يدل على افتقارها في وجودها إلى القادر المختار فيكون ذلك الفاعل هو الخالق للأفلاك والكواكب ، ثم خلص إلى أن الأفول يدل على امتناع كونها قديمة » (2)

وقال المراغي : « .. قال هذا ـ أي إبراهيم عليه السلام ـ في مقام المناظرة والحجاج لقومه تمهيدا للإنكار عليهم فحكى مقالتهم أولا ليستدرجهم إلى سماع حجته ، فأوهم أولا أنه موافق على زعمهم ثم كر عليه بالنقض بانيا دليله على الحس والعقل » (3)

فإبراهيم أبطل بهذه المناظرة عقيدة قومه في تأليه الكواكب عن طريق الاستدلال بأفولها الذي هو دليل حدوثها .

وقد ذكر القرآن الكريم عبادة أهل سبأ للشمس قال الله تعالى : "فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيئ ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » (4) فالواضح من هذه الآيات الكريمة أن سليمان عليه السلام قد استنكر عبادة الشمس ورأى فيها ضلالا وزيغا عن طريق الحق ولذلك بعث برسالة لملكة سبأ طالبا إليها الإسلام والإيمان بالله وحده

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى :«ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ....» (5)

« ..... قوله (والشمس والقمر والنجوم) إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من

---

1) ابن كثير : التفسير ـ دار الأندلس ـ الطبعة 4 ـ 1984 الجزء 3 ـ ص 56 .

2) الرازي : التفسير الكبير دار إحياء التراث العربي ، بيروت الطبعة المجلد 13 ـ ص 78

3) تفسير المراغي ـ دار إحياء التراث العربي ـ الجزء السابع ص

4) سورة النمل : الآيات من 22 ، 23 ، 24

5) سورة الحج : الآية 18 .

دون الله فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة » (1)

وفي سورة فصلت ما يشير إلى عبادة الشمس والقمر قال الله تعالى :

« ومن أياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » (2)

في الآية دليل على أن من الناس من كان يسجد للشمس والقمر وقت نزول القرآن . وما السجود للشيء إلا علامة تآليهه والإعتقاد بربوبيته . ولذلك حول القرآن الفكر الإنساني من عبادة العناصر الكونية إلى عبادة الله وحده . ويعبر أسلافنا عن هؤلاء الذين يعبدون الشمس والقمر والنجوم بمصطلح (أصحاب الهياكل) (3)

والخلاصة أن الأمم السابقة للإسلام قدست الشمس والقمر والنجوم وسائر عناصر الكون وألهتها وعبدتها . وكانت هذه الأمم ومنها العرب في الجاهلية ـ تعتقد بتأثير عناصر الكون السماوية في الطبيعة الأرضية. ومما يدل على اعتقاد عرب الجاهلية بتأثير الكواكب في حدوث الظواهر الطبيعية، أنهم كانوا ينسبون الغيث إلى الأنواء وكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا . ولما جاء الإسلام اعتبر هذا الإعتقاد كفرا . أخرج البخاري في كتاب التوحيد عن زيد بن خالد الجهني قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من ليلة فلما انصرف النبي أقبل على الناس فقال لهم : هل تدرون ما قال ربكم قالوا : الله ورسوله أعلم قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافربالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافربي مؤمن بالكواكب» (4)

ولعل هذا الإتجاه البشري إلى تآليه بعض أجزاء الكون وعبادتها في حقبة زمنية ما هو الذي جعل بعض الفلاسفة والمفكرين الغربيين يذهبون إلى القول بأن الدين اصطنعه الإنسان

---

1) . ابن كثير : التفسير ج 4 ص 522

2) سورة فصلت : الآية 36 .

3) الشهرستاني : الملل والنحل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ المجلد الثاني : ص 49 .

4) شعبان محمد إسماعيل : الأحاديث القدسية ومنزلتها في التشريع ـ دار الشهاب ـ ص 78 .

لنفسه لما كان عاجزا عن تفسير مظاهر الكون . إنهم يقولون « إ ن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالإنسان فلم يكن في استطاعته أ ن يفلت من الأعاصير والطوفانات والزلزال والأمراض فأوجد قوى فرضية يستغيثها لتنقذه من البلايا النازلة وهكذا ظهرت الحاجة إلي شيء يجتمع الناس حوله ولا يتفرقون فاستغل اسم الإله الذي تفوق قوته قوة الإنسان ويهرع الجميع إلي رضاه » (1)

وينقل عن" جوليان هيكسلي (2) " قوله : « الدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته . وهذه البيئة قد فات أوانها أو كاد . وقد كانت هي المسؤولة عن هذا التعامل معها فلا داعي للدين . لقد إنتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا ، وهي أنها لا تستطيع أن تقبل أية تطورات . لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين ، وجاء بالسحر ، ثم بالعمليات الروحية ثم العقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة الإله الواحد وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته » (3)

فعقيدة التوحيد ـ في رأي هذا الملحد ـ من إختراع الإنسان . كبرت كلمة تخرج من فيه .

ومع ذلك الزعم يعترف هذا الملحد بأن لهذه العقائد فضل ما على الحضارة الإنسانية في القديم ولكن هذا الفضل إنتهى . قال : " ولا شك أ ن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءا مفيدا من حضارتنا ، بيد أن هذا الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور . » (4)

هذا الإتجاه في التفكير يزعم أصحابه أن العقيدة تتطور، فهم يرون أن الإنسان لم يعرف العقيدة على ما عرفها اليوم مرة واحدة . ولكنها في زعمهم ترقت وتطورت في فترات وقرون متعاقبة . والذي أوقع هؤلاء في هذا التصور الخاطئ أمور أهمها :

---

1) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ـ لمختار الإسلامي . القاهرة ـ ترجمة ضفر الدين خان الطبعة 7 ـ 1977 ـ ص 37 .

2) أحد أنصار الداروينية الحديثة وصاحب كتاب « الإنسان في العالم الحديث »

3) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ـ ص 38 .

4) وحيد الدين خان المرجع السابق ـ ص 39 .

ـ أنهم قدروا أن الإنسان الأول خلق خلقا ناقصا غير مؤهل لأن يتلقى الحقائق العظمى كاملة بل إن تصوراتهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلى الحيوان من الإنسان .

ـ أنهم ظنوا أن الإنسان اهتدى إلى العقيدة بنفسه بدون معلم يعلمه ومرشد يوضح له ، فما دام الأمر كذلك فلا بد أن يترقى في معرفته بالله كما ترقى في العلوم والصناعات . والحقيقة التي أخبر بها القرآن الكريم غير ذلك تماما فقد أعلمنا القرآن أن الإنسان عاقل من أول يوم : « وعلم آدم الأسماء كلها ... »(1) وأخبرنا أن الله فطر الإنسان ـ وهو في صلب آبائه ـ على معرفة الله والإقرار له بالربوبية . قال الله تعالى :

« وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلا شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين »(2)

ـ أنهم عندما بحثوا في الأديان ليتبينوا تاريخها لم يجدوا أمامهم إلا تلك الأديان المحرفة أو الضالة فجعلوها ميدان بحثهم وأخضعوها للدراسة والتمحيص . والحق أن الكتاب الوحيد الذي يوضح تاريخ العقيدة هو القرآن الكريم فقد أعلمنا الله سبحانه وتعالى في كتابه أنه خلق آدم خلقا سويا متكاملا ، وأسكنه جنته ، وأباح له أن يأكل كيفما شاء إلا شجرة واحدة فأغراه الشيطان بالأكل منها فأطاع عدوه فعصى ربه فأهبطه الله إلى الأرض ، وقبل الهبوط وعده بأن ينزل عليه وعلى ذريته هداه الذي يعرفه بربه ومنهجه وتشريعه ووعد المستجيبين بالهداية في الدنيا وبالسعادة في الأخرى ، و توعد المستكبرين بالمعيشة الضنكة وبالشقاء في الآخرة. ومصداق ذلك قوله تعالى : « قلنا اهبطوا منها جميعا فإما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(3)

وقوله تعالى : « قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما ياتينكم مني هدى فمن

---

1) البقرة : الآية 30

2) سورة الأعراف : الآية 172

3) سورة البقرة : الآيتان 37 ، 38

اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربي لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » (1)

وإذاً ، فليس السبب في الشرك واتخاذ مظاهر الكون معبودات من دون الله ما ذهب إليه الكثير من الباحثين الغربيين ، من اعتبار الدين ظاهرة إجتماعية ، نسجت تفاصيله وجزئيات أحكامه و أنظمته عقول بشرية بسبب عجزها عن تفسير ما يجري في الكون .

إنما سببه انحراف أتباع الرسل عن ما جاءت به الرسل . ولو لا أن الدين فطرة كامنة في الإنسان ، وحقيقة موضوعية ذات وجود كوني مستقل على الإنسان وفكره ، لانمحى التدين أصلا .

ـ غرور الإكتشافات العلمية

وطائفة أخرى من المفكرين دفعتها الإكتشافات العلمية الباهرة المتعلقة بكثير من مظاهر الكون إلى الفطرسة وجحود الخالق . فبدل أن يكون الكون دافعا قويا إلى اهتداء الإنسان إلى خالقه ، وإلى معرفة سر وجوده وغايته ، أصبح متكئ يتكئ عليه الملاحدة في إنكار الخالق ورفض الدين .

قال وحيد الدين خان : « حين اكتشف علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن الكون يسيره قانون العلة والمعلول تهافت المفكرون الملحدون ، لقد زعموا أن هذا الإكتشاف العلمي بديل لله على الرغم من أن العلماء الذين اكتشفوه لم يزعموا ذلك . (2)

وكأن الذين يريدون صياغة فلسفة جديدة في ضوء أحدث الإكتشافات العلمية ، قد وجدوا في هذا دليلا على إبطال وجود الله ، ومن ثم شيدوا بناءً فكريا كاملا في ظل هذا الزعم . وظهرت تلك النظرية التي تسمى « التفسير الميكانيكي للكون » وأصبح من الحقائق المسلم

---

1) سورة طه الآيات 120 ، 121 ، 122 ، 123 ، 124

2) وحيد الدين خان : الدين في مواجهة العلم ـ دار النفائس 1981 ، ص 41

بها عند أصحابها ، أن جميع وقائع الكون تحدث بسبب علل مادية دون تدخل خارجي وأن الكون كله مربوط في سلسلة العلة والمعلول .

وفي ظل هذه النشوة قال فيلسوف ألماني في صلف : « ايتوني بالمادة وسوف أعلمكم كيف يخلق الكون منها » (1)

ولكن نشوة هؤلاء المفكرين لم تدم طويلا ، لأن القرن العشرين كان فاتحة لكثير من الحقائق في دنيا العلم الحديث ، والتي كادت ان تبطل تماما التفسير الميكانيكي للكون .

قال وحيد الدين خان : « لقد أخفق العلماء في تفسير جميع ظواهر الكون في ضوء قانون الصدفة ، وقانون التعليل . لقد اعترفوا الآن بعد طول جدل ، بأن قانون التعليل ليس حقيقة مطلقة بالمعنى الذي افترضوه في القرن التاسع عشر . . .لقد عاد الباحثون إلى النقطة التي بدأوا منها مسيرتهم إلى أن نظام العالم لا يخضع لقانون العلة والمعلول الناتج عن الصدفة المحضة ، وإنما هناك عقل نوعي يدبر شؤون العالم بالإرادة (2) .

إن القول بأن الكون وجد بذاته دون أي قوة مؤثرة فيه من الخارج قول (برجحان الشيء بدون مرجح) (3) وهو باطل . والقول بأن العالم مستمر بحكم التوالد الذاتي الذي لا أول له يستلزم إمكان (التسلسل) (4) وقد علم العقلاء بحكم البداهة أن التسلسل باطل ، فتبين بذلك استحالة الفرضية التي أدت إليه كما أن (الدور) (5) باطل باتفاق العقلاء .

والخلاصة أ ن القول بحدوث العالم طفرة بدون أي علة تؤثر فيه باطل ، لأنه يستلزم فرضية بدهية البطلان وهي الرجحان بدون مرجح . والقول بكونه قديما باطل ، لأنه يستلزم تسلسل الممكنات إلى ما لا نهاية . وهو باطل . والقول بكون الكون علة نفسه والمؤثر في إيجاده يستلزم القول بالدور ، وهو أيضا من الأمور الباطلة .

فماذا بقي ؟

---

1) وحيد الدين خان : الدين في مواجهة العلم ص 104 .

2) وحيد الدين خان : المرجع السابق ص 44 .

3) البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ، دار الفكر ط ٥ ، ١٤١٠ هـ ـ ص ٥٨ .

4) التسلسل : مصطلح يعني أن المخلوقات كلها متوالدة عن بعضها إلى مالانهاية ، بحيث يكون كل واحد منها معلولا لما قبله وعلة لمابعده دون أن تنتهي هذه السلسلة أخيرا من علة واجبة الوجود هي التي تضفي التأثير المتوالد على سائر تلك الحلقات .

5) الدور مصطلح يعني أن يتوقف الشئ في وجوده المطلق أو تكييف معين له ، على شئ اخر ، إلا أن هذا الشئ متوقف في ذلك الوجود أو التكييف وفي نفس الوقت على الشئ الأول ، فمن المحال أن يوجد أو يتكيف هذا الشئ أو ذاك .

بقي أن الكون لا بد له من موجد مستقل عنه أوجده ، وهذا الموجد لا يحتاج بدوره إلى موجد له ، وهو الله سبحانه وتعالى . وقد قال تعالى لهؤلاء الذين خاضوا في هذا بغير علم.

(ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا) (١)

على أنه ليس كل المفكرين يذهبون هذا المذهب الإلحادي فمنهم من اهتدى إلى الحق عن طريق دراسة الكون وصرح بذلك في أبحاثه

نقل وحيد الدين خان عن العالم الأمريكي (سيسيل) قوله : (إن الطبيعة لا تفسر شيئا من الكون ، وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير) (٢)

ذلك لأن الطبيعة مجرد حقيقة من حقائق الكون وليست تفسيرا له . ومن ذلك قول العالم الأمريكي (ادوارد لوثر كسيل) : « لقد أثبتت البحوث العلمية دون قصد ، أن لهذا الكون بداية فأثبتت تلقائيا وجود الله ، لأن كل شيئ ذي بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته » (٣) .

وقد حفلت مكتبات العالم ، بمختلف اللغات ـ بكتب قيمة ، ألفها علماء راسخون متبحرون ، كلها تهدي إلى الله ، وتدعو إلى الإيمان به . وحسبنا مما كتب بالأنجليزية ونقل إلى العربية كتابان حازا شهرة عالمية واسعة :

أحدهما ألفه (أ . كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك ، وعنوان كتابه في الأصل (الإنسان لا يقوم وحده) وقد كتبه ردا على (جوليان هكسلي) في كتابه الإلحادي (الإنسان يقوم وحده) وقد ترجم الأستاذ محمد الصالح الفلكي كتاب . (كريس موريسون) إلي العربية بعنوان (العلم يدعو إلى الإيمان)

والثاني كتاب اشترك في تأليفه ثلاثون عالما من أشهر العلماء المتخصصين في أمريكا ، كل واحد منهم كتب فيه مقالا يبين فيه كيف اهتدى إلي وجود الله والإيمان به عن طريق علمه

---

1) سورة الكهف : الآية 50 .

2) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ـ ص 43 .

3) وحيد الدين خان :المرجع السابق ص 43 .

واختصاصه . وذلك الكتاب هو (الله يتجلى في عصر العلم) (١) وقد ترجمه إلى العربية الدكتور الدمرداش سرحان . (٢)

وبعد ، فالخلاصة أن المفكرين فريقان في نظرتهم للكون

فريق يجعل الكون إلها أو شبيها بالإله ، حينما يسند إلى قوى الطبيعة الفعل والخلق ، ومن ثم ينكر الخالق . وينتج عن هذا الإنكار فلسفة معينة ، وحضارة معينة ؛ تأخذ صبغة هذا الإنكار . وفريق يرى الكون أكبر دليل وأوضح حجة وأقواها على وجود الخالق جل وعلا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

1) لم أتحصل على الكتابين .

2) يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط[illegible] ص[illegible]

المبحث الثاني :

حقيقة الكون وصلته بالله في القرآن الكريم :

أولا : حقيقة الكون في القرآن الكريم .

1 ـ أصل الكون .

2 ـ مسألة ترتيب خلق السماء بالنسبة لخلق الأرض في أقوال المفسرين.

3 ـ حقيقة الأيام الستة في أقوال المفسرين .

4 ـ موقف العلماء من التفسير العلمي للآيات الكونية

ثانيا : صلة الكون بالله في القرآن الكريم .

1 ـ الكون عابد لله .

2 ـ الكون ملك لله .

3 ـ الكون من خلق الله

4 ـ الكون مخلوق لحكمة .

ثالثا : نهاية الكون .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني :

حقيقة الكون وصلته بالله في القرآن الكريم :

أولا : حقيقة الكون في القرآن الكريم

أ ـ أصل الكون :

ـ مادته :

ـ سعته :

إن المقصد الأساسي من إنزال القرآن هو الهداية والإرشاد ، هداية الإنسان إلى ربه سبحانه وتعالى ليعبده حق العبادة . وهداية القرآن عامة باقية تتجدد في أسلوبها بتجدد حياة المجتمع الإنساني ، لأن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أحاط بكل شيء علما .

ومع ذلك فقد تحدث القرآن عن الكون من جوانب عدة ليشعرنا بأن الكون مربوب لله تعالى مقهور لمراده لا يملك سلطانا ولا تأثيرا كما توهم بعض الناس .

ومن جملة القضايا التي أشار إليها القرآن في معرض حديثه عن الكون ، مادة الكون وزمن إنشائه .

وكان للمفسرين في هذه القضايا آراء وأقوال سنقف عندها .

ـ مادة الكون :

من النصوص القرآنية التي تتحدث بشيء من التفصيل عن مادة الكون في بعض مراحل نشأته ، وعن الأطوار والتحولات التي تمت فيه ، قوله تعالى

ـ ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك ربّ العالمين، وجَعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء

للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أوْ كرها ، قالتا : أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحي في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم" (1)

- وقوله تعالى :

"أوَلَم ير الذين كفروا أنّ السموات والأرض كانتا رتْقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون" (2)

- وقوله تعالى :

"خلق السمواتِ بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أنْ تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم" (3)

- وقوله تعالى :

"أأنتمَ أشدّ خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم" (4)

- أقوال المفسرين :

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : "وهي دخان" : "وهي بخار الماء المتصاعد من حين خلقت الأرض" (5)

ويفهم من قول ابن كثير أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء ، وهذه قضية اختلف

---

1) سورة فصلت : الآيات 9 - 12

2) سورة الأنبياء : الآيات 30 - 33

3) سورة لقمان : الآية 9

4) سورة النازعات الآيات ٢٧ - ٣٣

5) ابن كثير : التفسير ج 4 ص 93

فيها المفسرون ، وسنذكرها قريبا .

وقال المراغي في تفسير الآية السالفة: "... ثم دعا داعي الحكمة إلى خلق السماء وهي مادة غازية أشبه بالدخان أو السحاب أو بالسديم وتسمى في العلم الحديث "عالم السديم" (1)

وقال حنفي أحمد : " ... تبين أن مادة السماء قبل تكونها وتسويتها كانت مثل الدخان ، وإن تشبيه مادتها وتخصيصها باسم الدخان دون قوله مثلا : وهي هباء أو بخار أو هواء ، يشير إشارة قوية إلى أن مادة السماء الأولية قبل خلقها كان لها من الصفات الهامة ما يشبه صفات الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران ، أي أنها كانت مادة مظلمة بذاتها مفككة الأجزاء خفيفة منتشرة في القضاء كما ينتشر السحاب ، ساخنة إلى حد ما إذ الدخان لايصدر إلا من أصل ناري ، وأنها مثل الدخان العادي كانت حاوية لدقائق أنواع المادة الثلاثة صلبة وسائلة وغازية . (2)

وهناك قول قريب من قول ابن كثير ، يعتمد صاحبه أن مادة الكون هي "الماء" الذي أحد عنصريه الهيدروجين الذي فلقت ذراته فكان منها كل الأجرام ، وشكل الخالق العظيم كل جرم لما عسى أن يسخر له لحياة الإنسان على الأرض . (3)

واستدل بقوله تعالى : " وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ...." (4)

قال : " هذه الآية الكريمة هي الآية الوحيدة في القرآن التي أخبرت عما كان عليه الحال قبل خلق السموات والأرض ، عرش الله سبحانه والماء من تحته . والآية تقول : " وكان عرشه على الماء " وكان تخبر عن الماضي ، أي عن العدم الذي قبله وجود ، أي عن الماء الذي كان وليس له اليوم وجود ولهذا ، يخبرنا العلي العظيم أنه بعد خلق السموات ، فإن الملائكة هي التي تحمل العرش المجيد" (5) .

---

1) المراغي : تفسير المراغي ، الجزء 23 ص 111

2) حنفي أحمد : التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن دار المعارف ـ القاهرة ـ ط3 ص 211

3) صلاح الدين أبو العنين : الله والكون ، دار الفكر العربي ، ص 140

4) سورة هود : الآية 7

5) صلاح الدين أبو العنين : الله والكون ص 143

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول الله سبحانه وتعالى :

"الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا" (١)

إذًا فقد تبدل الحال ، فبعد أن كان الماء هو الذي تحت العرش ولا شيئ غير ذلك ، أصبح العرش العظيم محمولا على الملائكة وأصبحت أرضا وسموات وملائكة وإنس وجن وكل ماخلق الله من شيء ، ولانري في الكون "الماء" ... وبالتالي فإن العقل والفؤاد يسألان : أين ذهب "الماء" الذي كان عليه العرش ؟ هل اختفى فأزاحه خالقه إلى مكان لانعلمه ولا يعلمه إلا خالقه ، أم أن هذا الماء قد استنفذه ربه في خلق الأشياء . كما قال "وجلعنا من الماء كل شيء حي" ؟

وهل السموات والأرض من الأشياء الحية حتى تدخل في مفهوم هذه الآية ؟

ويجيب صاحب هذا الرأي بالإثبات ، أي أن السموات والأرض ومافيها من شيء ممن خلقها الله من الماء .

إذًا فالماء أو بالتدقيق أحد عنصريه هو "المادة" التي هي أصل الموجودات كلها .

هذه بعض فهوم أهل العلم فيما يتعلق بالنص القرآني الأول . أما فيما يخص النص الثاني وهو قوله تعالى :"أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجلعنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" فقد قال ابن كثير : " أي كان الجميع متصلا بعضه ببعض متلاصقا متراكما بعضه فوق بعض في إبتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ، فجعل السموات سبعا والأرض سبعا ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض" (٢)

ثم ساق ابن كثير قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن وقتادة.قال ابن عباس :"كانت السموات رتقا لا تمطر وكانت الأرض رتقا لا تنبت فلما خلق للأرض أهلا فتق هذه

---

1) سورة غافر : الآية 7

2) ابن كثير : التفسير ج4 ص 500

بالمطر وفتق هذه بالنبات" (1)

وقال سعيد بن جبير :"بل كانت السماء والأرض ملتزقتين ، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقها الذي ذكره الله في كتابه" (2)

وقال الحسن وقتادة :"كانتا جميعا ففصل بينهما بهذا الهواء" (3)

وقال المراغي :"كانتا مادة واحدة متصلة لا فتق فيها ولا انفصال ، وهي ما تسمى لدى علماء الفلك السديم ، ويسميها القرآن الدخان . "ففتقناهما" بفصل بعضهما من بعض فكان منها ماهو سماء ومنها ماهو أرض ...." (4)

أما حنفي أحمد فقال :"الآية تفيد معنيين ، أولهما : أن السموات والأرض كانتا رتقا أي ملتحمتين كجسم واحد ، ثم فصل سبحانه بينهما بالفتق ، والثاني : أن كلا من السموات والأرض كان جسما منفصلا ومرتوقا أي ملتحم الأجزاء ، ثم فتق تعالى جسم السموات إلى سبع سموات ، وجسم الأرض إلى سبع أرضين" (5)

ورجح كثير من المفسرين ، وخاصة أهل الأثر ، قول ابن عباس "رضي الله عنه" عن سائر الأقوال ، واعتمدوا في ذلك على قوله تعالى في الآية نفسها "وجلعنا من الماء كل شيء حي) قالوا:(وذلك لا يليق إلا وللماء تعلقا بما تقدم ولا يكون كذلك لا إذا كان المراد ما ذكرنا (6) . وأما عن خلق السماوات ورفعها بغير عمد فقد قال ابن كثير :(يخبرنا سبحانه وتعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السمارات بغير عمد ... ثم قال: روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا ترى، وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) فعلى هذا يكون قوله ترونها تأكيدا لنفي ذلك أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة) (7)

---

1) ابن كثير : التفسير ج4 ص (illegible)
2) ابن كثير : المرجع السابق ص (illegible)
3) ابن كثير : المرجع السابق ص (illegible)
4) المراغي : تفسير المراغي ج 1 ص (illegible)
5) حنفي أحمد : التفسير العلمي ص (illegible)
6) الرازي : التفسير الكبير ص (illegible)
7) ابن كثير : التفسير ج 4 ص (illegible)

وقال الرازي: (... وعندي فيه وجه حسن من الكل ، وهو أن العماد ما يعتمد عليه ، وقد دللنا على أن هذه الأجسام إنما بقيت واقفة في الجو العالي بقدرة الله ، وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى ، فنتج أن يقال : إنه رفع السماء بغير عمد ترونها أي لها عمد في الحقيقة إلا أن تلك العمد هي قدرة الله وحفظه وتدبيره وإبقاؤه إياها في الجو العالي ، وأنهم لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الإمساك) (1)

وقال المراغي في تفسير قوله تعالى (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها) :

« أي أنه خلق السماوات مرفوعات عن الأرض بغير عمد، بل بأمره وتسخيره،على أبعاد لايدرك مداها وأنتم ترونها كذلك بلا عمد من تحتهاتسندها، ولاعلاقة من فوقها تمسكها» (2)

ولكنه صرح في موضع آخر من التفسير أن هذه العمد هي قوى «الجاذبية » . قال في تفسير قوله تعالى من سورة البقرة (والسماء بناء) : « أي هو الذي كون السماء بنظام متماسك كنظام البناء وسوى أجرامها على ما نشاهد وأمسكها بسنة الجاذبية حتى لا تقع على الأرض ولا يصطدم بعضها ببعض حتى يأتي اليوم الموعود » (3)

وممن فسر الآية "بغير عمد ترونها"، وبالجاذبية ، أحمد حنفي، إذ قال: "أي كَوَّنَ وَسَوَّى تعالى السموات من أجزائها بِعَمَد لاترى أصلا بطبيعتها "أي غير مادية"وليس المعني بعمد مادية مختفيةعن الأنظار فليس في ذلك إظهار لقدرته تعالى،والأول هوالمقصود من الآية" (4)

وقال تحت عنوان "حفظ الأجرام من السقوط وبيان أن العمد الرابطة في بناء السماء قوى تجاذب" :

« أنه تعالى أوجد بين أجزاء الأجرام وبين الأجرام في بناء السماء قوى تجاذب وأنه كونها بواسطتها ، فيكون قد أوجد بين جميع الأجسام صغيرها وكبيرها قوى تجاذب من شأنها أن تشد بعضهاإلى بعض وأن تجمع بينها. وهذه النتيجة هي منطوق مايسمى بقانون الجاذبية العام » (5)

---

1) الرازي : التفسير الكبير ج18 ص 223
2) المراغي : التفسير ج13 ص 63
3) المراغي : التفسير ج1 ص 64
4) حنفي أحمد : التفسير العلمي ص 242
5) حنفي أحمد : المرجع السابق ص 250

وممن قال بهذا الرأي الشيخ محمد الغزالي :

".... فالجاذبية إذن على قدر علم الإنسان إلى الآن ، هي القوة التي يمسك بها الله السموات والأرض في مواقعها التي قدرها لها ، أو هذا إن شئت ، ما أدركه الإنسان إلى الآن ..." (1)

وهناك من قال "لاتوجد بالمعني الدقيق جاذبية للأرض ولا للشمس ولا للقمر" ونفى فكرة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس . وأثبت العكس ، وهو دوران أو بالأحرى جري الشمس في فلك حول الأرض ، وقدم أدلة على ذلك (2)

ـ سعة الكون :

أما فيما يتعلق بسعة الكون واتساعه ، فيقول الحق تعالى :"والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" (3)

قال ابن كثير :"أي قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتي استقلت كما هي" (4)

وقال الرازي :"قول تعالى :"وإنا لموسعون" فيه وجوه :

أحدها : أنه من السعة أي أوسعناها ، بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها كحلقة في فلاة .

ثانيهما : قوله "إنا لموسعون" أي لقادرون .

ثالثهما : وإنا لموسعون الرزق على الخلق (5)

وقال ابن باديس :

(لموسعون) :"لمقتدرون ومطيقون على احتمال أن يكون من الوسع بمعنى القدرة ، أو لموسعون ومبعدون بين أرجائها علي احتمال أن يكون من السعة" (6)

وقال حنفي أحمد :"أي أنه بنى السماء بقدرته وأنه موسع فيها ، و"موسع" من أوسع

---

1) محمد الغزالي : نظرات في القرآن ـ دار الشهاب ـ باتنة ـ ط 6 ، ص 135

2) صلاح الدين أبو العنين : الله والكون ـ ص 211

3) سورة الذاريات : الآية 47

4) ابن كثير : التفسير ص 237

5) الرازي : التفسير الكبير ص 227

6) ابن باديس : مجالس التذكير من كلام الحكيم الخ... ص 388

اللازمة ، معناها أنه جعل السماء فسيحة الأرجاء ، ومن أوسع المتعدية ، أنه بعد بنائها يزيد ويوسع فيها بالزيادة في الفضاء بين أجرامها وبالزيادة في عدد أجرامها كذلك. فالآية إذًا لها معنيان محتملان غير متعارضين : أولهما جعلها واسعة جدا ، وثانيهما أنه تعالى يزيد في سعتها" (1)

وقال في موضع آخر :

"وبالإجمال ، يفيد قوله تعالى "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" مع قوله تعالى "والسموات العلى" ومع آيات تسخير الأجرام بالجري ، أنه تعالى جعل بناء السماء واسعا ، بجعل الفضاء بين الأجرام شاسعا ، وأنه تعالى يزيد ويوسع باستمرار في الفضاء بين الأجرام بسبب جري مجاميع الأجرام فيه " (2)

2- مسألة ترتيب خلق السماء بالنسبة لخلق الأرض

أثار المفسرون هذه المسألة ، وتباينت آراؤهم فيها.

قال ابن كثير :" .... ذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس ، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده السقف" (3)

أماقوله تعالى :"أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها ..." (4)

ففي هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء ، فالدحو هو مفسر بقوله "أخرج منها ماءها ومرعاها" وكان هذا بعد خلق السماء ، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص (5)

وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنهما :

قال المنهال عن سعيد قال ، قال رجل لابن عباس . إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ ، قال الله تعالى :"فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساطون" (6) ،"وأقبل بعضهم على بعض

1) حنفي أحمد : التفسير العلمي ، ص 256
2) حنفي أحمد : المرجع السابق ، ص 300
3) ابن كثير : التفسير ، ص 92
4) سورة النازعات : الآية 27
5) ابن الكثير : التفسير ص 93
6) سورة المؤمنون : الآية 102

يتساطون" (1) "ولا يكتمون الله حديثا" (2) ، "ربنا ما كنا مشركين" (3) فقد كتموا في هذه الآية ، وقال "أم السماء بناها - إلى قوله - دحاها" (4) فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، ثم قال "أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين - إلى قوله - طائعين" (5) ، وقال تعالى :"وكان الله غفورا رحيما عزيزا حكيما ، سميعا بصيرا" فكأنه كان ثم مضى.فقال - أي ابن عباس جوابا عن هذه الإشكالات :

"فلا أنساب بينهم" في النفخة الأولى ثم في النفخة الآخرة "أقبل بعضهم على بعض يتساطون" ، وأما قوله "ماكنا مشركين - ولا يكتمون الله حديثا" فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فيقول المشركون تعالوا نقول لم نكن مشركين ، فختم على أفواههم فتنطق أيديهم فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثا ... وخلق الأراضي في يومين ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض ، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى ... ، فجعلت الأرض ومافيها من شيء في أربعة أيام وخلقت السموات في يومين "وكان الله غفورا رحيما". سمى نفسه ذلك ، وذلك قوله ، أي لم يزل كذلك ... فلا يختلف عليك القرآن ، فإن كلا من عند الله" (6)

وممن أيد القول ، بخلق الأرض قبل السماء ، المراغي في تفسيره قال :" ..وفي الآية إيماء إلى أن خلق الأرض ومافيها كان سابقا على تسوية السموات سبعا ، وهذا لا يخالف قوله تعالى :"أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها"لأن كلمة "بعد"فيها بعدية في الذكر لا في الزمان ، فمن استعمالاتهم أن يقولوا:أحسنت إلى فلان بكذا، وقدمت إليه المعونة وبعد ذلك ساعدته في عمله ، على معنى وزيادة على ذلك ساعدته ، أو أن الذي كان بعد خلق السماء هو دحو الأرض "(7)

أما الفخر الرازي فيرى عكس ذلك ، إذ يعتقد أن خلق السماء مقدم على خلق الأرض .

---

1) سورة الصافات : الآية 27

2) سورة النساء: الآية 42

3) سورة الأنعام : الآية 23

4) سورة النازعات : الآيات 27 ـ 30

5) سورة فصلت : الآيات 8 ـ 10

6) ابن حجر: فتح الباري المجلد 8 كتاب التفسير ص 555

7) المراغي : التفسير الجزء الأول ص 77

قال : " والمختار عندي أن يقال خلق السموات مقدم على خلق الأرض" بقي أن يقال كيف تأويل هذه الآية ؟ فنقول : الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، والدليل عليه قوله تعالى "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" (1) ، فلو كان الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين لكان تقدير الآية أوجده من تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال لأنه تعالى قد قال للشيء الذي وجد كن ثم إنه يكون وهذا محال ، فثبت أن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، بل هو عبارة عن التقدير ، والتقدير حق الله تعالى ، هو حكمه بأنه سيوجده وقضاؤه بذلك ، وإذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى :"خلق الأرض في يومين" معناه أنه قضى بحدوثه في يومين ، وقضاء الله بأنه سيحدث كذا في مدة كذا لا يقتضي حدوث ذلك الشيء في الحال ، فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض في يومين تقدم على إحداث السماء ، ولا يلزم منه تقدم إحداث الأرض على إحداث السماء ، وحينئذ يزول السؤال" (2)

ورد الرازي الرأي الأول القائل ، بخلق الأرض قبل خلق السماء ، واعتبره مشكلا من وجوه عدة ، وذكر هذه الوجوه ، فقال :

الوجه الأول : أنه تعالى بين أنه خلق الأرض في يومين ، ثم أنه في اليوم الثالث جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة منبسطة ، وقوله تعالى "وبارك فيها" مفسر بخلق الأشجار والنبات والحيوان ، و ذلك لا يمكن إلا بعد صيرورتها منبسطة ، ثم إنه تعالى قال بعد ذلك "ثم استوى إلى السماء" فهذا يقتضي أنه تعالى خلق السماء بعد خلق الأرض وبعد أن جعلها مدحوة وحينئذ يعود السؤال المذكور .

الوجه الثاني : أن الأرض جسم في غاية العظم ، والجسم الذي يكون كذلك فإنه من أول

---

1) سورة آل عمران : الآية 58

2) الفخر الرازي : التفسير الكبير - الجزء 29 ص 107/108

دخوله في الوجود يكون ممحوا ، فيكون القول بأنها ما كانت ممحوة ثم صارت ممحوة قول باطل .

الوجه الثالث : أنه لما حصل تخليق ذات الأرض في يومين وتخليق سائر الأشياء الموجودة في الأرض في يومين آخرين ، وتخليق السموات في يومين آخرين كان مجموع ذلك ستة أيام ، فإذا حصل دحو الأرض بعد ذلك فقد حصل هذا الوجود في زمان آخر بعد الأيام الستة ، فحينئذ ، يقع تخليق السموات والأرض في أكثر من ستة أيام ، وذلك باطل .

الوجه الرابع : أنه لا نزاع أن قوله تعالى بعد هذه الآية "ثم استوى إلى السماء فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها" كناية عن إيجاد السماء والأرض ، فلو تقدم ايجاد السماء على إيجاد الأرض لكان قوله "إئتيا طوعا أو كرها" يقتضي إيجاد الموجود ، وإنه محال وباطل" (1) .

وممن أيد الرازي وانتصر له في هذه المسألة ، حنفي أحمد قال :"وإني أرى الأخذ برأي الرازي - رحمه الله - الذي يقول أن أول ماخلق الله تعالى من مادة السماء الدخانية كان سبع سموات في يومين ثم خلقت الأرض بعد ذلك ، لوضوحه وقوة حجته، مع إضافة دلالات أخرى من جانبنا تؤيد خلق السماء قبل خلق الأرض، بل قبل خلق جميع الأراضين" (2)

وهذه الدلالات هي :

1- ذكر الله تعالى لفظي السماء والأرض معا في نحو تسع وثلاثين آية ، ولفظي السموات والأرض معا في نحو مائة وثمانين آية ، فأتى في نحو مائتين وثلاث آيات من مجموع هذه الآيات ، بلفظ السماء أو السموات قبل لفظ الأرض ولم يذكر الأرض قبل السماء أو السموات إلا في نحو ست عشرة آية فقط .

ومما يسترعي النظر أن نحو ثلثي الآيات التي وردت فيها السماء أو السموات قبل خلق الأرض تشير إلى خلقها ، على حين يشير الثلث الباقي إلى صفات أخرى لهما ، أما الآيات

---

1) الفخر الرازي : التفسير الكبير الجزء 29 - ص 105

2) حنفي : التفسير العلمي ص 221

الست عشر التي ذكرت فيها الأرض قبل السماء أو السموات فلم يشر منها إلى خلقهما سوى خمس فقط ، والباقي يشير إلى موضوعات مختلفة مثل قوله تعالى "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار" (1) . وبرغم أن "واو العطف" بين السماء أوالسموات والأرض لا تفيد الترتيب إلا بقرينة ، فإنا نرى في هذا التغليب الذي قرب الإجماع في ذكر السماء أو السموات قبل الأرض قرينة كافية على الأقل لترجيح خلق السماء قبل الأرض" (2)

2ـ قال تعالى : "الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن" (3) فجعل خلق الأراضين مشبها ، وخلق السبع السموات غير الأرضية مشبها به ، وحيث أن الجاري في العرف عند التعبير بإيجاد شيء شبيه بآخر سابق عليه في الوجود أن يذكر المشبه بعد المشبه به ، كما لو قلت : اشتريت قدرا من الشعير ومثله من الحنطة ، فإنه يرجع في الذهن على حسب العرف أن شراء الشعير سابق على شراء الحنطة ، ولو أن واو العطف لا تفيد الترتيب إلا أنه هنا مرجح بالإستعمال العرفي" (4)

أما سعيد حوى ، فيرى أن الإشكال في فهم الآية جاء من عدم التنبه إلى أن كلمة السماء* تستعمل في القرآن على أكثر من استعمال ، فأحيانا تطلق على ماعلا ، فيدخل في ذلك النجوم والمجرات ، وأحينا تذكر ويراد بها السموات السبع التي هي سكن الملائكة ، وإليها تعرج أرواح المؤمنين ، وإليها كان معراج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي في أعلاها الجنة .... وعدم التفريق بين المعنى الإصطلاحي للسموات السبع وبين السماء مطلقا كما هو معناها في اللغة مزلة قدم في فهم كتاب الله" (5) .

---

1) سورة ابراهيم : الآية 48

2) حنفي أحمد : التفسير العلمي : ـ ص 222

3) سورة الطلاق : الآية 12

4) حنفي أحمد : التفسير العلمي ص 222

* وردت كلمة السماء في القرآن الكريم بمعان متعددة منها السحاب كما في قوله تعالى « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ....»

وجاءت بمعنى المطر كما في قوله تعالى : « يرسل السماء عليكم مدرارا »

وجاءت بمعنى الجهة ، كما في قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنوليتك قبلة ترضاها » .

كما جاءت بمعنى الجرم المعهود بعينه كما في قوله تعالى : «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح »

كما جاءت بمعنى الافضاء الواسع في قوله تعالى (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا في فيبسطه في السماء كيف يشاء ... »

5) سعيد حوى : الأساس في التفسير ـ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ط 1 1405 هـ المجلد الأول ص 110

وأجاب عن الإشكال أيهما خلق أولا : الأرض أم السماء ؟ .

بقوله : " ... والذي اتجه إليه في الموضوع أن السموات التي ذكرنا مواصفتها خلقت بعد الأرض ، أما السماء ككل أي هذه المجرات فإنها خلقت قبل الأرض ، ويؤيد هذا الإتجاه . أن الله عزوجل قد ذكر أن خلق السموات والأرض قد كان قبله شيء آخر ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾ (1)

وبهذا الإتجاه الذي اتجهناه نكون قد جمعنا بين النصوص" (2)

ومن المفسرين من قال أن السموات السبع هي السيارات في المنظومة الشمسية ، وأنها هي المقصودة بهذا في القرآن الكريم حيثما ذكرت السموات السبع .

قال القاسمي : « فالسموات السبع المذكورة كثيرا في القرآن هي هذه السيارات السبع وهي طباق أي أن بعضها فوق بعض لأن فلك كل منها فوق فلك غيره » (3)

ولكن هذا الفهم بعيدا للأسباب التالية :

أولا : - إن القرآن الكريم قد ذكر السماء وأراد بها الجرم المعهود غير هذه النجوم والكواكب في كثير من الآيات .

ثانيا : - إن الله تعالى يقول : " إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب " (4) وما به الزينة غير ما له قطعا ، وإلا كانا شيئا واحدا ، فلو كانت السماء المذكورة في القرآن هي الكواكب لزم أن تكون مزينة لنفسها وهو باطل .

ثالثا : - قال الله تعالى: « ألَمْ ترَوْا كيف خلق اللهُ سبعَ سموات طباقاً وجعل القمرَ فيهن نورا وجعل الشمسَ سراجا " (5) . ومن المعلوم أن المجعول غير المجعول فيه .

رابعا : - قال الله تعالى : " إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت " (6) فجعل الكواكب غير السماء . وذكر في سورة التكوير انكدار النجوم ثم كشط السماء .

---

1) سورة هود : الآية 7

2) سعيد حوى : الأساس في التفسير المجلد 1 ص 110

3) جمال الدين القاسمي : محاسن التاويل ط عيسى الطبي 1970 ـ 16 / 5877

4) سورة الصافات : الآية 6

5) سورة نوح : الآيتان 16،15

6) سورة الإنفطار : الآيتان 1 ، 2

والحق أن السموات بلفظ الجمع قد وردت في كثير من آيات القرآن وقيدت بلفظ السبع في بعض الآيات . وهي من المسائل التي لم يوفق الله الناس ـ لحد الآن ـ إلى معرفة حقيقتها على وجه لا اعتراض عليه . وعليه فالواجب على المسلم أن يثبت السماء كما أثبتها القرآن .

3 ـ مسألة خلق السموات والأرض في ستة أيام .

أخبرنا القرآن الكريم أن عوالم هذا الكون لم يخلقها الله سبحانه وتعالى دفعة واحدة لحكمة يدركها هو ، فمنها ماهو سبق ومنها ماهو لاحق .

ومن الآيات القرآنية التي ورد فيها خلق السموات والأرض في ستة أيام . قوله تعالى :

"إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين" (1)

وقوله تعالى :"قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم" (2)

وجاء مثل هذا في سور عديدة . (3)

وفي هذه المسألة تعددت أقوال المفسرين .

قال القرطبي :

---

1) سورة الأعراف : الآية 53

2) سورة فصلت : الآيات 9 ـ 11

3) السور : (هود : 7) ، (الرعد 2) ، (الفرقان : 59) ، (السجدة : 4) ، (ق : 38) ، (الحديد : 4)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

"... واليوم من طلوع الشمس إلي غروبها ، فإن لم تكن شمس فلا يوم ، قاله القشيري ، وقال معنى ستة أيام أي من أيام الآخرة ، وكل يوم ألف سنة لتفخيم خلق السموات والأرض ، وقيل من أيام الدنيا . قال مجاهد وغيره أولها الأحد وآخرهما الجمعة ، وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها في لحظة فعل إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون ، ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت" (1)

وقال ابن كثير :

" .... والستة الأيام هي الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم ، واختلفوا في هذه الأيام ، هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو متبادر إلى الأذهان أو كل يوم كألف سنة كما نص ذلك مجاهد والإمام أحمد ، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس " (2)

أما الرازي ، فقد فصل الآية إلى مسائل وأسئلة ، ومن الأسئلة التي طرحها ، قال :: "اليوم إنما يمتاز عن الليلة بسبب طلوع الشمس وغروبها ، فقبل خلق الشمس والقمر كيف يعقل حصول الأيام" . وأجاب عن هذا السؤال ، فقال :"فجوابه المراد أنه تعالى خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام وهو كقوله : "لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا" . والمراد على مقدار البكرة والعشي في الدنيا ، لأنه لا ليل ثم ولا نهار" (3) .

وقال المراغي :" ... وليست هذه الأيام الستة من أيام الأرض ، وهي التي مجموع ليلها ونهارها أربع وعشرون ساعة ، فإن هذه إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض ، فكيف يعد خلقها بأيام منها ، ولأن الله يقول :"وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون" ، ويقول في وصف يوم القيامة :" في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" (4) .

ثم قال :"وما ورد في الأخبار مما يدل على أن هذه الأيام الستة هي من أيام دنيانا كحديث أحمد ومسلم عن أبي هريرة قال :"أخذ رسول الله بيدي فقال :"خلق الله عزوجل

---

1) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ـ ص 219 .
2) ابن كثير التفسير ـ ص 178
3) الرازي : التفسير الكبير ص 100
4) المراغي : التفسير . الجزء الثامن ص 12

التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها رواسي يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل" ، فهو من الإسرائيليات التي لم يصح فيها حديث مرفوع ... ومن ثم قال الحافظ ابن كثير بعد أن أورد الحديث في تفسيره : وفيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قال :"في ستة أيام" ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ فيه وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعا . (1)

أما حنفي أحمد فيرى أن اليوم قد يكون معناه النوبة أو الحادثة ، "واليوم أصل معناه مجموع زمني الليل والنهار المتعاقبين ، ولكنه استعمل في بعض آي القرآن ، وفي كلام العرب بمعنى أي قدر من الزمان صغيرا كان أو كبيرا ، وكذلك بمعنى الحوادث والوقائع الهامة " (2) ،

ثم قال :"هل في الآيات مايدل على أن السموات والأرض خلقتا بحوادث ستة ؟ والجواب عندي : نعم ، ففي آية الرتق والفتق (3) مايدل على ذلك " (4) ثم فصل ذلك اعتمادا على المعاني المحتملة للفظي الرتق والفتق واستنادا للآية التي سماها آية المطاوعة وهي قوله تعالى :"ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين" (5) ثم قال :" وبالإجمال خلقت السموات في يومين بحادثتي رتق ثم فتق أو تجميع ثم تفريق ، ثم خلق أجرام الأراضين منها في يومين بحادثتي رتق ثم فتق ثم أكمل خلق الأراضين في يومن آخرين بحادثتي رتق ثم فتق . وبعبارة أخرى أن مجموع أيام الخلق الستة مساو لمجموع حوادث الرتق ثم الفتق التي تم بها ، فيكون خلق السماوات في يومين

---

1) المراغي : التفسير الجزء التاسع ص 172

2) حنفي أحمد : التفسير العلمي ص 224

3) المقصود بآية الرتق والفتق قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما »

4) حنفي أحمد : التفسير العلمي ـ ص 225

5) سورة فصلت : الآية 10

خلقهن في زمنين مجهولين بحادثي رتق ثم فتق ، وأن خلق الأرض في أربعة أيام معناه خلقها في أربعة أزمنة مجهولة : أولا خلق جرمها بحادثي رتق ثم فتق ، ثم اتمام خلقها بحادثين آخرين رتق ثم فتق " (1) .

أما سيد قطب رحمه الله فقال : " ... وعلى أية حال فالأيام الستة من غيب الله الذي لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر فعلينا أن نقف عنده ولا نتعداه ، والمقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التدبير والتقدير والنظام الذي يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه" (2)

وقال سعيد حوى : "النصوص القرآنية قطعية الدلالة في أن السموات والأرض خلقت في ستة أيام ولكن لم يرد نص في الكتاب والسنة يوضح ماهية هذه الأيام الستة ، وماذا تم في كل واحد منها على التعيين" (3)

4 ـ موقف العلماء من التفسير العلمي للآيات الكونية :

بقي أن نقول : إن هذه فهوم بعض المفسرين للآيات، وقد تكون صحيحة ، وقد تكون غير ذلك . ولكن الثابت أن السماء في فترة من فترات نشأتها كانت دخانا لكننا لا نملك تحديد الهيئة التي كانت عليها وهي دخان ولا حقيقة هذا الدخان .

والثابت أن خلق السماوات والأرض تم في ستة أيام ولكننا لا نملك تحديد المراد بدقة من هذه الأيام الستة ، والثابت أن القرآن صرح بأن السماوات والأرض كانتا رتقا و ولكن ماحقيقة هذا الرتق والفتق .؟ !

إذا تبقى هذه الفهوم والآراء تؤدي دور توسيع الرؤية البشرية لدلالات بعض النصوص

---

1) حنفي أحمد : التفسير العلمي ـ ص 225

2) سيد قطب : في ظلال القرآن ـ ص 2172

3) سعيد حوى : الأساس في التفسير ـ المجلد الأول ـ ص 107

القرآنية في ظل الاكتشافات العلمية ، ولكنها ليست القول الفصل . فقد يأتي ما ينقضها ويهدمها وقد حصل هذا مع أمور كثيرة ظن الناس أنها الحق الذي لا مرية فيه ثم تبين أنها ليست كذلك .

ولهذا تباينت أراء المفسرين والباحثين في هذا اللون من التفسير . فمنهم من أيده ومارسه ، ومنهم من عارضه ودعا إلى رفضه . وكان لكل فريق أدلته وحججه التي يرتكز عليها في التأييد أو الرفض .

وقد تناول الباحثون هذا الموضوع ـ أي التفسير العلمي ـ بالدراسة ، فتكلموا عن نشأته وأسباب رواجه في العصر الحديث ، وعن أشهر المفسرين الذين تناولوه قديما وحديثا ، وأشهر الذين عارضوه قديما وحديثا أيضا . وصنفوا القائلين به إلى معتدلين وغلاة وساقوا نماذج من تفسير هؤلاء وأولائك .(1)

ومن أشهر المفسرين القدامى الذين تناولوه ، الفخر الرازي . ومن ردوده على الذين عابوا عليه ذلك قوله :

« ربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال : إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم ، وذلك على خلاف المعتاد ، فيقال لهذا المسكين : إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته »(2)

ثم قرر ذلك من وجوه .

الأول : إن الله تعالى ملأ كتابه بمثل تلك الإستدلالات الكونية ، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزا ما ملأ الله كتابه منها .

الثاني : إنه تعالى قال : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) (3) فهو قد حث على التأمل في كيفية بنائها ، ولا معنى لعلم الهيئة إلا هذا .

---

1) أحمد أبو حجر : التفسير العلمي في الميزان ـ دار قتيبة للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1 1991 ، ص 103 وما بعدها
وانظر : عبد المجيد المحتسب : اتجاهات التفسير في العصر الراهن
ومحي الدين بلتاجي : دراسات في التفسير وأصوله ، دار الثقافة ، الدوحة ، ط 1987
2) الرازي : مفاتيح الغيب ، 4 : 23 /
3) سورة ق : الآية 6

الثالث :إن الله تعالى رغب التأمل في أبدان الناس بقوله :«وفي أنفسكم أفلا تبصرون »(1) فما كان أعلى شأنا وأعظم برهانا منها أولى بأن يجب التأمل في أحوالها ومعرفة ما أودع الله فيها من العجائب والغرائب .

الرابع : إن الله تعالى مدح المتفكرين في خلق السماوات والأرض : « ويتفكرون في خلق السماوات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا » (2) ولو كان ذلك ممنوعا منه لما فعل .

ثم ختم هذا البيان بقوله :

« فإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار لا لتكثير النحو الغريب و الاشتقاقات الخالية من الفوائد والحكايات الفاسدة . نسأل الله العون والعصمة ...» (3) .

ومن أشهر المعارضين القدامى (الشاطبي) . وتتلخص حجته فيما يلي

(إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيئ من هذا المدعى سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكليف وأحكام الآخرة وما يلي ذلك ، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيئ مما زعموا ...) (4)

وقد رد العلماء على الشاطبي فكرته القائلة « بأمية الشريعة » (5)

أما أشهر الذين تناولوه في العصر الحديث فنذكر على سبيل المثال : الشيخ طنطاوي جوهري وقد صنف في المقالين ، وحنفي أحمد ، والدكتور أحمد الغمراوي وغيرهم .

أما أشهر المعارضين له في العصر الحديث فنجد الشيخ محمود شلتوت ، وأمين الخولي ، وسيد قطب ، وغيرهم .

---

1) سورة الذاريات : الآية 21

2) سورة آل عمران : الآية 191

3) الرازي : مفاتيح الغيب 4 : ص 237 ، 238

4) الشاطبي : الموافقات دار المعرفة بيروت الجزء 2 ص 79

5) انظر : عبد الله دراز في تعليقه على الموافقات ، و محمد الغزالي ـ كيف نتعامل مع القرآن) ص 197

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالشيخ محمود شلتوت بين موقفه من هذا اللون من التفسير في مقدمة تفسيره . قال : « هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك ، لأن الله تعالى لم ينزل القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف . وهي خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمفسرين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز ولا يسيغه الذوق السليم . وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان . والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير ، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غدا من الخرافات فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولأوقعنا أنفسنا موقفا حرجا في الدفاع عنه ... فلندع للقرآن عظمته وجلاله ونحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن ما يتضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس إيمانا مع إيمانهم » (1)

أما سيد قطب فقد عارض هو الآخر هذا اللون من التفسير فقال :

:"ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أي نظرية فلكية ولا نطلب تصديقا للقرآن في نظريات البشر وهو حقيقة مستيقنة ، وقصارى ما يقال : إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص السابق عليها بأجيال" (2)

وقال في موضع آخر :"لا يجوز أن نحمل هذا النص على نظرية «السديم» ، فالسديم ليس إلا مجرد نظرية ومثلها سائر النظريات الأخرى عن نشأة هذا الكون التي لم يشهدها أحد من البشر ولا غيرهم من خلق الله" (3)

ولعل نفور سيد قطب من هذا الإتجاه في التفسير الذي يحمل النصوص القرآنية مالا تحتمل من آراء البشر هو نظرته لطبيعة المنهج القرآني ، فالقرآن لم ينزل ليكون كتاب علوم فلكية ، أو طبيعية أو بيولوجية أو طبية أو غيرها ، ثم أن نصوص القرآن قطعية الثبوت

---

1) محمود شلتوت : تفسير القرآن الكريم ، الأجزاء العشرة الأولى ، ط [illegible] ، المقدمة ، ص [illegible] ـ 10

2) سيد قطب : في ظلال القرآن ص 2375

3) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي ، دار الشروق ط [illegible] ، ص [illegible]

وقطعية الدلالة وهي صادقة بذاتها ولا تحتاج إلى اثبات صدقها بنظريات البشر. فالنصوص القرآنية نهائية في تقرير الحقيقة التي تقررها ، ومن ثم لا يجوز أن يستشهد على صدقها بقول آخر إلامن جنسها أو مستواها من حيث قطعية الدلالة ونهائيتها المطلقة . وقول البشر و منه كل ما يقررونه سواء من الحقائق العلمية أو النظريات العلمية ، ليس من جنس تلك النصوص ولا هو من مستواها حتى يستشهد به على صدقها .

ولذلك يعتبر الجري وراء النظريات للتوفيق بينها وبين نصوص القرآن خطأمنهجي وخطأ عقائدي يدل على انهزام أصحابه .

وهذا المسلك الذي سلكه سيد قطب وأمثاله من المفسرين مسلك صواب ، ولكن هذا لا يمنع من الإنتفاع بما ثبت من الحقائق العلمية في توسيع مدى الرؤية البشرية لدلالات بعض النصوص القرآنية على شرط ألا تطغى المباحث العلمية عن المقصود الأول من القرآن وهو الهداية والإعجاز وتنظيم شؤون الناس وتقويم معوج حياتهم ، أما إن أسرف المفسر واشتغل بتفريعات العلوم و النظريات الكونية ، فقد انعكست الآية ولم يعد التفسير تفسيرا ، وهذا الأمر تكاد تتفق عليه كلمة المفسرين .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا : صلة الكون بالله في القرآن الكريم :

أ ـ الكون عابد لله :

كل الكائنات في التصور الإسلامي ـ عدا الإنس والجن ـ تعبد الله بالفطرة والإلهام ولا تملك قدرة على المخالفة والعصيان . (وهذا شامل لجميع المخلوقات غير المكلفة بالشرائع والأديان من الجماد الهامد إلى الملائكة المقربين)(1)

ويدخل في هذا النطاق :

ـ عالم الجماد والأجرام العلوية والسفلية والمادة العارية عن الحياة في شتى صورها وأطوارها . قال الله تعالى : « يسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » (2)

وقال تعالي : « ويسبح الرعد بحمده و الملائكة من خيفته » (3)

ـ عالم النبات بجميع أنواعه وأصنافه وأشكاله . قال تعالى : « والنجم والشجر يسجدان »(4) والنجم ما لا ساق له ، والشجر ما له ساق من النبات (5)

ـ عالم الحيوان والدواب بجميع الأنواع والأصناف . قال تعالى : « ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة» (6)

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه »(7)

ـ عالم الملائكة ، وهم عباد الله المكرمون وجنده المقربون الذين لا يعصون الله ما أمرهم

---

1) الدكتور ، عبدالستار نوير : رسالة الإنسان في الحياة ، دار الثقافة الدوحة ، ط 1987 ، ص 13

2) سورة الإسراء : الآية 44

3) سورة الرعد : الآية 14

4) سورة الرحمن : الآية 6

5) انظر تفسير ابي السعود : مكتبة الرياض ـ الرياض 242/5

6) سورة النحل : الآية 49

7) سورة النور : الآية 41

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويفعلون ما يؤمرون . قال الله تعالى : « ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » (1)

وهناك آية تجمع هذه العوالم كلها مع إضافة بعض المكلفين . قال الله تعالى : « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » (2)

إذا ، قد عبر القرآن عن عبادة الكون لله بلفظي التسبيح والسجود . فما حقيقة ذلك ؟

أما سجود غير المكلفين من الجماد والنبات والحيوان فيراد به الطاعة والإنقياد التام لأمر الله عز وجل . جاء في تفسير القاسمي لقوله تعالى : « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب...» ما نصه : « بيان لعظمته تعالى وانفراده بالوهيته وربوبيته وانقياد هذه العوالم العظمى له وجريها على وفق أمره وتدبيره ، فالسجود فيها مستعار من معناه المتعارف لمطاوعة الأشياء له تعالى فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريه عليها من تدبيره وتسخيره لها ، ووجه الشبه الحصول على وفق الإرادة من غير امتناع منها فيها » (3)

ولا مانع أن يكون المراد السجود الحقيقي بحسب حالها ،إذ لا توجد استحالة في ذلك (4) وقد اختار هذا الرأي الحافظ ابن كثير ، قال في تفسير الآية السابقة من سورة الحج :

« يخبر تعالى أنه المستحق بالعبادة وحده لا شريك له ، فإنه يسجد لعظمته كل شيئ طوعا وكرها ، وسجود كل شيئ مما يختص به .قال تعالى : « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض » أي من الملائكة في أقطار السماوات ، والحيوانات في جميع الجهات والإنس والجن والدواب والطير، وقوله تعالى:« والشمس والقمر والنجوم »إنما ذكر

---

1) سورة النحل : الآية 49

2) سورة الحج : الآية 18

3) جمال الدين القاسمي : محاسن التأويل : دار إحياء الكتب العربية القاهرة 1332هـ الجزء 12 ص 4331

4) عبد الستار نوير : رسالة الإنسان في الحياة . ص 17

هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة ...» (1)

ثم ذكر حديثا في الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدري أين تذهب الشمس ؟ » قلت الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت » (2)

وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى : « يسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ... » الآية (3)

« ... اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟ فقالت طائفة : ليس بمخصوص ، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر . وقالت طائفة هذا التسبيح علي حقيقته والعموم على ظاهره ، والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذي معناه التنزيه ، وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه ، ويؤيد هذا قوله سبحانه : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ، فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمرا مفهوما لكل أحد . وأجيب بأن المراد بقوله : « لا تفقهون » الكفار الذين يعرضون عن الإعتبار . وقالت طائفة إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات ، وقيل خاص بالأجسام النامية فيدخل النبات . كما روي هذا القول عن عكرمة والحسن ، وخصا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها ، وقد استدل لذلك بحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على قبرين وفيه (دعا بعسيب رطب فشقه اثنين وقال:إنه يخفف عنهما ما لم ييبسا) .

ويؤيد حمل الآية على العموم قوله تعالى : « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي

---

1) ابن كثير : التفسير دار الأندلس ـ بيروت ـ ط4 1983 الجزء 4 ، ص 622

2) ابن كثير : التفسير : ج4 ـ ص 622

3) سورة الإسراء : الآية 44

والإشراق » (1) وقوله تعالى : « وإن منها لما يهبط من خشية الله »(2)

وقوله : " وتخر الجبال هدا) (3)

ونحو ذلك من الآيات »(4)

ثم قال : « وثبت في الصحيحين أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا حديث حنين الجذع وحديث أن حجرا بمكة كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وكلها في الصحيحين . ومن ذلك تسبيح الحصى في كفه صلى الله عليه وسلم . ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الإستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده »(5)

وينسب إلى السلف الرأي القائل بأن غير المكلفين سجودهم وتسبيحهم وعبادتهم أمر حقيقي لا تجوّز فيه . (6)

ولعل مما يؤيد هذا الرأي ما يلي :

أولا : قوله تعالى : « يسبح له السموات السبع والأرض » الأصل والأولى حمل لفظ «يسبح» فيه على المعنى الحقيقي حيث لا توجد إستحالة ولا مانع صحيح من إرادته واعتماده ، وخاصة أن تسبيح الكائنات تكرر ذكره في الآية وغيرها بصيغ مختلفة وعلى وجه يشعر بالتأكيد . على أن القرآن يعبر عن دلالة مخلوق على خالقه بلفظ آخر مثل لفظ (آية) وهو كثير في القرآن .

(وليس من اللازم أن يكون تسبيحها كتسبيحنا ، وليس من اللازم أن نعرف هذا التسبيح أو نحسه أيا كان حقيقته ونوعه) (7)

ثانيا : قوله تعالى : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم »

---

1) سورة ص : الآية / 1

2) سورة البقرة : الآية 1-/

3) سورة مريم : الآية 91

4) الشوكاني : فتح القدير دار الفكر بيروا ط 3 ، 230/3

5) الشوكاني : فتح القدير . 230/3

6) عبد الستار نوير : رسالة الإنسان في الحياة ص 25

7) عبد الستار نوير : رسالة الإنسان في الحياة ص 21

بعد أن بين أن كل شيئ في الوجود يسبح في قوله « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » جاء هذا الجزء من الآية يقرر ثبوت التسبيح ويكشف عن طبيعته ولو بوجه ما أو بعبارة أخرى يميزه ويبين أنه من نوع ما لا نعرفه ولا نسمعه وهو معنى يلائم طبائع الأشياء وينسجم مع صدر الآية ، فالأصل والأولى أن يحمل هذا الجزء من الآية على ظاهره والمعنى المتبادر منه ، ولا مبرر للتأويل ، ولا لاعتبار الآية خاصة بالمشركين . إذ تقرر هذا انتفى أن يكون معنى تسبيح الأشياء هو دلالتها على خالقها وأن يكون مثل تسبيحنا ، وثبت أنه تسبيح حقيقي من نوع آخر يلائم تلك الأشياء ، يعلمه الله ولا نعلمه . (1)

ثالثا : قوله تعالى : « كل قد علم صلاته وتسبيحه » يفيد أن كلا منها له عبادته وصلاته وتسبيحه الخاص به ، الأمر الذي يعلمه الله منه كما يعلمه الكائن من نفسه ، ولا يعرفه البشر كما يفيد أسلوب الآية . ولا يظهر معنى إختصاص كل منها بصلاة وتسبيح معين ، ولا اختصاص الله بالعلم بتلك العبادة ، ثم صاحبها ، إذا كان الأمر أمر دلالة المخلوق على خالقه ، فهذا أمر يعلمه البشر ولا يختص بالكائنات غير المكلفة فضلا عن أن يختص به كل صنف منها دون الآخر . (2)

إذاً ، فقد أثبت القرآن الكريم تسبيح الكون وسجوده لله. أما كيفية التسبيح والسجود فذلك ما لا نفقهه كما أخبر المولى سبحانه وتعالى . ولكن الذي ندركه من القرآن أن الكون عابد لله مستسلم له . وعلى أساس هذه الحقائق يقوم التصور الإسلامي لحقيقة الكون . وعلى أساسها تنتفي التصورات الجاهلية الوثنية والإلحادية .

2 ـــ الكون ملك لله :

كما أثبت القرآن الكريم أن الكون عابد لله مربوب له مقهور لمراده لا يملك سلطانا ولا تأثيرا . فقد أثبت كذلك أن الكون ملك لله سبحانه وتعالى . ومن شواهد ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى :

---

1) عبد الستار نوير : رسالة الإنسان في الحياة ص 21

2) عبد الستار نوير :المرجع السابق ص 22

"وَلِلَّهِ ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق مايشاء وهو على كل شيء قدير" (1)

"لِلَّهِ ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير" (2)

"وَلِلَّهِ ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون" (3)

"وَلِلَّهِ مافي السموات والأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى" (4)

"لَهُ ملكُ السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور" (5)

"قل لمن الأرضُ ومن فيها إنْ كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولايجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون" (6)

يتضح من الآيات الكريمة السابقة أن الكون بجميع عناصره ملك لله ، ولله وحده ، ويدل على هذا التخصيص تقدم الجار والمجرور "لله" في صدر كل آية منها ، إشعارا بأنه هو المالك لكل ماذكر من عناصر الكون ، وليس غيره مالكا لها أو لشيء منها .

وفي ملكية الله للكون دليل على وحدانيته سبحانه وتعالى ، ذلك أن الذي له السيطرة المطلقة على الكون هو الحري بالعبادة وحده ، وهو الحري بأن يتخذ إلاها دون سواه "قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ومالهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير" (7)

3 ـ الكون من خلق الله :

المتأمل في القرآن الكريم يجد نفسه أمام آيات كثيرة ، تقرر بوضوح تام أن الكون بسماواته وأراضيه ، وما بينهما ، ومافيهما خلق الله سبحانه وتعالى ، وهذه طائفة من

---

1) سورة المائدة : الآية 42
2) سورة المائدة : الآية 120
3) سورة الجاثية : الآية 26
4) سورة النجم : الآية 30
5) سورة الحديد : الآية 5
6) سورة المؤمنون : الآيات 85 ـ 90
7) سورة سبأ : الآية 22

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الآيات البينات تشهد على ذلك .

قال سبحانه وتعالى :"إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين" (1) .

وقال سبحانه وتعالى :"إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر مامن شفيع إلا بأذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه" (2)

"خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن في ذلك لآية للمؤمنين" (3)

" أولم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون" (4)

"خلق السموات والأرض بغير عمد ترونها " (5)

"ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله،قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (6)

" وخلق الله السمواتِ والأرض بالحق ،ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون" (7)

هذه طائفة من الآيات الكريمة ، تكرر فيها لفظ الخلق مرات عديدة ، والتكرار خاصة من خصائص القرآن الكريم تحدث عنها العلماء بإسهاب وبينوا وجوه الحكمة فيها. بل قالوا ليس ثمة تكرار في القرآن بالمعنى الظاهر،وإنما هناك تنويع أو تشابه،وقليل جدا هي الآيات أو العبارات التي وردت بنصها أكثر من مرة . فالتنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن (8) .وفي القرآن من هذه الظاهرة ـ ظاهرة التكرار ـ نوعان :

---

1) سورة الأعراف : الآية 53

2) سورة يونس : الآية 3

3) سورة العنكبوت : الآية 44

4) سورة الروم : الآية 7

5) سورة لقمان : الآية 9

6) سورة لقمان : الآية 24

7) سورة الجاثية : الآية 21

8) محمد قطب : دراسات قرآنية ، فصل ظاهرة التكرار في القرآن ، دار الشروق ، 1991 ، ص 261

1 ـ تكرار بعض الألفاظ والجمل .

2ـ تكرار بعض المعاني كالأقاصيص والأخبار .

فالنوع الأول يأتي على وجه التأكيد ، ثم هو ينطوي بعد ذلك على نكت بلاغية أخرى كالتهويل والإنذار والتجسيم والتصوير .

وأما النوع الثاني منه ، وهو تكرار المعنى كتكرار بعض القصص والأخبار ، فهو أيضا ظاهرة بارزة في كتاب الله عزوجل ، ومرد ذلك إلى غرضين هامين :

الأول : إنهاء الحقائق حقائق الدين ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها ، أو بعبارة أخرى القصد منه التربية والتهذيب ، والمعروف أن التربية لا تتم في مرة واحدة وبكلمة واحدة بل تحتاج إلى إعادة الخطاب وتنويعه .

وفي بيان هذه الحكمة يقول الله سبحانه وتعالى :"وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا" (1)

قال الزركشي في البرهان :"وحقيقته ـ أي حقيقة التصريف ـ إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به" (2)

الثاني : " هو إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة والأساليب مختلفة تفصيلا وإجمالا ، وتصريف الكلام في ذلك حتى يتجلى إعجازه ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه . (3)

ومن المحال أن نعثر في القرآن كله على معنى يتكرر في أسلوب واحد من اللفظ يدور

---

1) سورة طه : الآية 113

2) الزركشي : البرهان ، 3/10

3) البوطي من روائع القرآن ، مكتبة الفارابي دمشق ط 3 1975 ـ ص 119 ـ

ضمن قالب واحد من التعبير ، بل لابد أن تجده في كل مرة يلبس ثوبا جديدا من الأسلوب وطريقة في التصوير والعرض ، بل لابد أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى .

ففي الآيات السابقة اتفاق في الإشارة إلى خلق السموات والأرض واختلاف في المعنى في خواتم الآيات .

ففي آية "الأعراف" : ذكر خلق السموات والأرض في ستة أيام .

وفي آية "يونس" : ذكر الإستواء علي العرش وتدبير الأمر .

وفي آية "العنكبوت" : التركيز على أن الخلق تم بالحق .

وفي آية "الروم" : نفي العبث في الخلق وإثبات الأجل المحدد .

وفي آية "لقمان" : التركيز على خلق السموات بغير عمد ، وتثبيت الأرض بالرواسي ، وفي آية "نوح" ذكر عدد السموات وصفاتها .

وفي آية "الأحقاف" إثبات القدرة الإلاهية ونفي العجز عن الله عزوجل . وهكذا يستحيل أن يكون التكرار في أسلوب واحد من اللفظ ، وضمن قالب واحد من التعبير ، وبهذا الإعتبار ينتفي التكرار ، فكل آية جاءت بلفظ واحد في مواطن متعددة ، فيجب أن يكون المقام يقتضيها ، وبهذا يكون لها معنى جديد مع أن ألفاظها واحدة .

إن الآيات السالفة الذكر ، وغيرها تقرر بوضوح أن الكون مخلوق حادث وليس بالقديم الأزلي،كما أنه لم ينشأ من ذات نفسه ، لقد خلقه الله سبحانه وتعالى وأنشأه ، بعد أن لم يكن، سواء في ذلك مادة بنائه الأساسية ،أو الصورة التي ظهرت فيها، والله سبحانه وتعالى في خلقه للكون لم يشاركه أحد، وقد أخبرنا بذلك، فقال عزوجل: "الله خالق كل شيء، وهو

على كل شيء وكيل" (1)

"ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا"(2)

ودلت الآيات القرآنية السابقة ، وغيرها ، على أن كل عنصر من عناصر الكون مخلوق فليس هناك عنصر منها يتصف "بالأزلية" التي قال بها أهل الحضارات الأولى والفلاسفة المتقدمون والمتأخرون ، وقد عبر القرآن عن هذا بألفاظ صريحة "كالخلق"، و"الإبداع" و"الفطر" و "الجعل" ، و"القضاء"

وهي كلها تنتهي إلى معنى الإيجاد والتكوين والإنشاء مع الدلالة على القدرة . قال الراغب في مادة (الخلق) :" الخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل في ابداع الشيء من غير أصل ولا إحتذاء ... وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى" (3)

وقال في مادة (بدع) : " الإبداع إنشاء صنعة بلا إحتذاء ولا إقتداء ، وإذا استعمل في الله تعالى فهو ايجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ، ولازمان ولا مكان ، وليس ذلك إلا لله" (4) وقال في مادة (فطر) :"أصل الفطر الشق طولا .. وفطر الله الخلق وهو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال ..." (5)

والملاحظ أن إيجاد السموات والأرض جاء في القرآن بلفظ "خلق" أكثر من بقية الألفاظ الأخرى الدالة عليه ، ولعل ذلك يرجع إلى أن هذه اللفظة أكثر دلالة على الإيجاد من بقية الألفاظ الدالة على هذا المعنى ، فضلا على ما فيها من التقدير المستقيم كما مر في قول الراغب .

فالخلق فيه بعد عن السذاجة في التكوين ، إذ الصورة الخلقية ليست صورة إعتباطية ، بل هي صورة فنية دالة ، وشتان ما بين الشكل الذي لا دلالة فيه ، وبين الشكل الذي

---

1) سورة الزمر : الآية 62

2) سورة الكهف : الآية 50

3) الراغب الأصفهاني : مفردات القرآن ، مادة (خلق) دار الكتاب ا" . ص 158 ـ

4) الراغب الأصفهاني : مفردات القرآن ـ ص 36 ـ

5) الراغب الأصفهاني : المرجع السابق ص 396

أخرجته يد القادر الحكيم على تقدير وتصميم .

والملاحظ - كذلك - أن القرآن قد ربط بين خلق الكون ، وبين أغراضه الكبرى ، كإثبات وجود الله وتوحيده ، وإثبات البعث والنشور ، وغيرها من المقاصد الكبرى التي جاء القرآن ليثبتها .

وفي الآيات القرآنية التي تحدثت عن خلق الكون بعض التفصيلات عن تركيب هذا الكون ، وعن مراحل نشأته ، فهناك ذكربعدد السموات وعدد الأراضين ، وذكر لأيام الخلق وذكر لمادة الكون في بعض مراحل نشأته ، وذكر لبعض الأطوار والتحولات التي تمت فيه .

وهو ما ينفي العفوية والمصادفة في كل ما يجري في الكون ، ابتداء من نشأته وبروزه ، إلى كل حركة فيه ، وكل تغيير و تعديل ، كما ينفي الحتمية الآلية التي يقول بها الفكر الإلحادي .

4- الكون مخلوق لحكمة وغاية .

ومن الحقائق التي أثبتها القرآن الكريم عن الكون ، أنه خلق بالحق ، وعن قصد ، ونفى القرآن أن يكون خلق الكون ومافيه ومن فيه عبثا ، فالقرآن قرن خلق ما في الكون بالحق ليدل على أنه لم يخلق عبثا وأن وراءه خالقا واحدا مدبرا ، تفرد بخلقه والهيمنة عليه على الصورة التي شاءها سبحانه وتعالى ، ثم قرن ذلك بخلق الإنسان ليحثه على الإنقياد لله وحده ، وبعد أن انقادت له السموات والأرض .

قال تعالى :"خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو هو خصيم مبين " (1)

" وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لا عبين " (2)

"وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار " (3)

---

1) سورة النحل : الآيتان : 3 - 4.
2) سورة الأنبياء : الآية 16
3) سورة ص : الآية 26

"خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن في ذلك لآية للمؤمنين" (1)

فالجد والقصد والحق في بناء الكون واضح من هذه الآيات.وهذا يدحض ما تخيله الفلاسفة حول نشأة الكون .

قد تبين من خلال ما عرضنا من الآيات البينات ، أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون ومالكه والمهيمن عليه هيمنة مطلقة ، وأن هذا الخلق والتكوين تم بالحق ، وعلى قاعدة من الجد والقصد تنفي العبث واللهو واللعب ، وأن كل مايجري في الكون إنما يجري بمشيئة الله ، وفق سنن أودعها فيه ، وهذه السنن التي أقام عليها الخالق بناء الكون لا تتصف في ذاتها بأية حتمية ، وأنه تبعا لذلك ، لا يمكن أن يكون هذا الكون الحادث المخلوق أزليا ، ولا إلاها يملك الضرر والنفع ، ويسند إليه الخلق والإبداع والتدبير والعطاء ، بل هو كون منقاد لأمر خالقه،مسبح له تسبيحا لا يفقه البشر كنهه ، ومنه يتبين الزيغ والإنحراف الذي وقع فيه الفكر الغربي الحديث في تصوره للكون وعلاقته بخالقه وعلاقته بالإنسان .

قال محمد قطب : " لقد انحرف الناس في الجاهلية الأروبية الحديثة في تصورهم للكون وعلاقته بالإنسان وضلوا ضلالات شتى .

فمرة يؤمنون « بحتمية » قوانين الطبيعة لينكروا قدرة الله على المعجزات ، ومرة يقولون إن الوجود كله نشأ نشوءا ذاتيا بما في ذلك الحياة لينكروا أن الله هو الذي خلق الكون والحياة .

ومرة يقولون إن الظروف كلها كانت معاكسة لنشأة الحياة وأنها نشأت في هذا الكون مصادفة،ثم أدت هذه المصادفة في النهاية إلى ظهور الإنسان،ومرة يقولون إن هذا الكون موجود بلا غاية ، وكذلك الإنسان . ضلالات من كل نوع . تلقي ظلالها على مشاعر الإنسان وسلوكه ، وهي في الأصل ناشئة عن الإنحراف في تصور حقيقة الله (2) .

---

1) سورة العنكبوت : الآية 44

2) محمد قطب : جاهلية القرن العشرين ـ دار الشروق ـ ط4 ـ 1400/1980 ، ـ ص 85

ثالثا : نهايـــة الكـــــون ..

إن هذا الكون البديع كانت له بداية ، ولم يكن أزليا ، ولن يكون بصورته هذه أبديا . فلا بد أن سيكون له يوم تكون فيه النهاية . فليس شيء من عناصر الكون خالدا في مفهوم القرآن بل إن جميع عناصره من سماء وأرض ومافيهما زائل فان ، هذه الحقيقة نأخذها بيقين من كتاب الله عزوجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه .

قال الله تعالى :

1- "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب" (1)

2- "يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا" (2)

3- "فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان" (3)

4- "إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباءا منبثا" (4)

5- يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن" (5)

6- "وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا" (6)

7- "إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت" (7)

8- "وإذا البحار سجرت" (8)

9- وإذا السماء كشطت" (9)

10- "إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت" (10)

فالمتأمل في مدلولات الألفاظ القرآنية الواردة في هذه الآيات مثل : الطي ، والإنشقاق ،

---

1) سورة الأنبياء : الآية 104

2) سورة الفرقان : الآية 25

3) سورة الرحمان : الآية 37

4) سورة الواقعة : الآية 6

5) سورة المعارج : الآيتان 8 ـ 9

6) سورة النبا : الآية 19

7) سورة التكوير : الآيات 1 ، 2 ، 3 .

8) سورة التكوير : الآية 6

9) سورة التكوير : الآية 11

10) سورة الإنفطار : الآيات 1 ـ 2 ، 3 .

والإنفطار ، والإنكدار ، والتكوير ، يجدها تشير إلى حدوث انقلاب كوني رهيب. قال الرازي وهو يفسر "التكوير" :"وفي التكوير وجهان "أحدهما" التلفيف على جهة الإستدارة كتكوير العمامة ... ثم أن الشيء الذي يلف لا شك أنه يصير مختفيا عن الأعين ، فعبر عن إزالة النور عن جرم الشمس وتصييرها غائبة عن الأعين بالتكوير.

الوجه الثاني : يقال كورت الحائط وهورته ، إذا طرحته حتى يسقط ... فقوله "إذا الشمس كورت" أي ألقيت ورميت عن الفلك" (1) . وفي الإنكدار ، قال :"قوله"إذا النجوم انكدرت" أي تناثرت وتساقطت كما قال تعالى :"وإذا الكواكب انتثرت" ، والأصل في الإنكدار الإنصباب" (2)

وقال ابن القيم :

"... فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها لإنتقال الساكن منها ، فأراد أن يعلمهم بأن الكون كان معمورا بهم ، وفي إحالة الأحوال واظهار تلك الأهوال بيان القدرة بعد بيان العزة ، وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعُبَّاد الكواكب والشمس والقمر والأوثان ، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ، فإذا رأوا آلهتهم ومحالها قد انشقت ظهرت فضائحهم وتبين كذبهم ، وظهر أن العالم مربوب محدث ، مدبر ، له رب يصرفه كما يشاء ، تكذيبا للملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم" (3)

وقال سيد قطب :

".... ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها" (4)

والخلاصة أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون ومافيه ومن فيه أنشأه إنشاء بعد

---

1) الرازي : التفسير ج8 ـ ص 337

2) الرازي : المرجع السابق ، ـ ص 338

3) ابن القيم : التفسير القيم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت . 1978/1398 ص 506

4) سيد قطب : في ظلال القران ـ ص 3456 ـ

أن لم يكن ، سواء في ذلك مادته أو صورته ، فهذا الكون ليس موجدا بذاته كما كانت تتصور الوثنيات القديمة ، أو المذاهب الحديثة ، والحياة المبثوثة في الكون من الله سبحانه ، وليست حالة أوخاصية ملازمة لمادة الكون أو كامنة فيه كما تزعم المذاهب الحديثة ، وليست الحياة في الكون خالقا مريدا ..

ولا مكان للمصادفة العمياء في هذا الكون ، كما أنه لا مكان للحتمية الآلية وإنما هناك سنن كونية أودعها الله تركيب هذا الكون ليسير على وقفها ، وهذه السنن نفسها لا تحقق بذاتها ، إنما تتحقق بقدر من الله ، وإذا كان الله لا يبدل سنن الكون ، فإنما هو يريد هذا ، وعندما يريد ـ لحكمة يعلمها ـ أن يوقف فعل هذه السنن فهو يوقفها ويجري سننا أخرى ، والمعجزات كلها نماذج لهذه الحقيقة ، ومن فضل الله على الناس أن جعل للكون سننا ثابتة وقوانين دائمة يستطيعون كشفها والتعامل معها .

ومن رحمته وفضله ألا يجعلهم عبيدا لحتميات آلية في نظام الكون ، إلا الذين عموا وصموا .

والله الذي خلق الكون وأقام فيه سننا لأجل مسمى ، فسيوقف هذه السنن في الأجل المسمى عنده ، وبالتالي لا يكون الكون أزليا ولا أبديا .

فالآيات التي عرضت سابقا ، وغيرها كثير تدل دلالة واضحة على هذه الحقائق التي انتهينا إليها في هذه الخلاصة .

وثمة حقيقة أخرى هامة تضاف إلى ماسبق وهي أن القرآن يجعل من الكون معرضا تتجلى من خلاله حقيقة الألوهية والربوبية . وبهذا كان المنهج القرآني في التعريف بحقيقة الألوهية بعيدا عن التجريدات الفلسفية والمجادلات المنطقية الذهنية التي اصطبغ بها علم الكلام . فالكون في القرآن معلم هداية إلى الله عز وجل وهذا ماأتناوله في المبحث الآتي

المبحث الثالث

الكون معلم هداية إلى الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث

الكون معلم هداية إلى الله

يعتبر القرآن الكريم « حقيقة الألوهية » من الحقائق الواضحة الثابتة بداهة . ويعتبر الإيمان بالله أمرا فطريا جبلت عليه النفوس ، قال الله تعالى :

(أفي الله شك فاطر السموات والأرض) (1)

(وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) (2)

(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ...) (3)

والواقع يؤيد القرآن الكريم . فقد آمن الناس بالله قبل أن يعرفوا البرهان على وجوده ، وما زال كثير من الناس يؤمنون بالله دون حاجة إلى برهان ، لأن الحقيقة الإلهية أكبر من أن يحصرها برهان أو يحصرها منطق أو تحيط بها عبارة .

والعرب حين نزول القرآن كانوا يعرفون الله ويؤمنون بوجوده ، ومن أسمائهم عبد الله . ولقد أخبرنا القرآن عنهم ، فقال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) (4) وكان اعتراضهم على التوحيد ، لا على وجود الله .

قال تعالى مخبرا عنهم : (أجعل الآلهة إلها واحدا . إن هذا لشيء عجاب) (5)

ولكن القرآن الكريم لم ينزل للعرب وحدهم ، ولا للعصر الذي نزل فيه ، وإنما نزل لجميع

---

1) سورة إبراهيم : الآية 13 .
2) سورة الأعراف : الآيتان 172 ـ 173 .
3) سورة الروم : الآية 30 .
4) سورة لقمان : الآية 24 .
5) سورة ص : الآية 4

الناس وفي مختلف العصور . وإذا كان الإلحاد في ذلك الزمن أعزلا ، فلا شك أنه بعد ذلك قد تسلح ـ أو أوهم الناس أنه تسلح ـ بسلاح العلم ، وأصبح للملاحدة شبه حجج سيتندون عليها في إنكار وجود الله ويستميلون عقول بعض الناس .

ومن أجل ذلك أقام الله سبحانه الأدلة القاطعة على وحدانيته وقدرته وحكمته . أقامها في كتابيه المنظور والمقروء : في الكون والقرآن ، وفي الإنسان نفسه .

إن الكون كله عاليه وداني ، وصامته وناطقه ، أحياءه وجماداته ، كله خاضع لأمر الله ، منقاد له ، شاهد بوحدانيته وعظمته ، ناطق بآياته وحكمته ، دائم التسبيح بحمده .

فالإبداع التام الملاحظ في الكون دليل على وجود المبدع الحكيم ودليل على وجود الإرادة والقصد في الخلق . ولا تتحقق إرادة وقصد بدون قاصد .

والقرآن الكريم يدلل على وحدانية الله وكمال قدرته وإرادته ، وتنزيهه عن العبث في الخلق، وكل صفات النقص ، يدلل على ذلك بخلق الكون وما فيه من اتساق وانسجام ودقة .

وقد تفطن المفسرون لذلك وربطوا الآيات القرآنية التي تصف الكون بمسألة وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته .

قال الرازي : (... ومن الناس من اعتقد أن جملة هذا العالم محدث وكل ومحدث فله مُحدِث ، فحصل له بهذا الطريق إثبات الصانع تعالى ، وصار من زمرة المستدلين ، ومنهم من ضم إلى تلك الدرجة ، البحث عن أحوال العالم العلوي والسفلي ، على سبيل التفصيل ، فظهر له في كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة وأسرار عجيبة ، فيصير ذلك جاريا مجرى البراهين المتواترة والدلائل المتوالية على عقله ، فلا يزال ينتقل كل لحظة ولمحة من برهان إلى آخر ومن دليل إلى دليل آخر ، فلكثرة الدلائل وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين

وإزالة الشبهات . فإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار) (1) .

وقال سيد قطب : (إن المنهج القرآني في التعريف بحقيقة الألوهية ، يجعل الكون ، معرضا رائعا تتجلى فيه هذه الحقيقة ، تتجلى فيه بآثارها الفاعلة ، وتملأ بوجودها وحضورها جوانب الكينونة الإنسانية المدركة . إن هذا المنهج لا يجعل (وجود الله) قضية يجادل عنها فالوجود الإلهي يفعم القلب البشري من خلال الرؤية القرآنية والمشاهدة الواقعية على السواء . بحيث لا يبقى هناك مجال للجدل حوله . إنما يتجه المنهج القرآني مباشرة إلى الحديث عن آثار هذا الوجود في الكون كله) (2)

إن القرآن عند ما تصدى للدعوة إلى دينه الحق والكشف عن عقيدته المثلى كان من ضمن حججه الكثيرة ، المشاهد الكونية والحقائق العلمية . فقد اتخذها مادة يناقش بها المشركين ويقيم بها الحجة عليهم .

ويتميز القرآن فيما جاء به من الأدلة عن الطريقة الفلسفية الكلامية ، فالقرآن يحتج بالآيات الكونية التي سيتلزم العلم بها العلم بصانعها ، كاستلزام العلم بشعاع الشمس العلم بالشمس من غير احتياج إلى إقامة الأقيسة التي أقامها المتكلمون للاستدلال على حدوث العالم .

واستعمل القرآن في حقه تعالى (قياس الأولى) الذي مضمونه أن كل كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف به المخلوق . فالخالق سبحانه أولى أن يتصف به ، وكل نقص يتنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزيه عنه .

ومن النماذج الكونية التي سيقت في آيات القرآن مساق الاستدلال والتعريف (بالحقيقة الإلهية) وعظمتها ، قوله تعالى :

---

1) الرازي : التفسير الكبير- 230/4 .

2) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي- ص 198 .

« الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشي الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، تسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (1)

وقوله تعالى :« إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ،ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين »(2)

وعلى هذا النحو يعرض القرآن حقيقة الألوهية متجلية في الكون والحياة . فالقرآن يرينا ملكوت السموات والأرض ، ويصعد بنا إلى النجوم في مداراتها ، وهو في ذلك كله يفتح أبصارنا وبصائرنا فيرينا كيف تعمل قدرة الله وتقديره في المخلوقات ، ويكشف لنا أسرار الخلق والتكوين ، ويهدينا إلى الحكمة من الخلق والايجاد والإنشاء ، ويبين عظيم النعم التي حبانا بها في نواتنا وفي الكون من حولنا .

إن حديث القرآن عن هذه الحقيقة حديث طويل نجده في طوال السور وقصارها . وكل ما ورد في القرآن عن الكون إنما كان غرضه الأساسي تقرير (حقيقة الألوهية) ، وبناء العقيدة الصافية النقية ، وإزالة كل ما علق بها من أوهام وأباطيل. « لقد جلى القرآن للناس (حقيقة الألوهية) من خلال آثار فاعليتها المتجلية في الكون والحياة ،المصرفة لأقدار العباد» (3)

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس

---

1) سورة الرعد : الآيات 2 ـ 4 .

2) سورة الأعراف : الآية 54 .

3) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي ـ ص 190 .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (1) :

« يقول الله تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة ، وأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة . فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى » (2)

ولئن كانت الآية السابقة تقرر الحقيقة بأسلوب خبري يقيني فإن آية (النازعات) تقرر الحقيقة نفسها بصيغة الاستفهام الإنكاري الذي يحمل معنى التقريع والتوبيخ.

قال تعالى : « أأنتم أشد خلقا أم السماء ، بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم » (3) وهو استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذي لا يقبل الجدل : السماء بلا جدال ولا كلام ، أكبر وأشد خلقا .

فهذا الأسلوب يرد المشركين في زمن الوحي ، وفي كل زمان - إلى شيئ من مظاهر القوى الكبرى في هذا الكون الذي لا تبلغ قوتهم بالقياس إليه شيئا .

وبهذا يكون الكون معلم هداية وحجة الله وبرهانه على كثير من حقائق يوم القيامة كالبعث والنشور ...

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ، بل لايوقنون»(4)

« هذا المقام في اثبات الربوبية وتوحيد الألوهية » (5)

فالقرآن يواجه المشركين بوجود السموات والأرض حيالهم ، فهل هم خلقوها ؟ إنهم لم

---

1) سورة غافر: الآية 57 .
2) ابن كثير : التفسير الجزء 4 - ص 85 .
3) سورة النازعات : الآيات - 27 - 33 .
4) سورة الطور : الآيتان ، 35 . 36 .
5) ابن كثير : التفسير ج 4 - ص 244 .

يخلقوها ولم تخلق نفسها ولم يخلقوا أنفسهم .

ويمضي القرآن الكريم بمنهجه المتميز المتفرد في عرض النماذج الكونية التي تقرر حقيقة الألوهية تقريرا وافيا شافيا . إنه -أي القرآن- يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود ، ويستهدف من خلالها بناء العقيدة بكليتها ، وينشئ تصورا كاملا لهذا الوجود كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير .

ومن النماذج القرآنية في هذا المجال ، قوله تعالى : « أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولي فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعناه حطاما فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرمون ، أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للموقنين ، فسبح باسم ربك العظيم » (1)

ففي الآيات الكريمة تقرير للمعاد وتبكيت للمكذبين بأسلوب أخاذ يعتمد على تجلية القدرة الإلهية في خلقهم وزرعهم الذي تزاوله أيديهم ، وفي الماء الذي يشربون ، وفي النار التي يوقدون . وهي أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم .

ويدلل القرآن الكريم على قضية البعث ، بخلق الإنسان و بخلق السموات والأرض . قال تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه . قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه

---

1) سورة الواقعة : الآيات 61 ـ 75 .

توقدون ، أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . » (1)

و(هذا الاستدلال قطعي لا تعوزه أقيسة المناطقه وتعقيدات المتفلسفين ، لأنه قائم على مقدمات صادقة تؤمن بها الفطر النقية . فالذي خلق الإنسان خلقا بعد خلق ، وصوره طورا بعد طور : بدأ خلقه ترابا ، ثم نطفة ، ثم مضغة ، ثم جنينا يتحرك في قرار مكين ، ثم أخرجه طفلا ، ثم سواه شابا ورباه حتى جعله شخصا قويا ، يعمر منه ما يعمر حتى يبلغ أرذل العمر ، فيرتد عقله وتصوراته وعواطفه ومشاعره إلي خلق الطفولة ويجهل بعد علم ويضعف بعد قوة . من كانت هذه قدرته لا يعجزه إحياء الإنسان بعد موته وإعادته بعد فنائه) (2)

وقد تكرر هذا اللون من الاستدلال على البعث في القرآن الكريم بصور مختلفة في الإجمال والتفصيل ليقيم الله الحجة على أهل الإلحاد المعاندين و ليوثق عرى الإيمان في قلوب المؤمنين . ومن النماذج التي يمكن ذكرها في هذا المقام ، قوله تعالى :

« قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أمّا تشركون . أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ، أمّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله . بل أكثرهم لا يعلمون ، أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته أإله مع الله ، تعالى الله عما يشركون ، أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (3)

---

1) سورة يس : الآيات 78 ـ 80 .

2) محمد الصادق عرجون : القرآن ، هدايته وإعجازه مكتبة الكليات الأزهرية ط 1966 ص 278 .

3) سورة النمل : الآيات ، 61 ـ 66 .

وقد سمى أبو زهرة هذا النوع من الاستدلال ، الاستدلال بالتجزئة (1) أي أن تذكر أجزاء الموضوع ، وبتتبعها يكون إثبات الدعوى . فمن مجموع الآيات السابقة يتبين أن كل جزء يصلح وحده دليلاعلى أن الله وحده هو المنشئ للكون والمدبر له والقائم على كل شيئ ، ولذلك قرن السياق في كل جزء نفي أن يكون إله غير الله معه سبحانه وتعالى عما يشركون:

ويمكن أن نلاحظ ، أن الآيات تعرض أربعة أصناف من الأدلة تناقش المشركين والكافرين والملحدين على أساسها :

الصنف الأول : أدلة تتعلق بمجموع الكون بما فيه من سموات وأرض

الصنف الثاني : أدلة تتعلق بكثير من خصائص الأرض وسماتها التي يبصرونها بأعينهم أو عقولهم

الصنف الثالث : أدلة تتعلق بذواتهم وأنفسهم والنعم الحاصلة لهم .

الصنف الرابع : دليل النشأة الأولى ، وما يستلزمه من دليل الإعادة بعد الموت .

ومثل هذا الاستدلال بمشاهد الكون هو الذي يجب استخدامه في مواجهة الكافرين والملحدين والمشركين .

وقد استخدمه الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام . في مواجهة أقوامهم المكذبين .

فهذا إبراهيم عليه السلام يناقش ذلك الملحد ويفحمه بهذا النوع من الاستدلال . قال الله تعالى :

(ألم تر إلي الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت . قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذي كفر) (2)

وهذا كليم الله موسى يستخدم الاستدلال نفسه في مواجهة طاغية عصره ، ولا يزال يأتيه بالدليل تلو الدليل حتى يعجزه ، فيلجأ إلي التهديد والوعيد . قال الله تعالى :

---

1) أبو زهرة : المعجزة . الكبرى دار الفكر العربي . ص 373 .

2) سورة البقرة : الآية 258 .

(قال فمن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولي . قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلو وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهَى) (1)

وقال تعالى : « قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون ، قال ربكم ورب أبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين)(2)

بل إن هذا النوع من الاستدلال ـ أي الاستدلال بمشاهد الكون طريقة جميع المرسلين . ففي سورة إبراهيم نقرأ ما قالته الأقوام المكذبة لرسلها . وكانت إجابة الرسل عليهم الصلاة والسلام : (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض)(3)

فاستدلوا على صدق دعوتهم بأن الله سبحانه هو فاطر السموات والأرض . أي موجدها وخالقهما .

والملاحظ أن القرآن الكريم أكثر جداً من عرض الآيات الكونية . ونوع في الأساليب والتعابير ، يفصل مرة ، ويجمل أخرى ، يجمع مرة الآيات السماوية إلي الآيات الأرضية في إطار واحد ، وأخري يذكر الآيات الأرضية منفردة للتنبيه علي عموم الاستدلال بها لقربها من مشاهد الحس الممد للعقل عن طريق الحواس . وقد يفرد الآيات السماوية بالذكر تنبيها لأهل الإختصاص من العلماء لينقلهم من عوالم الأرض إلي آفاق السماء ، لينظروا إلي ما أودع الله فيها من آيات أجل وأعظم مما أودع في الأرض ، مع تيسير السبيل للعامة في النظر المتأمل الذي يحرك وجدانهم ويوقظ إحساسهم لتتوثق عرى الإيمان القطعي في قلوبهم .

---

1) سورة طه : الآيات 48 ـ 53

2) سورة الشعراء : الآيات ، 22 ـ 28 .

3) سورة إبراهيم : الآية 13 .

وبكلمة موجزة نقول أكثر القرآن من ذكر المشاهد الكونية لأنها منافذ إلى الهداية أولأنها معالم هداية للبشر لكي يعرفوا ربهم حق المعرفة .

وأختم هذا الفصل بالربط بين القرآن والكون في مجال الهداية إلي الله .

إن كانت آيات الكون صامتة يستنبط الناس منها الفكرة ويستخلصون منها العبرة ، فإن آيات القرآن ناطقة تعرف الناس بربهم وتتولى إليه قيادهم. فالله سبحانه وتعالى تعرّف إلى الناس من طريقين : من طريق الوحي المنزل على أنبيائه ورسله ، ومن طريق آياته المبثوثة في هذا الكون . (فالقرآن في الدلالة على الله (كون) ناطق ، كما أن الكون الضخم (قرآن) صامت . وكلاهما ينبثق من ذات واحدة ويهدف إلي غاية واحدة (1) فخلق الكون موازٍ لإنزال الكتاب ، لذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بأمرين : أمر يقول فيه أنا خالق الكون ، وأمر يقول فيه : أنا منزل الكتاب ، قال الله تعالى :

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيئ قدير)(2)

(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)(3)

وعندما حمد ربنا نفسه وأثنى على ذاته بما هو أهله ، قال مرة : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلومات والنور) (4)

وقال مرة أخرى : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) (5)

وكما وصف نفسه على هذا النحو ، أقسم كذلك على هذا النحو قال سبحانه وتعالى :

(فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين) (6)

وقال : (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين) (7)

---

1) محمد غزالي : نظرات في القرآن - دار الشهاب ، باتنة ، ص 13 .
2) سورة الملك : الآية 01 .
3) سورة الفرقان : الآية 01
4) سورة الأنعام : الآية 01 .
5) سورة الكهف : الآية 01 .
6) سورة الواقعة : الآيات 75 - 80 .
7) سورة الحاقة : الآيات 38 - 43 .

فمنزل الكتاب هو مجرى السحاب كما جاء على لسان رسول الله وهو يدعو على أعداء الله : (اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم) إلا أن القرآن في دلالته على الله أقوم وأرجح .

ويستفاد هذا من قوله تعالى : « إ ن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا »(1) (فأقوم) اسم تفضيل يقتضي اشتراك غير القرآن معه في أصل الهداية ، ويقتضي أن طريقة القرآن في الهداية أسدى وأرجح . وهذا يدل بالفحوى أن التحدي بطريقة القرآن في الهداية أفضل الطرق وأعدلها)(2) والآيات التي تتحدث عن القرآن وكونه هداية للناس ، وعن ما صرف الله فيه من الدلائل ، وما ضرب فيه من الأمثال قصد توضيح السبيل كثيرة ، وقد أفاض العلماء في الحديث عن هذه المعجزة الخالدة .

الآن ، وقد فرغنا من الفصل الأول (الكون في القرآن) بمباحثه الثلاثة . يأتي الحديث عن الفصل الثاني : علاقة الإنسان بالكون من خلال القرآن الكريم .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1) سورة الإسراء : الآية 9

2) محمد الصادق عرجون : القرآن هدايته وإعجازه ص 278

الفصل الثاني

علاقة الكون بالإنسان في القرآن الكريم

المبحث الأول : دعوة القرآن إلى دراسة الكون وإعماره

المبحث الثاني : تسخير الكون للإنسان .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول :
دعوة القرآن إلى دراسة الكون وإعماره

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول

دعوة القرآن إلى دراسة الكون وإعماره

أكثر القرآن الكريم من الإشارة إلى الكون ، وتوجيه أنظار الناس إليه والدعوة إلى التأمل فيه والتدبر .

وتم ذلك بأساليب متنوعة : بالأمر تارة ، وبالإستفهام طورا ، وبالحض والترغيب تارة أخرى ، وبالقسم ببعض أجزاء الكون أحيانا أخرى .

وليس هناك كتاب سماوي نوه بالعقل والعلم والتفكير ، ووجه النظر إلى سنن الله فى الأنفس والآفاق ، وإلى طبيعة هذا الكون ، مثلما فعل القرآن الكريم .

وفى ذلك دعوة ملحة إلى دراسة الكون ومعرفة سنن الله فيه . ومن شأن هذه الدراسة أن تزيد المؤمنين بالله إيمانا ، وتحرك هممهم ، وتنهض عزائمهم من جديد ، لإستئناف الدور المنوط بهم والقيام به أحسن قيام ، فى ساحة الحضارة الحديثة ، فيعود العلم فى ظل القرآن ، ويتوجيه منه إسلاميا عالميا يساهم فيه المسلمون مساهمة فعالة كما كانوا فى سابق الزمان .

ومن الأساليب الناجعة الفريدة التى سلكها القرآن فى الحث على النظر فى الكون لمعرفة أسراره وفقه سننه :

1 ـ التنويه بالعقل

2 ـ الدعوة إلى التفكير وبيان ثماره على أصحابه

3 ـ التنويه بالعلم وأهله .

تفصيل ذلك .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : التنويه بالعقل .

قبل الحديث عن تنويه القرآن بالعقل ، نقف وقفة قصيرة عند المدلول اللغوى لهذه اللفظة. قال الراغب : (العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ، ويقال للعلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل . وإلى الأول أشار صلى الله عليه وسلم بقوله « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » وأشار إلى الثانى بقوله : « ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عن ردى » ..

وأصل العقل الإمساك والإستمساك كعقل البعير بالعقال ، وعقل الدواء البطن ، وعقلت المرأة شعرها ، وعقل لسانه : كفه ، ومنه قيل للحصن معقل وجمعه معاقل) (1)

وقال العقاد : « العقل فى مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى أو المنع عن المحظور والمنكر ومن هنا كان إشتقاقه من مادة (العقل) التى يؤخذ منها العقال)(2)

المتتبع لآيات القرآن الكريم يجدها لا تذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه وإلى وجوب العمل به والرجوع إليه .

من ذلك قوله تعالى :

(إِنَّ فِي خَلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفلكِ التي تجري فى البحرِ بما ينفعُ الناسَ وما أنزلَ اللهُ من السماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابةٍ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخرِ بين السماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلون)(3) ، فكل ما ورد فى الآية الكريمة بدءا ، بخلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ونزول الماء من السماء ، وحياة الأرض به ، إلى تسخير السحاب كل ذلك آيات بينات للعقلاء .

وقوله تعالى : « وَهُوَ الذي يُحْيِي ويميتُ وله إختلافُ الليلِ والنهارِ أفلا تَعْقِلُون » (4)

وقوله تعالى :«ضَرَبَ لكم مَثلاً مِن أنفسِكم هَلْ لكم مِمّا ملكت أيمانُكم مِن شركاءَ فيما رَزَقْناكم فأنتم فيه سَوَاءٌ تخافونهم كخِيفتِكم أنفسَكم كذلك ل الآياتِ لقومٍ يعقلون » (5)

1) الراغب الأصفهاني : مفردات القران ص 354 .

2) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية - منشورات المكتبة العصرية - بيروت - ، 7 .

3) سورة البقرة : الآية 163 .

4) سورة المؤمنون : الآية 81 .

5) سورة الروم : الآية 27 .

وهذا عدا الآيات الكثيرة التى تبتدئ بالزجر وتنتهي إلى التذكير بالعقل لأنه مرجع للهداية فى ضمير الإنسان ، كقوله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم وأَنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) (1)

وقوله تعالى : (يا أَهْلَ الكتابِ لِمَ تُحَاجُّون فِي إبراهيمَ ومَا أُنزِلَتْ التوراةُ والإنجيلُ إلاّ من بعده أفَلا تَعْقِلُون) (2)

وقوله تعالى : (وما الحياةُ الدنيا إلاّ لعبٌ ولهوٌ ولدار الآخرة خيرٌ لِلّذين يَتَّقُون أفَلا تَعقِلُون) (3)

ويرتفع القرآن فى الحديث عن العقل درجة ، فيخاطب أولى الألباب أي أصحاب العقول المدركة الفاهمة . العقول التى لها نصيب من الفهم والوعي أوفر من نصيب العقول التى تكف أصحابها عن السوء فقط . ولا ترتقي إلى منزلة الرسوخ فى العلم والتمييز بين الطيب والخبيث ، والحسن والأحسن ، أصحاب هذه العقول هم الذين يؤمنون ، ويتذكرون ، ويهتدون ويعتبرون ، ويستجيبون للحق أكثر من غيرهم .

قال الله تعالى : (والرّاسخُون فِي العلمِ يقولون آمَنّا به كلٌّ من عند ربّنا وما يذّكرُ إلا أُولوا الألبابِ) (4)

وقال : (لقد كان في قَصَصِهم عبرة لأُولي الألباب) (5)

وقال : (يُؤتي الحكمةَ مَن يشاءُ ومن يُؤتَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيرا كثيرا وما يذكر إلا أُولوا الألباب) (6)

وقال : (الّذين يَستَمِعُون القولَ فيتبعون أحسَنه أُولئِك الذين هداهم اللهُ وأولئك هم أُولُوا الألباب) (7)

---

1) سورة البقرة : الآية 43 .
2) سورة آل عمران : الآية 64 .
3) سورة الأنعام : الآية 33 .
4) سورة آل عمران : الآية 7 .
5) سورة يوسف : الآية 111 .
6) سورة البقرة :الآية 268 .
7) سورة الزمر : الآية 17 .

ويتميز حديث القرآن عن العقل بالتنوع والشمول لوظائف الإنسان العقلية ، فالقرآن يشمل في حديثه عن العقل : العقل الوازع والعقل المدرك ، والعقل الذى يناط به التأمل الصادق و الحكم الصحيح (ويعم كل ما يتسع له الذهن الإنسانى من خاصة أو وظيفة)(1) . وصفوة القول ، أن القرآن نوّه بالعقل ، وعوّل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف . حتى اعتبر ذلك من مزايا القرآن التي لا يشاركه فيها كتاب سماوي سابق . على أنه يجب التنبيه إلى أن العقل محدود لا يستغني ولا يستقل عن شرع الله ووحيه . رغم ما وصل إليه من فكر وإختراع .

وسيكون هذا العقل الإنسانى أكثر إعجازا حين يعرف قدره ويلزم حدوده ، فلا يغتر بما أوتي من إمكانيات ، وما صنع من إختراعات ، ويتجرأ ويتبجح ويتطاول حتى على الله الذى خلقه .

إن العقل طريق الإنسان إلى الله كما قرر القرآن الكريم،ولكنه اليوم يتخذ وسيلة من وسائل الصد عن سبيل الله .

لقد تسلل الغرور إلى هذا العقل فأنكر خالقه ، وأنكر الحق الذى جاء به الرسل .

فَعَلَ ذلك حين عرف شيئا من أسرار الكون ، ومن ثم ، فإن العقل سلاح ذو حدين : فقد يكون مصباحا يضيئ أو شهابا يحترق ويحرق .

(وأكثر الذين كفروا بالله هم أولئك الذين عُرِفوا بين الناس بشيئ من العقل ، ثم ابتلوا بالغرور ، فحسبوا أن العقل قادر على أن يذهب بهم كل مذهب) (2)

والثقة فى العقل الإنساني على هذا النحو هى آفة الإنسان المعاصر .

ثانيا : التفكير .

المتتبع لآيات القرآن الكريم ، يجدها تحث بقوة على التفكير فى ملكوت السموات والأرض وفي الأنفس ، وتعتبره وسيلة من وسائل الإيمان . من شواهد ذلك قوله تعالى :

---

1) العقاد : التفكير فريضة إسلامية ص 8 .

2) عبد الكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا ، دار الفكر العربي ط 3 1983 ص 299

(إِنَّ فِي خَلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأُولِي الألبابِ الذين يذكُرُونَ اللهَ قِيامًا وقُعُودا وعلى جُنُوبهم ، وَيَتَفَكَّرُون في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ)(1) ويقودهم هذا التفكير إلى أن يقولوا : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلا سُبحَانك فَقِنا عَذَابَ النارِ)(2)

وقد صح أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال حينما نزلت هذه الآية « ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر »

وقوله تعالى : (أَوَ لَمْ يَتَفَكَّروا في أَنْفُسِهم مَا خَلَقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ إلاّ بالحقِ وأَجَلٍ مُسَمًّى) (3)

وأكبر موعظة يعظ بها القرآن المخالفين للشرع والمصدقين به على السواء هي التفكير . قال الله تعالى : (قُل إِنّما أَعظكم بواحدةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ مَثْنَى وفُرَادَى ثُمَّ تَتَفكّروا)(4)

إذن ، فموقف القرآن فى الحث على التفكير فى ملكوت السموات والأرض بأساليب متنوعة برهان واضح على مكانة العقل والعلم فى الإسلام . ومما يؤكد هذه الحقيقة أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير . ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم .

قال تعالى : (وقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عليه آياتٌ مِن رَبِّه ، قُلْ إنمَا الآياتُ عندَ اللّه وإنما أنا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَ لَمْ يَكْفِهم أَنَّا أَنْزَلْنا عليك الكتابَ يُتْلَى عَلَيْهِم . إِنَّ في ذلك لرحمةً وذكرَى لقوم يؤمنون)(5) ، ومن هنا كثرت آيات القرآن الواردة فى ذم التقليد ، وجري الخلف من المشركين وراء سلفهم ، دون نظرٍ واستدلال . هؤلاء الذين ورثوا عقائدهم وآراءهم عن آبائهم وأجدادهم .

قال تعالى : (وَإِذا قِيلَ لَهُم اتّبعُوا مَا أَنزلَ اللهُ قالوا بَلْ نَتّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عليه آباءَنَا)(6)

---

1) سورة آل عمران : الآية 191 .
2) سورة آل عمران : الآية 191 .
3) سورة الروم : الآية 8
4) سورة سبا : الآية 46 .
5) سورة العنكبوت : الآيتان 50 - 51 .
6) سورة البقرة : الآية 169.

وقال تعالى : (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) (1)

والقرآن حينما يحث على التفكير ويوليه مكانة عالية ، لا يريد ذلك التفكير الجاف الذي يأخذ العقل به آثار الكون المادية ثم يطغى بها على الآخرين ، ويجحد بها رب العالمين ، إن هذا اللون من التفكير قد يكون شرا من الجمود ، إنما يريد القرآن ذلك التفكير الذى يصل بالإنسان إلى معرفة مصدر النعم ، أي إلى المنعم بها وهو الله عز وجل .

إن الذين قصروا التفكير على بعض نتائجه ، أو على أحد هدفيه وأغفلوا النظر إلى الهدف الآخر ، وهو أسمى الهدفين ، هم في نظر القرآن ممن قال الله فيهم : (الذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكري) (2)

(ولا تُطِع مَن أَغْفَلْنَا قلبه عن ذكرِنا واتَّبعَ هَواهُ وكان أَمْرُه فُرُطا)(3) .

بهذه الآيات وما جرى مجراها يتبين أن التفكير فريضة إسلامية ثمرته العلم بالحقيقة

ثالثا : التنويه بالعلم وأهله

إن تنويه القرآن بالعلم وأهله يتضح من الآيات التي تفوق الحصر والتي جاءت موجهة العقل الإنساني إلى دراسة الكائنات التي حوله بتأمل وحرية فكر وإلى الإقبال على العلوم على اختلاف أنواعها وطلب المزيد منها .

كما نجد القرآن يقرع بأسلوب لاذع من يهملون عقولهم ويكونون أتباعا لغيرهم ، ويتوعدهم بأن جهنم ستكون مقرهم ومثواهم ، ويجعلهم أقل درجة من الحيوان الأعجم . قال الله تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثيرًا من الجنِّ والإنسِ لهم قلوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ولهم أعينٌ لا يُبْصِرُون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعامِ بل هم أَضَلّ أولئك هم الغافلون » (4)

---

1) سورة المائدة : الآية 104

2) سورة الكهف : الآية 101

3) سورة الكهف : الآية 28 .

4) سورة الأعراف : الآية 179

إن القيمة الأولى التى ينبغي أن تؤسس عليها الحياة فى منظور القرآن هي العلم بالحقيقة . ويظهر ذلك من :

1 ـ خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام .

2 ـ استهلال الوحي المبارك بالأمر بالقراءة أمرا مؤكدا .

لما خلق الله آدم عليه السلام ، وأعلن للملائكة أنه جاعله خليفة في الأرض تولى الله سبحانه تعليمه حقائق الكون . قال تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(1)

ولما تعلم آدم هذه الحقائق أصبح الكائن الأعلى فى سلم المخلوقات.فلا خصيصة أشرف من العلم . بازدياده صار آدم مسجودا له ، وبنقصانه صارت الملائكة ساجدة . ﴿وإذ قُلنا للملائكةِ اسْجُدُوا لآدمَ فسجدُوا إلا إبليسَ أبَى واستكبرَ وكان من الكافرين﴾(2) هذا عن الأمر الأول ، والأمر الثانى الذى يظهر قيمة العلم ، هو أن الله سبحانه استهل كتابه المبين بالأمر بالقراءة التي هي سبيل إلى العلم بالحقيقة . فقد اتفقت كلمة جمهور العلماء والمفسرين على أن أول ما نزل من القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قوله تعالى : ﴿اِقْرَأْ باسم ربِّك الذي خلق ، خلق الإنسانَ من علقٍ ، اِقرأ وربُّك الأكرمُ الذي علَّمَ بالقلمِ ، علَّمَ الإنسان ما لم يعلم﴾ (3)

المتأمل فى هذه الفاتحة القرآنية التى تبشر بالمنهاج النهائي الأكمل لحياة الإنسان ، يلفيها فاتحة عظيمة الدلالة ، بليغة المغزى فى تحديد مفهوم العلم وقيمته وغايته فى المنظور الإسلامي الذى ينبني أساسا على القرآن الكريم .

« إن هذا السياق الذى تتالت فيه الصور الضابطة لعلاقة العلم بحياة الإنسان : ابتداء بالإعلان الإلهي عن خلق الإنسان الذي ستكون مهمته الخلافة فى الأرض ، مرورا بصورة تزويده بالعلم بالأسماء كلها ، إشعارا بأن ذلك إنما هو الأساس فى أداء تلك المهمة ، وهو مقعد عظمته كما يشير به سجود الملائكة له ، وانتهاء إلى هذا الأمر المؤكد

---

1) سورة البقرة : الآية 30 .

2) سورة البقرة : الآية 33 .

3) سورة العلق : الآيات 1 ـ 5 .

بالقراءة لتحصيل العلم كمبدأ دائم لتأسيس الحياة . إن هذا السياق في صوره المتلاحقة هو الذي يحدد موقف الإسلام من العلم في حقيقته ومفهومه ، وفي قيمته وغايته ، ودوره في توجيه الحياة لتحقيق أغراضها)(1)

ويمكن أن نستجلي مفهوم العلم من الآيات التي نزلت أول ما نزل من القرآن . فقد حددت هذه الآيات مفهوما شاملا للعلم ، إذ جعلت موضوعا له كل حقائق الوجود ما تعلق منها بالغيب ، وما تعلق منها بالمادة ، وما تعلق منها بالقوانين والعلل والأسباب فتلك مواضيع العلم هو العلم بالله ، كما قررت الآية الكريمة : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) (2) . والعلم بالله يحصل عبر العلم بمخلوقاته ، فيكون المجال الثاني للعلم هو الوجود المادي أو ماله تعلق بالوجود المادي ، ويكون المجال الثالث من مجالات العلم هو ما تعلق بالقوانين والعلل والأسباب التي تأسس عليها الكون .

إن هذه العناصر الثلاثة : عالم الغيب ، وعالم المادة ، وعالم القوانين والأسباب هي التي تكون المجال الشامل للعلم في المفهوم الإسلامي .

وقد مر العلم في تاريخ المسلمين بثلاث مراحل :

1 ـ المرحلة الأولى : وهي المرحلة التي استوعب فيها المسلمون الأوائل هذا المفهوم الشامل للعلم . وعليه أقاموا حضارة مشهودة بلغت في إستكناه الوجود شأوا بعيدا . .

2 ـ المرحلة الثانية : وهي المرحلة التي انحسر فيها هذا المفهوم الشامل للعلم وخضع إلى تقسيمات معيارية جعلت منه ماهو أعلى وماهو أسفل،وما هو محمود وما هو مذموم ، وما هو دنيوي وما هو أخروي ، وما هو فرض وما هو مستحب . (3) فكانت نتيجة هذا الإنحسار في مفهوم العلم عند المسلمين ،أن استقر في الأذهان مع بداية قرون الإنحطاط ، أن العلم الحقيقي إنما هو علم الآخرة فقط ، وأهدر أو كاد من حقيقة العلم الشاملة . وترتب على ذلك الزهادة فيما تقوم به حياة الأمة من أسباب العيش والعمران ، ومن وسائل

---

1) عبد المجيد النجار : العلم مفهوما وغاية بين التصور الإسلامي وواقع المسلمين (مقال) ـ منار الإسلام ، العدد الخامس ـ جمادي الأولى 1409/1988 . أبو ظبي ـ ص 17 .

2) سورة محمد : الآية 20 .

3) انظر الغزالي : إحياء علوم الدين ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ ط 1 الجزء الأول ـ ص 25 ومابعدها .

القوة والمنعة فتداعت الأمم الكافرة على المسلمين (كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) .

وقد زاد في ترسيخ هذا المفهوم للعلم عند المسلمين آراء المستشرقين وأتباعهم (1).

3 ـ المرحلة الثالثة :وهى شر من السابقة، ذلك أن المسلمين لما غلبوا حضاريا ومدنيا، أخذوا مفهوم العلم من هذه الأمم الغالبة على اعتبار أن (المغلوب مولع بالإقتداء بالغالب) كما يقول ابن خلدون . وهو المفهوم الذى نشأ فى غمرة الكفر بالكنيسة وكل ما ترمزإليه من عالم الغيب ، و في غمرة من الإكتشافات العلمية التى توصل إليها العقل البشرى ، فأصبح العلم هو علم المادة وقانونها ، وكل ما سواه ليس من العلم فى شىء .

وأصبح هذا المفهوم أساسا لكثير من المنشآت العلمية فى بلاد المسلمين . فإذا بمجال الغيب وما تعلق به ، يشطب من دائرة العلم ، وبنعت الإشتغال به بالظلامية والرجعية ، ولما أصبح هذا الإنحسار المعاكس فى مفهوم العلم أساسا لمناهج التربية فى كثير من البلاد الإسلامية كانت الثمرة مرة تمثلت فى أجيال منبتة الأصول ، حولاء البصائر ، فقصرت قدرتها عن أن تبلغ مرتبة الإبداع التى تدفع الأمة إلى إستئناف العمران والمنعة ، لأنها لم تستوعب من حقيقة المادة ولم تعتمد مفهوما للعلم تتكامل فيه عناصر الوجود كما بينه القرآن الكريم واعتمده المسلمون الأوائل .

هذا عن مفهوم العلم في المنظور الإسلامى أما عن قيمته ووضعيته فيمكن القول أن العلم في التصور الإسلامي يحتل درجة عالية . ويكفي فى الدلالة على ذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل علامة الإستخلاف فى الأرض لأبي البشرية (آدم عليه السلام) هى العلم (وعلم آدمَ الأسماءَ كلَّها) . وقرن معانى المعرفة به بأولي العلم فقال سبحانه وتعالى (شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُو والملائكةُ وأولوا العلم قائما بالقسط لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العزيزُ الحكيمُ) (2) وحصر الخشية منه فى طائفة من خلقه هم العلماء فقال (إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ من عبادِه الْعُلَمَاءُ)(3).

---

1) أحمد محمد جمال : مفتريات على الإسلام ـ طبعة الشعب ـ 1975 ـ ص 237 .

2) سورة ال عمران : الآية 18 :

3) سورة فاطر : الآية 28 .

وجعل العلم من مدارج الإرتقاء فقال (يَرفعِ اللّهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمَ درَجات)(1)

وجعل الإستزادة من العلم النافع من أهداف المسلم العظيمة ومن مطالبه . فقال تعالى: (وَقُل رَبِّ زِدْنِي علْما) (2)

وتأكدت قيمة العلم في المنظور الإسلامي أكثر حين ارتبط بدائرة العبادة ، وأصبح جزءا منها : (طلب العلم فريضة على كل مسلم)(3)

(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة)(4)

أما غاية العلم في المنظور الإسلامي فهي تحقيق المهمة التي انتدب الإنسان لتحقيقها، ألا وهي الخلافة في الأرض على منهج الله .

ولذلك فالعلم الذي يشغل الإنسان عن الله وعن الحق ، فهو مرادف للجهل وإن كان فيه منافع آنية ، ويصدق فيه قوله تعالى : « يَعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلُون » (5)

قد عرفنا ، أن من بين الأساليب التي سلكها القرآن في الحث على النظر في الكون ، قصد معرفة أسراره وإعماره :

التنويه بالعقل وبالعلم ، والدعوة إلى التفكير .

يضاف إلى هذه الأساليب :

1 ـ إثارة ما هو كامن في الإنسان من غريزة حب الإستطلاع . ومن شواهد ذلك قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهارِ ويولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيلِ)(6)

---

1) سورة المجادلة : الآية 11 .
2) سورة طه : الآية 114 .
3) أخرجه ابن ماجة ـ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ـ 8/1 .
4) أخرجه ابن ماجة نفس المصدر والصفحة .
5) سورة الروم : الآية 6
6) سورة لقمان : الآية 29 .

وقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) (1)

وقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ . يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ، يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ) (2)

وقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) (3)

وقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (4)

وقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ)(5)

فهذه الآيات فيها إخبار من الله عز وجل ، أنه يفعل كذا وكذا ... لينتبه الإنسان ، ويستيقظ من غفلته ، ويجول بعقله وفكره في ملكوت السموات والأرض ، فيستنبط ويعتبر . فكل الآيات صدرت بقوله تعالى (ألم تر) .

فهي تريد من الناس أن يروا خلق الله وآثار قدرته ، رؤية تقودهم إلى إستثمار ما سَخَّر الله لهم عن طريق البحث والتنقيب والسير في مناكب الأرض . فالآيات فيها إستعراض دلائل القدرة الإلهية .

2 ـ إثارة ما في الإنسان من حب لذاته وحرص على استمرار نوعه ، وسعي إلى

---

1) سورة الفرقان ك الآية 45 .
2) سورة النور : الآية 42 .
3) سورة الحج : الآية 61 .
4) سورة الحج : الآية 63 .
5) سورة الزمر : الآية 20 .

التوسل بجميع الوسائل لقضاء مآربه وتحقيق مصالحه . وتعريفه بأن الأشياء التى يطالبه القرآن بالنظر فيها وتتبع أطوارها إنما هي مخلوقة من أجله ومسخرة لمنفعته . ومن شواهد ذلك قوله تعالى :

(فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلى طعامه ، إنّا صَبَبْنا الماءَ صبًّا ، ثم شَقَقْنا الأرضَ شقًّا فأنبتنا فيها حَبًّا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبًّا ، مَتاعًا لكم ولأنعامكم)(1)

وقوله تعالى : (والأرض بعد ذلك دَحاها ، أخْرَجَ منها ماءها ومَرْعاها والجبالَ أرْساها مَتاعًا لكم ولأنعامكم) (2)

وقوله تعالى : (أولمْ يَرَوْا أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعاما فهُم لها مالِكون وذَلّلْناها لهم فمنْها رَكوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافعُ ومشاربُ أفلا يشكرون) (3)

فالقرآن الكريم يوجه الناس إلى النظر فى الكون وآياته ، ليحصل لهم العلم بحقائقه وقوانينه . وبالتالي استثماره وتسخيره ، ثم إن القرآن الكريم ، عندما يعرض الآيات الكونية لا يعرضها ، مقتضبة ، بل يعرضها مصحوبة بتنبيه سابق أو تعقيب لاحق . فهى فى نظامه الخاص إما أن تأتي مسبوقة بصيغة الأمر بالنظر (انظروا) أو بما يفيد مجرد الحض على النظر (أفلا ينظرون) (أو لم ينظروا)

و مثال الأمر بالنظر قوله تعالى : (قُل انْظُروا مَاذَا فِي السّمَواتِ والأرضِ)(4)

ومثال الحض على النظر قوله تعالى (أوَ لَمْ ينظروا فِي ملكوتِ السمواتِ والأرضِ وما خلق الله من شيئٍ)(5)

وقوله تعالى : (أفَلَمْ يَرَوْا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) (6)

قال سيد قطب :

---

1) سورة عبس : الآيات 24 ـ 32 .
2) سورة النازعات الآيات : 30 ـ 31 .
3) سورة يس : الآيات 71 ـ 73 .
4) سورة يونس : الآية 101 .
5) سورة الأعراف : الآية 185 .
6) سورة سبا : الآية 9 .

(إن المخاطبين بهذا القرآن أول مرة ، لم يكن لديهم المعرفة العلمية بما في السموات والأرض إلا القليل ، ولكن الحقيقة الواقعة التي أشرنا إليها مرارا ، هي أن بين الفطرة البشرية وبين هذا الكون الذي نعيش فيه لغة خفية غنية . وأن هذه الفطرة تسمع لهذا الكون ـ حين تتفتح وتستيقظ ـ وتسمع منه الكثير . والمنهج القرآني في تكوين التصور الإسلامي في الإدراك البشري يتكئ على ما في السموات والأرض ، ويستلهم هذا الكون ، ويوجه إليه النظر والسمع والقلب والعقل ... والنظر إلى ما في السموات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات ، وزاد من الإستجابات والتأثرات ...) (1)

(ولفت الحس والقلب والعقل للنظر إلى ما في السماوات والأرض ، وسيلة من وسائل المنهج القرآني لاستحياء القلب الإنساني لعله ينبض ويتحرك ، ويتلقى ويستجيب) (2)

ومثال التنبيه على نتائج النظر قوله تعالى :

(وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب).(3) ومثال الجمع بين الوسيلة والغاية : النظر أولا ، والإعتبار أخيرا ، قوله تعالى : (انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) (4)

وقوله تعالى : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض .. ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)(5)

وقوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) (6)

وقوله تعالى : (يقلب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) (7)

ولا شك أن هذه الأساليب القرآنية تحث ـ إلى جانب كونها تعرف الناس بالحقيقة

---

1) سيد قطب : في ظلال القرآن ـ الجزء الحادي عشر ص 1822.
2) سيد قطب : في ظلال القرآن ـ الجزء الحادي عشر ص 1823 .
3) سورة ق : الآية 8 .
4) سورة الأنعام : الآية 65 .
5) سورة آل عمران : الآية 191 .
6) سورة الأنبياء : الآية 30 .
7) سورة النور . الآية 44 .

الإلهية ، وهى الحقيقة الرئيسية ـ على محاولة الكشف عن خصائص الكون والتعرف على آثاره واستخلاص العبرة منه .

قال القرطبى : في تفسير قوله تعالى (أولَمْ ينْظروا في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ) :

(عجب من إعراضهم عن النظر فى آياته ليعرفوا كمال قدرته) (1)

وقال ابن كثير : (أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض وفيما خلق الله من شيئ فيهما فيتدبروا ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه . ومن فعل من لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له) (2)

وقد استدل بهذه الآية ـ وما كان مثلها ـ من قال بوجوب النظر فى آياته والإعْتبار بمخلوقاته . قالوا : وقد ذم الله تعالى من لم ينظر ، وسلبهم الإنتفاع بحواسهم ، فقال عز وجل (لَهمْ قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعْيُنٌ لا يبصرون بها) (3)

وقد اختلف العلماء فى أول الواجبات هل هو النظر والاستدلال أو الإيمان الذى هو التصديق الحاصل فى القلب الذى ليس من شرط صحته المعرفة . وقد ذهب البخاري إلى وجوب العلم قبل القول والعمل .

قال فى الصحيح : (باب العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى : (فَاعْلَم أنَّه لا إلَهَ إلاَّ الله)(4) فبدأ بالعلم) (5)

ورد ابن رشد فى مقدماته هذا الرأي ، وقال (ليس هذا بالبين ، لأن الإيمان يصح باليقين الذى قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد ، وبئول وهلة من الإعتبار ...) (6)

واختار القرطبي هذا القول .

أقول : مسألة الإيمان مغروسة فى الفطرة الإنسانية ، فقد أودع الله فى كل إنسان

---

1) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص 330 .
2) ابن كثير : التفسير ص 531 .
3) سورة الأعراف : الآية 179 .
4) سورة محمد : الآية 20 .
5) صحيح البخاري بفتح الباري ، دار المعرفة ، ج الأول ص 159 .
6) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص 330 .

مهما كانت ثقافته ما يعرف به ربه ، وأقام الله سبحانه فى النفس والآفاق ما يدل عليه وينبه الفطر السليمة إليه .

وقديما قال أحد الأعراب : البعر يدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، ألا يدل الكون على العالم القدير .

فالكون كتاب مفتوح يقرأ بكل لغة ، ويدرك بكل وسيلة ، ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور . كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده . فيجد فيه زادا من الحق ، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق .

غير أني أفهم من عرض هذه الآيات الداعية إلى النظر ، شيئا آخر إضافة إلى ما ذكره المفسرون ، أفهم أن فيها دعوة إلى معرفة سنن الله التى يسير بها هذه الكون ،لأن التمكن من هذه المعرفة يخدم الإسلام والمسلمين ، لأني رأيت جفوة بين المسلمين وبين معرفة سنن الله الكونية .

هذه الجفوة اشتكى منها أحد الدعاة ، فقال معلقا على الآية الحاضة على النظر فى ملكوت السموات والأرض : (فهل نظرنا ؟ و ما طرق النظر الذى سلكناه ؟ ولماذا أجدت هذه الطرق غيرنا فعرف الكثير عن أسرار الكون ولم نفد نحن شيئا) (1)

وقال آخر :

(وكم يضيق الإنسان ذرعا حينما يرى المسلمين ـ وتلك تعاليم كتابهم وإرشاداته ـ فى حرمان من اللذات التى ربط الله بها سعادة الناس ، وحثهم على تحصيلها والإنتفاع بها ! وكم يشتد ضيقه حينما يراهم فيها عالة على غيرهم ، يأخذونها عنهم على أنها علومهم ونتائج بحوثهم ، ويأخذونها بمنهجهم فى قطعها عن مصدرها المنعم بها والمسخر لها !)(2)

ولقد كان هذا الموقف من المسلمين مما هيأ لغيرهم أن يتهموا الإسلام بالجمود ،

---

1) محمد الغزالي : دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، الزيتونة للإعلام والنشر . ط 1 1904هـ /1989ص 21 .
2) محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام ـ دار الشروق ط 7 1403 هـ /ص 122 .

وأنه دين يعترض التقدم ، ولا يسمح بلذة العالم ولا بعزة الحياة . (1)

(فلماذا لا نعرف الكون مثلما يعرفون أو أفضل ، ثم ينظر القوم إلينا فلا يجرؤ أحد على انتقاصنا أو الإستهانة بنا ـ فإذا حدثناهم عن الله الواحد أعطونا آذانهم مقدرين متأملين ... وإذا رأونا نضبط غرائزنا ، ونحكم هوانا ، ونذكر ربنا بالغدو والأصال لم يقل أحدهم ، هذه غيبيات العالم الثالث التى أزرت به وعرقلت سيره .) (2)

ولعل غفلة المسلمين عن دراسة الكون وتأخرهم علميا وتقدم غيرهم من الأمم ، مع دعوة القرآن إلى النظر والتدبر والتفكير في ملكوت السموات والأرض والأنفس ، هو أحد الأسباب التي أدت إلى رواج التفسير العلمي للقرآن في العصر الحديث . وجعلت كثيرا من المفسرين يتحمسون لهذا اللون من التفسير ويدافعون عنه . ولا أدل على ذلك مما ذكره الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره من حين لآخر من الدوافع والأسباب لتفسير القرآن علميا ، من مثل قوله : « وإني على رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون ، وليُقْرَأنْ في مشارق الأرض ومغاربها مقرونا بالقبول ، وليُولَعَنْ بالعجائب السماوية والبدائع الأرضية الشبان الموحدون ، وليرفعن الله مدنيتهم إلى العلا ، وليكونن داعيا حثيثا إلى درس العوالم العلوية والسفلية ، وليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة في الزراعة والطب والمعادن والحساب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والصناعات » (3)

ومن مثل قوله : « إن آباءنا برعوا في الفقه فلنبرع الآن في علم الكائنات ، لنقم به لترق الأمة » (4)

وقوله : « يا ليت شعري كيف يفوز الفرنجة بهذه العلوم ويقتسمون البحار والطرق البحرية ويختصون بعلم النجوم ويحرم المسلمون من كل ذلك ... » (5)

---

1) محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام ص 122 .
2) محمد الغزالي : المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، دار الهدى للطباعة والنشر ص 87 .
3) طنطاوي جوهري : تفسير الجواهر . المقدمة ، 3/1
4) طنطاوي جوهري : المصدر السابق ، 56/25
5) طنطاوي جوهري : المصدر نفسه 82/4

وقوله : « ... لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الآلاف من الكتب الإسلامية في علم الفقه ، وعلم الفقه ليس له في القرآن إلا أيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية ؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه وقل جدا في علوم الكائنات التي لا تخلو منه سورة ؟ فهل يجوز في عقل وشرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة ويجهلون علما آياته كثيرة » (1)

ويمكن أن نقول : إن الآيات الكريمة التي أشارت إلى الحقائق الكونية لم تأت بصيغة تدل على أنها مقصودة لذاتها ، وإنما جاءت في معرض الحديث عن حقيقة الألوهية وتوحيدها . وهذا منهج قرآني فريد لا يشاركه فيه غيره . ثم إن المقصد الأساسي من إنزال القرآن هو التشريع الذي ينظم شؤون الناس بالشكل الذي يوصلهم إلى صحة عبادتهم بالله وسعادتهم في الدنيا والآخرة وهذا يتم بالفقه أولا .

إن التفكير والنظر في ملكوت السموات والأرض فريضة إسلامية لا ينبغي للمسلمين أن يغفلوا عنها . وحسبنا حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال في شأن قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) : (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) (2)

والشاهد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بالويل على من قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها ، وهو لا يدعو بالويل على أحد إلا إذا كان الأمر خطيرا يحتاج إلى التنبيه الشديد .

وقد ذم الله من لا يعتبر بمخلوقاته ، فقال عز وجل (وكأيِّن من آيةٍ في السماواتِ والأرضِ يمرّون عليها وهم عنها معرضون) (3) وما دام الله سبحانه ينعى على الناس أن يعرضوا عن مظاهر الكون ، فهو يريد منهم أن ينظروا ويتدبروا ، ويقفوا على كل ظاهرة كونية وقفة يستنبطون منها شيئا يفيدون منه .

---

1) طنطاوي جوهري : تفسير الجواهر 55/25

2) ابن كثير : التفسير ص 180 .

3) سورة يوسف : الآية 105 .

فالقرآن يلفت النظر إلى المنهج العلمي بالنظر والمشاهدة والسير فى مناكب الأرض بحثا عن أسرار الكون والحياة ومظاهر عظمة الله في الآفاق .

والمتأمل فى آيات القرآن الكريم التى تهتم بالكون وتشير إليه ... يلاحظ تنوع أسلوبها . فأحيانا تستلفت النظر إلى آثار قدرة الله ، وأحيانا تعدد نعم الله على الإنسان فى هذا الكون البديع ليرتبط به فيتعرف أسراره وأحواله . وفى مجالات أخرى نجدها تهدد الجاحد الكفور بسلب هذه النعم . وكأن الآيات فى مجموعها تمثل نداء جهيرا للناس أن افتحوا أعينكم وأيقظو أفئدتكم ، وتأملوا مليا فى خلق الله .

وثمة ظاهرة أخرى فى القرآن الكريم ، وتتلخص فى أن كتاب الله (جرت سنته فى نظم آياته البينات على أن يبرز بشكل قوي مشاهد الكون وظواهر الطبيعة ، ويجذب إليها البصائر والأبصار ، بل على أن يضعها غير ما مرة فى مكان الصدارة . ويخصها بالأولوية والأسبقية فى غير ما آية . وذلك كلما أراد توكيد معنى خلقي أو تقرير مبدأ إعتقادي من أصول الدين . وكثيرا ما يجدد الحديث عن نفس المشاهد والظواهر فى عدة آيات وعدة سور. هذا مع أن المؤمنين الذين أنزل عليهم القرآن لا يكذبون بآياته ولا يشكون فى تعاليمه وتوجيهاته ، وفى إمكانه أن يعرض عليهم حقائقه رأسا دون تمهيد ودون حاجة إلى تدعيمها بالمشاهد الكونية) (1)

فما هو السر وراء هذا التدعيم بالمشاهد الكونية ووضعها فى الصدارة ، وتجديد الحديث عنها مرة بعد مرة ؟ مع العلم أن القرآن منزه عن اللغو والحشو والتكرار والنقص.

إن كتاب الله أراد أن يجعل الكون الذى هو (صنع الله) حاضرا أمام المؤمنين دائما فى ثنايا ما يتلونه من (كلام الله) حتى يرتبط الإنسان بالكون إرتباطا محكما وثيقا ، وحتى يمتد بينه وبين الكون من حوله جسر متين من الألفة والإنسجام يؤدي بهما إلى

1) محمد المكي الناصري : رسالة القرآن ص 13 .

التعارف والتكاثف والتقارب والتجاوب والأخذ والعطاء لخير الدنيا والدين .

ويرى ابن باديس أن القرآن الكريم يشوق إلى علوم الأكوان والتعمق فى أسرار هذه الصور التى عرضها علينا فى بيان بديع جذاب قال فى تفسير قوله تعالى (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الذي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السموات والأرض ويَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُونَ) (1) : (.... من أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية أن يعرض علينا القرآن صورا من العالم العلوى والسفلى فى بيان بديع جذاب ، يشوقنا إلى التأمل فيها والتعمق فى أسرارها . وهنا يذكر لنا ما خبأه فى السموات والأرض ، لنشتاق إليه وننبعث فى البحث عنه واستجلاء حقائقه ومنافعه بدافع غريزة حب الإستطلاع ومعرفة المجهول . ويمثل هذا انبعث أسلافنا فى خدمة العلم واستثمار ما فى الكون إلى أقصى ما استطاعوا ومهدوا بذلك السبيل إلى من جاء بعدهم . ولن نعز عزهم إلا إذا فهمنا الدين فهمهم ، وخدمنا العلم خدمتهم .) (2)

إن هذا الكون ، هو المسرح الأول لفكرنا ، وهو الينبوع الأول لإيماننا والذهول عن الكون سقوط إنساني ذريع ، وحجاب عن الله غليظ وفشل فى أداء رسالتنا التى خلقنا من أجلها وعجز من التجاوب مع وصايا القرآن الكريم التى تكررت فى عشرات السور) (3)

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم جعل من مشاهد الكون موضوع قسم باسم الذات العلية .. نظرا لما تمثله تلك المشاهد من عظمة خالقها ، وحكمة مكونها ومدبر أمرها .

وواضح أن الله تعالى غني عن كل قسم سواء كان القسم بذاته سبحانه وتعالى أو القسم بمخلوقاته ، لأنه عز وجل القائل : (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) (4) ، والقائل : (وتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) (5)

كما أن المخاطبين من البشر لا يعدو حالهم أن يكونوا بين مصدق ومكذب . فالمصدق يصدق بغير قسم ، والقسم بالنسبة إليه لا يزيد عن كونه مجرد تأكيد .

---

1) سورة النمل : الآية 25 .

2) ابن باديس : مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ـ ص 460 .

3) محمد الغزالي : المحاور الخمسة للقرآن ، ص 64 .

4) سورة النساء : الآية 6 .

5) سورة الأنعام : الآية 115 .

أما المكذب فلا يصدق ولو مع القسم إذا ، فلا شك أن وراء استعمال أسلوب القسم حكما إلهية وأسرارا ربانية : أقربها إلى الأذهان أن تصبح تلك المشاهد الكونية المقسم بها محط الأنظار ، ومحل التدبر والإعتبار حتى يصبح الكون وما حواه مألوفا لدينا ، قريبا منا ، وحتى يكون موضوع درس وبحث من جانبنا .

وبديهي أن أهمية الشيئ المقسم عليه لا تتجلى إلا من خلال التعرف على حقيقة الشيئ المقسم به ، فمعرفة الشيئ المقسم به تؤدي إلى المزيد من الإقتناع الذى يثبت الشيئ المقسم عليه وبذلك ينتقل الفكر من الدليل إلى المدلول ، وتطمئن النفوس والعقول .

قال ابن القيم : (... وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته)(1)

وعندما نستقرئ كتاب الله ، بحثا عن المشاهد الكونية التى أقسم بها نجد :

1 ـ القسم بالسماء والأرض

قال تعالى : (والسماء ذات الْحَبُك)(2)

(والسماءِ ذات البروج)(3)

(والسماءِ وما بناها والأرض وما طحاها ونفسٍ وما سواها)(4)

قال ابن القيم : (وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق والمخلوق ، فأقسم بالسماء وبانيها والأرض وطاحيها والنفس ومسويها) (5)

2 ـ القسم بالشمس والقمر :

قال تعالى : (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها)(6)

(والقمرِ إذا اتسق)(7)

(كَلاَّ والقمرِ)(8)

---

1) ابن القيم الجوزية : التبيان في أقسام القرآن دار الكتب العلمية ط 1982/1402 ، ص 6 .
2) سورة الذاريات : الآية 7 .
3) سورة البروج : الآية 1 .
4) سورة الشمس : الآية 5 ، 6 ، 7 .
5) ابن القيم الجوزية : التبيان في أقسام القرآن ـ ص 15 .
6) سورة الشمس : الآية 1 ، 2 .
7) سورة الانشقاق : الآية 18 .
8) سورة المدثر : الآية 32 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3 ــ القسم بالليل والنهار والشفق .

قال تعالى : (والليلِ إذَا يَغْشَى والنهارِ إذا تَجَلّى) (1)

(والنهارِ إذا جَلّاها والليلِ إذَا يَغْشَاها) (2)

(والليلِ وَمَا وَسَقَ) (3)

(والليلِ إذَا أَدْبَرَ) (4)

(فلا أُقْسِمُ بالشّفَقِ) (5)

4 ــ القسم بالنجوم ومواقعها

قال تعالى : (فلا أُقْسِمُ بمواقعِ النجومِ وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عَظِيمٌ) (6)

(فَلَا أُقْسِمُ بالخُنّس الجَوَارِي الكُنّسِ) (7)

(وَالنّجْمِ إذَا هَوَى)(8)

5 ــ القسم بما نبصر وبما لا نبصر

قال تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُون وبما لَا تُبْصِرُون)(9)

6 ــ القسم بالنفس الإنسانية

قال تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها)(10)

---

1) سورة الليل : الآية 1، 2

2) سورة الشمس : الآية 4 .

3) سورة الإنشقاق : الآية 17 .

4) سورة المدثر : الآية 33 .

5) سورة الإنشقاق : الآية 16 .

6) سورة الواقعة : الآية 75 .

7) سورة التكوير : الآية 15 .

8) سورة النجم : الآية 1 .

9) سورة الحاقة : الآية 38

10) سورة الشمس : الآية 7

(ولا أقسم بالنفس اللّوامة)(1)

وإذا بحثنا عن المقسم عليه أو جواب القسم في هذه الأقسام وجدناه الموضوع الذى يقوم عليه الحجاج .

فأحيانا يكون إثبات التوحيد كقوله تعالى : (إنّ إلهكم لواحدٌ)(2)

ويكون أحيانا إثبات المعاد والجزاء كقوله تعالى :

(إنّ ما توعدون لصادقٌ وإنّ الدين لواقعٌ)(3)

ويكون أحيانا إثبات عصمة الرسول وصدقه ، كقوله تعالى : (ما ضلّ صاحبكم وما غوى)(4)

ويكون أحيانا التنويه بمكانة القرآن وأنه منزل من عند الله ، كقوله تعالى (إنّه لقرآنٌ كريمٌ)(5)

. ويكون أحيانا تنبيه الإنسان إلى ما يتقلب فيه من حالات وما يتخذه من مواقف ، كقوله تعالى :

(إنّ سعيكم لشتّى).(6)

(إنّ الإنسانَ لفي خُسر) (7)

(إنّ الإنسانَ لربه لكنود) (8)

(قد أفلحَ من زكّاها وقدَ خاب مَن دسّاها)(9)

ولا شك أن في هذه الأقسام بهذه المشاهد الكونية الظاهرة للناس أكبر برهان على عظمة خالقها وجلال حكمته .

---

1) سورة القيامة : الآية 2 .
2) سورة الصافات : الآية 4
3) سورة الذاريات : الآية 05 .
4) سورة النجم : الآية 02 .
5) سورة الواقعة : الآية 80
6) سورة الليل : الآية 04 .
7) سورة العصر : الآية 02 .
8) سورة العاديات : الآية 06 .
9) سورة الشمس : الآيتان 9 ـ 10 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهي أكبر برهان على صدق القرآن ، وعلى صدق المنزل عليه - عليه الصلاة والسلام - وعلى وقوع المعاد والجزاء .

وهي من أوضح الأدلة وأمتنها التي تزيل شك الشاكين من المشركين وغيرهم زمن التنزيل وبعده .

وفي القسم بها - أيضا - تنبيه للناس على فوائدها ومنافعها ، ومن ثم دعوتهم إلى إكتشاف سنن الله فيها بإعمال الفكر والتدبر .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن على المسلمين واجبا ثقيلا وتبعة شاقة يتحتم عليهم القيام بها . ويتمثل هذا الواجب في ضرورة التمكن والتفوق في الدراسات الكونية والإحاطة بقوانين المادة وخصائصها ، لأن ذلك - في نظري - يساعدهم على نشر دينهم ، وعلى العيش الكريم في هذه الحياة ، لأن النفس البشرية جبلت على أنها لا تقبل دعوة الحق - مع أنها حق - إلا ممن هو أرفع منها مستوى فكريا وحضاريا وعلميا .

فإذا كان المسلمون على الحالة التي نعرف من التخلف والتقهقر ، وكان أعداؤهم وأصحاب الملل والنحل الأخرى في قمة التمكن من قوانين المادة واستنباط أسرارها ؛ فإنه لا يمكن - والحالة هذه - أن يؤثر المسلمون في غيرهم ، على الرغم من صدق الرسالة التي يحملونها(إن الأمة التي تعيش في دنيا من بقايا العصر الحجري لن تغني عنها [أقول في الدنيا] أرفع المثل ولا أشرف المبادئ إذا دخلت في صراع مع أمة أجادت فنون السلام والحرب) (1).إنّ النبوغ في الدراسات الكونية واستغلال نتائجها يسهل على المسلمين - إلى جانب إخلاصهم للحق - نشر دينهم . وإنه لا ينبغي أن يظل المسلمون عالة على غيرهم في أبسط شؤون حياتهم الدنيا ، رغم دعوة القرآن الصريحة لأعمال الفكر والنظر في الكون .

(إن الإسلام لا يستعيد أمجاده الأولى إلا إذا استعادت أمته فقهها في الأرض كما

---

1) محمد الغزالي : مقال بعنوان العجز في الدنيا خذلان للدين ، المختار في الأدب والقراءة ، المعهد التربوي الوطني - الجزائر - ص 187 .

تستعيد فقهها في علوم السماء ، وإلا إذا جودت شؤون العمران كما تجود التفسير والحديث)(1).إن البراعة في الشؤون المدنية والمعارف الكونية تقترب بصاحبها من مصادر اليقين الحق وصدق المعرفة بالحياة وبارئها الأعلى ، فإن الإسلام عقد عروة وثقى بين الإيمان بالله والتأمل في ملكوته والإفادة منه . لذلك نص علماؤنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية وحدق هذه الصناعات الفنية ، فرض من فروض الكفاية ماداموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجتمع وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح ، والحياة في هذا الوجود للسلام المسلح . و (الأسلحة في كل عصر عامة ، وفي هذا العصر خاصة إنما تقوم على التمهر في العلوم و على السبق في حلبة الصناعات والفنون ، والويل فينا للضعيف ، والحظ كل الحظ للقوى) (2) فلا يجوز أن يكون هناك إنكفاء عن الكون بالنسبة للمسلم ، فملكوت الأرض ليس بعيدا عن ملكوت الله .. بل هو جزء من ملكوت الله الواسع ، (وليس للإنسان المسلم المؤمن بالقرآن أن يدير ظهره للكون وما فيه من أسرار ، بل الكشف عنها ضرورة شرعية لعمارة الأرض وللشهادة على الناس والقيادة لهم ، والآيات الكونية جزء من أدلة الهداية ، والنظر فيها دين وطريق إلى الإيمان الحق)(3) .

والملاحظ أن القرآن الكريم ، عندما دعا الإنسان إلى النظر في الكون ، لم يكلفه ما لا يطيق ، بل دعاه إلى استعمال أيسر الوسائل عنده والصقها به ، وهي الحواس والعقل. فنبهه إلى أهمية تلك الحواس . قال تعالى : (واللَّهُ أَخْرَجَكُم مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وجعل لَكُم السَّمْعَ والأَبْصار والأفْئدة لعلَّكُم تشْكرُون) (4).وعرفه بموضوع النظر ـ وهو الكون كله بجميع ما فيه من كائنات :

(أَوَ لَمْ يَنْظُروا فِي ملكوت السَّموات والأرْض ومَا خلق اللَّهُ من شَيْء)(5)

---

1) محمد الغزالي : مقال بعنوان العجز في الدنيا خذلان الدين ، المختار في الأدب والقراءة ، المعهد التربوي الوطني ـ الجزائر ـ ص 187 .

2) عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ج الأول ص 25 .

3) محمد الغزالي : كيف نتعامل مع القرآن ، دار النهضة ، الجزائر ص 211

4) سورة النحل : الآية 78

5) سورة الأعراف : الآية 185 .

(وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون)(1)

وعرفه بالغاية المتوخاه من النظر . وهى فى المقام الأول تمجيد الربوبية ، ثم فى المقام الثانى نفع الإنسانية .

ومن شواهد ذلك قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شيئ شهيد) (2)

ومن الملاحظ كذلك ، أن القرآن حينما دعا الإنسان إلى النظر فى الكون ، وجه نظره بالخصوص ـ علما وعملا ـ إلى عالم الشهادة الفسيح الذى جعله الله مختبرا للإنسان يمارس فيه نشاطه ، ويستخدم فيه عقله وطاقاته وقدراته .

وعلى العكس من ذلك ، لم يدفع الإنسان إلى المجازفة والمخاطرة باستعمال نظره ، فيما فوق طاقاته من العوالم الأخرى التى لا ينفذ إليها عقله ، أو استأثر الله بعلمها دون خلقه ، لكونها فوق عقل الإنسان ، وليست من مشمولات النظر . من ذلك (الروح) .

فقد قال تعالى فى شأنها : (يَسْأَلُونَك عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِي رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم من العلم إلاّ قليلا)(3)

فما كان من أمر الله ، فالإنسان ليس مكلفا بالبحث فيه ، وحتى إن بحث فلن يصل إلى الحقيقة التى هى فوق عقله وطاقته . وبتعبير آخر هناك علم بالحقائق الغيبية ، لا سبيل إلى إدراكها إلا بالوحى الصادق .

فعالم الغيب مثلا مستثنى من النظر الفكرى ، ولا يطلع الله أحدا من خلقه على ذلك إلا من شاء . قال تعالى : (عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ)(4)

وقال تعالى : (وَما كان اللّهُ لِيُطْلِعَكُم عَلى الْغَيْبِ ، ولكنَّ يَجْتَبِي مِن رُسُلِهِ مَن يَشاءُ)(5)

قال الشاطبي : (ومعلوم أنه لم يأمرهم بالنظر فيما حجب عنهم ولم يكن لهم الإطلاع

---

1) سورة الذاريات : الآيتان 20 ـ 21 .
2) سورة فصلت : الآية 52 .
3) سورة الإسراء : الآية 58 .
4) سورة الجن : الآية 26 .
5) سورة آل عمران : الآية 179 .

عليه ـ عادة ـ إلا بخارقه ، فإنه إحالة على ما يندر التوصل إليه) (1)

وفيما عدا هذه الجوانب ، فإن الفكر البشرى أو الإدراك البشرى مدعو إلى التدبر والتفكر والنظر والإعتبار والتكيف والتأثر والتطبيق .

ومما يلاحظه المستقرئ للقرآن الكريم ، أن الكون مطرد السنن ، وهذا الإطراد فى السنن هو الذى يسمح للعقل البشرى أن يصل إلى نتائج هامة يكشف بها عن أسرار الكون ، ولولاه ما توصل الإنسان إلى شيئ ، ومن شواهد هذه الحقيقة ، حقيقة إطراد السنن الكونية ـ قوله تعالى : (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلا) (2)

وفى إثبات القرآن الكريم لإطراد السنن ، وأمره عقب ذكرها بالسير فى الأرض والنظر والتدبر ، دعوة إلى الإنسان بأن يهتم بهذه السنن ويحاول الكشف عنها والإستفادة منها . فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو أرضية هو في نظر القرآن من مهمة الإنسان ما دام على ظهر الأرض ، لأن البحث عنها ومعرفة أسرارها ، وسيلة إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية التى يحيا بها حياة طيبة يغمره فيها الإيمان بجلال الخلاق العظيم .

ولذلك قال أحد الباحثين :

(إن الجانب الكوني فى آيات القرآن الكريم ـ وهو جانب مهم جدا ، لأنه عماد الدلائل الإلهية على وجود الله تعالى ، وتوحيده ، وباهر قدرته ، وسعة علمه ، ولطيف حكمته ، وسائر ما يجب لله من الكمال ـ فى حاجة ماسة إلى إعادة النظر فيه للتفسير والبيان بأسلوب علمى يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية حجة الله على خلقه ، ويكشف عما فى الآيات من أسرار وحقائق ناط الله بها كثيرا من منافعنا ومصالحنا فى الدين والدنيا...)(3)

وقال : (إن الأمة الإسلامية فى عصرنا الحاضر فى حاجة شديدة إلى تفسير للقرآن

---

1) الشاطبي : الموافقات ـ الجزء الأول ـ ص 283 .

2) سورة فاطر : الآية 43 .

3) محمد الصادق عرجون . القرآن هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ـ ص 274 .

الكريم يبرز هدايته ويتيم حجته على ما أقامها هو عليه من النظر فى ملكوت الله وتعرف أسرار الكون والعمل على إستخدام ظواهر الطبيعة والإفادة منها بأقصى وأبلغ ما يكون فى دائرة الإمكان فى سبيل ترقية الحياة وإسعاد البشرية فى ظل هذا الكتاب العظيم)(1)

وقد بين المراد من كلامه ، أو من دعوته إلى تفسير الجانب الكوني من آيات القرآن تفسيرا علميا . فقال :

(ونحن لا نقصد بالفهم العلمي لآيات القرآن تفسيرها بنظريات العلم المستحدثة فى الأمور الكونية كما صنع بعض المتحمسين من المعاصرين كالذي سلكه صاحب تفسير (الجواهر) ...) (2)

وقد سبق أن أشرنا إلى أن مسألة اعتماد النظريات العلمية فى التفسير ، ليست خاصة بالمفسرين المعاصرين ، بل وجدت عند المفسرين القدامى أمثال الرازى . إلا أن ظهورها فى العصر الحديث كان أخطر لاعتبارين رئيسيين :

أحدهما : أن إدخال النظريات العلمية فى التفسير عند القدامى تَمَّ والمسلمون فى عزة ومنعة وقوة . وكان اعتماد هذه النظريات لا يعدو كونه آراء ووجهات نظر .

ثانيهما : أما فى العصر الحديث فقد اعتمدت هذه النظريات فى التفسير والحال أن الأمم الكافرة غالبة ، والأمة الإسلامية مغلوبة مقهورة . ثم أن التفسير المعتمد على هذه النظريات يأخذ طابع (العلم) الذى لا يناقش . ومن هنا كان اعتماد التفسير على هذه النظريات عند المعاصرين أخطر . الأمر الذى جعل كثيرا من المفسرين يرفضون هذا اللون من التفسير ، ويرون فيه مجازفة ، وتحميلا للنص القرآنى ما لايحتمل ، بل يعتبرون هذا التفسير يعبر عن انهزام أصحابه وانهيارهم أمام الحضارة الغربية الوافدة .

قال سيد قطب : (... النصوص القرآنية صحيحة وصادقة بذاتها لا بشهادة من خارجها عليها . والمؤمن بها لا يجوز أن تدركه الهزيمة أمام علم البشر . فيستشهد به على

---

1) محمد صادق عرجون : نفس المرجع ، ص 254 .

2) محمد الصادق عرجون : المرجع السابق ، ص 255 .

صدقها وصحتها) (1)

وقال عن الذين تأثروا في تفسيرهم بالنظريات العلمية : (...إنه يحدوهم حسن النية في تقديم القرآن للناس في ثياب عصرية ، وتدعيم حجته بالكشوف العلمية الحديثة . ولكن هذا القرآن غني بذاته عن صبغة البشر بصبغة الله ، غنى بحجة الله فيه عن حجج البشر)(2)

وفي نفس المعنى قال عبد المجيد عبد السلام المحتسب ، وهو يتحدث عن الإتجاه التفسيري للشيخ طنطاوي ملتمسا له العذر :(والحق يقال : إن الشيخ طنطاوي جوهري - مع مخالفتنا إياه في منحاه ونزعته - يبدو حسن النية فيما ذهب إليه .

فقد وجد أن السبيل التي سلكها تبعث الأمة الإسلامية بعثا جديدا في ميدان التقدم العلمي . وكثيرا ما نجده يخاطب الأمة الإسلامية وعلماءها خطابا يدل على الإشفاق والغيرة والإخلاص) (3) .

والحق أن تخوف المفسرين من هذا اللون من التفسير وتحفظاتهم عليه ، له ما يبرره ، وخاصة إذا انطلق أصحابه وراء النظريات العلمية يوافقون بينها وبين النصوص القرآنية ، حتى يظن ظان أنهم يستشهدون بهذه النظريات والآراء على صدق القرآن ودعوته .

فلا جدال بين العلماء ، في أن القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع ، لا كتاب علم وفلك وتشريح وما إلى ذلك من العلوم الكونية . ولكن في تفسيره علميا وتحليل آياته الكونية ، وتبيان ما تنطوي عليها أصوله من فروع ، وإشاراتها من حقائق ، ما يزيد تلك الهداية إشعاعا ، ويزيد المهتدين هدى .

ولهذا قال محمد الصادق عرجون وهو يتحدث عن أسلوب الآيات الكونية في القرآن ، وعن ضرورة تسلح القوامين على دراسة القرآن بالعلم : قال بعد أن ذكر الآية الكريمة :

---

1) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي ، ص 322 .

2) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي ، ص 329 .

3) عبد المجيد عبد السلام المحتسب : إتجاهات التفسير في العصر الحديث ، مكتبة النهضة الإسلامية - عمان - ط 3 - 1402 / 1982 ص 277

(هو الذى جعل الشمس ضياءا والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)(1):

(أفيفرد القرآن الحكيم وهو بصدد إقامة البرهان على عظمة ملك الله وجلال ملكوته ، الشمس بخصيصة الضياء ، ويخص القمر بوصف النور لغير حكمة كونية ترجع إلى طبيعة كل من الكوكبين ؟ وهل يتم الإستدلال بهما على الغرض الذى سيقا بوصفهما لإثباته دون معرفة العلة فى هذه التفرقة ؟ وإذا كان ذلك كذلك . أفلا يكون من البداهة أن يطلب من القوامين على فهم القرآن أن يحيطوا علما بالظواهر العلمية الطبيعية التى تميز طبيعة الضياء عن طبيعة النور حتى يمكن فهم الآية على حقيقتها التى أنزلها الله فى كتابه من أجلها ؟ ثم ألا يكون من البداهة ـ لأجل فهم الآية فهما مثمرا ـ أن يطلب من القوامين على دراسة القرآن أن يحيطوا علما بقدر الطاقة البشرية ببعض الظواهر الطبيعية للشمس التى جعلها الله (ضياء) وببعض الظواهر الطبيعية للقمر الذى جعله الله (نورا) حتى يتبين للدارسين ولمن ينقلون إليهم معانى القرآن فى آياته الكونية موقع وصف كل من الكوكبين ... ومن هنا تجيئ نتيجة البرهان على صدق الدعوى بتخصيص كل كوكب بوصفه المنبعث من طبيعته التى خلقه الله عليها بحكمته وإختياره) (2) ثم يطرح أسئلة ، فيقول :

(إذا كان أسلافنا من أعلام العلماء ، وحكماء الإسلام قد خاضوا بحار العلوم ، ولجج المعارف واقتحموا حصون الأفكار فى أزمانهم ، ولم يتركوا منها مشرعا إلا وردوه ، واتخذوا من كافة معارفهم معينا لفهم كتاب الله فهما يقوم على حقائق العلم الصحيح لتبيين هدايته وإقامة حجته ، فما موقفنا نحن من عصرنا ومعارفه ووسائله وأفكاره ومذاهبه ؟ هل نقف من آيات الله عند مبلغ ما وصل إليه أسلافنا فى عصرهم ، وهو نهاية إقدام العقول فى بيئاتهم وأزمانهم ومجتمعهم ؟ أو نتقدم فى شجاعة كما تقدموا إلى

---

1) سورة يونس : الآية 5 .

2) محمد الصادق عرجون : القرآن هدايته وإعجازه ـ ص 270 ـ 271 .

البحث بوسائل عصرنا ، ونخوض في بحار معارفه بعقولنا التي رباها القرآن الكريم بحكمته وبراعة أسلوبه : ولطف مدخله ، ودقة تصويره ، وروائع تناوله لقضايا الحياة والكون ، مع عنايته بتثبيت قواعد الإيمان في قلوب دارسيه من المؤمنين ؟) (1).

فالإستعانة بالعلوم الكونية التي تزيد الرؤية البشرية للنص القرآني سعة ووضوحا ، لا حرج فيها ، بل قد تكون مما لا ينبغي للمتصدى للتفسير أن يجهله .

إنما المحظور هو الإغراب في التأويل العلمي المسرف الذي يخرج القرآن عن مداره الأصلي .

وخلاصة هذا المبحث ، أن القرآن بما احتوى من آيات تتحدث عن الكون يكون قد فتح نوافذ أمام النظر العقلي ، وهيأ له المناخ العلمي الذي يدفعه للإكتشاف . ودعا الإنسان إلى إمعان النظر فيما حوله :

إلى خلقه ، فقال : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) (2)

إلى الملكوت : فقال (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (3)

إلى التاريخ وحركة الإنسان في الأرض ، فقال : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)(4)

إلى خلائق الله ، فقال : (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)(5)

إلى السنن الإجتماعية . فقال : (انظر كيف فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)(6)

إلى الطبيعة وهي تحيا برحمة الله . فقال : (فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)(7) .

---

1) محمد الصادق عرجون : القرآن هدايته وإعجازه - ص 273 .
2) سورة الطارق : الآية 5 .
3) سورة الأعراف : الآية 185 انظر سورة يونس 101 وسورة ق 6 .
4) سورة غافر : الآية 82 .
5) سورة الغاشية : الآية 17 - 20
6) سورة الإسراء : الآية 21 .
7) سورة الروم : الآية 50 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إلى الحياة الأولى كيف بدأت وكيف نمت ، فقال : (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) (1) .

فالقرآن الكريم من خلال هذه الآيات وغيرها ، يضع الإنسان في قلب الكون ، ويريد منه أن ينظر ويتمعن ويتفحص قصد الوصول إلى الحقيقة . حقيقة الإهتداء إلى الله ، والسير في منهجه سبحانه وتعالى .

ثم إن السير في الأرض ، والنظر في الأنفس والآفاق ، والإكتشاف المستمر للسنن والقوانين ، تكليف قرآني يحتم على المسلمين القيام به . وإن لم يفعلوا يكونوا مقصرين . وربما آثمين ، لأن الذهول عن دراسة الكون باب إلى الجهل والتخلف ، والإسلام يبني المعرفة على البصر العميق بالكون والبحث المستمر فيه .

وعليه فقد أصاب من قال : (إن دراسة الكون ، نهج قرآني واضح ، لبناء الإيمان أولا، ولدعمه وحراسته ثانيا ، ولمنافع البشر ومتاعهم ثالثا) (2) .

---

1) سورة العنكبوت : الآية 20 .

2) محمد الغزالي : المحاور الخمسة للقرآن ص 74 .

المبحث الثاني

تسخير الكون للإنسان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

تسخير الكون للإنسان :

اقتضت حكمة الله عزوجل ، أن يكون الإنسان هو سيد الكون ، وأن تكون مظاهر الكون المختلفة من حوله ميسرة له ، مسخرة لخدمته ، وأن يكون له من عقله ما يمكنه من التعرف على كثير من أسرار الكون والإنتفاع بها .

ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة ، حقيقة تسخير ما في الكون للإنسان ، بشكل لا يدع فيها لبسا ، فالمستقرئ لكتاب الله ، يجده يتحدث في غيرما سورة من سوره المكية والمدنية عن تسخير مافي السموات ومافي الأرض للإنسان وامتنّ عليه بذلك في غير ما آية من آياته البينات، ودعا الإنسان إلى استعمال فكره في البحث والاستكشاف والاستطلاع ليتعرف أكثر عن السنن والنواميس التي تضبط الكون .

فكل من استنهض عقله للتأمل والعلم ، وصبر على إجتياز سبله ، أمكنه أن ينتفع من الكون ، يستوي في ذلك المؤمن والكافر ، والصالح والفاجر ، غير أن المؤمن مدفوع بدافع إيماني خاص به ، إلى جانب دافع حب الإستطلاع الذي يشترك فيه العقلاء كلهم ، فالإنسان المسلم على الخصوص يدفع إلى إدراك حقائق الكون وكشف خباياه ، كلما تلا قوله تعالى :"قُل انظُروا ماذا في السموات والأرض" (1)

ومع أن مثل هذه الآية في القرآن الكريم كثير ، فإن المسلمين غفلوا عن ذلك غفلة أصبحوا معها مسخرين لأعداء الله وأعدائهم الذين سخروا كثيرا من مظاهر الكون لأنفسهم ، وكان الأجدر أن يتم تسخير الكون بأيدي المسلمين حتى يكون تسخيرا يحقق مزيدا من مقومات السعادة الإنسانية في ظل العبودية التامة للخالق عزوجل .

وقد عبر القرآن الكريم عن تسخير الكون للإنسان باللفظ الصريح "سخر" ، وبلفظ

---

1) سورة يونس : الآية 101 .

"ذلل"، واستخدم لفظ التمكين للدلالة على الغرض نفسه ، كما استعمل مادة "جعل" ، و"خلق"

ـ ولنبدأ بمادة "سخر"

أولا : مادة سخر :

قال الراغب :"والتسخير في اللغة سياقة إلى الغرض المختص قهرا ... فالمسخر هو المقيض للفعل ، والسخري هو الذي يقهر فيتسخر" (1)

فالقرآن يعلن أن الله سبحانه وتعالى ماخلق العالم على هذا النحو المملوء بالأسرار والسنن التي هيأ الإنسان للوصول إليها إلا لينتفع بها الإنسان ، قال الله تعالى عن تسخير ما في السموات وما في الأرض للإنسان :"وَسَخَّرَ لكم مَا فِي السَّمَوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعًا مِنْه" (2)

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سخَّرَ لكُمْ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا في الأرض وأَسْبَغَ عليكم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً" (3)

قال القرطبي :"يعني أن ذلك فعله وخلقه وإحسان منه وإنعام" (4)

وقال ابن كثير :"الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ، ولهذا قال "جميعا منه" أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك" (5)

وقال سيد قطب :"إن هذا المخلوق الصغير ، الإنسان ... يحظى من رعاية الله سبحانه بالقسط الوافر الذي يتيح له أن يسخر الخلائق الكونية وينتفع بها على شتى الوجوه ، وذلك بالإهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلهي الذي يحكمها ... وذلك كله من فضل الله عليه"(6) .

---

1) الأصفهاني : مفردات القرآن ، مادة (سخر) ص 232 .
2) سورة الجاثية : الآية 13 .
3) سورة لقمان : الآية 20 .
4) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، الجزء 12 ـ ص 160 .
5) ابن كثير : تفسير ابن كثير ، الجزء 4 ص 148 .
6) سيد قطب : الظلال ، ج 25 ص 3226 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعن تسخير الشمس والقمر ، يقول الله سبحانه :

"اللّهُ الذي رَفَعَ السموات بغيْر عَمَد تَرَوْنَها ثُمّ اسْتَوى عَلى العَرْش ، وَسَخّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجلٍ مُسمّى ، يُدَبّرُ الأمرَ ، يُفصّلُ الآياتِ لَعلّكم بلقاءِ رَبّكم تُوقنُون" (1)

فتسخير الشمس والقمر في هذه الآية يعرض في معرض التعريف بالحقيقة الإلهية ، وفي معرض تثبيت عقيدة البعث ولقاء الله عزوجل ، فرفع السموات بغير عمد ثم الإستواء علي العرش ، وتسخير الشمس والقمر ، وتدبير الأمر ، كل ذلك دلائل عظمة الخالق سبحانه وتعالى .

ونمضي مع الآيات التي تتحدث عن تسخير الشمس والقمر لخدمة هذا المخلوق المكرم يقول الحق سبحانه وتعالى :

"وسخّرَ لكم الشمسَ والقمرَ دَائبَيْن" (2)

فالآية صريحة في كون التسخير لنا وللناس جميعا "سخر لكم" وهذا التسخير دائب ومستمر إلى أن يشاء الله : "كل يجري لأجل مسمى"

وقد تكرر جري الكل لأجل مسمى ، عدة مرات في موضع مختلفة من القرآن (3) .

وعن تسخير الشمس والقمر والنجوم ، ويقول الله تعالى :

"إنَّ رَبّكم اللهُ الذي خلقَ السموات والأرضَ في ستّة أيامٍ ثُمَ استَوى على العرشِ يُغشي الليلَ النهارَ يطلبه حَثيثا ، والشمس والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره ، ألا لَه الخلقُ والأمرُ تبارك اللهُ ربُّ العالمين" (4) .

وعن تسخير الليل والنهار والشمس والقمر ، والفلك والأنهار ، يقول الله تعالى: "اللّهُ الّذي خَلَقَ السموات والأرضَ وأنزلَ منَ السماء مَاءً فأخرجَ به منَ الثمَرات رِزْقًا لَكُم وَسَخّرَ لَكُم الفلكَ لِتَجْرِيَ في البحرِ بأمره ، وسخّرَ لكم الأنهارَ ، وسخر لكم الشمسَ والقمر دائبين،

---

1) سورة الرعد : الآية 2 .
2) سورة إبراهيم : الآية 33 .
3) أنظر سورة لقمان : الآية 28 ، وسورة الزمر : الآية 5
4) سورة الأعراف : الآية 53 .

وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار" (1)

قال ابن كثير :"يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفا محفوظا والأرض فراشا "وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم" مابين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري بأمر الله تعالى ، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم لجلب ماهنا إلى هناك وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقا للعباد من شرب وسقي ، وغير ذلك من أنواع المنافع "وسخر لكم الشمس والقر دائبين" أي يسيران لا يفتران ليلا ولا نهارا ..." (2)

وعن تسخير البحر ، يقول الله تعالى :"وَهُو الَّذي سَخَّرَ لَكُم البحرَ لِتَأكُلوا مِنْه لَحمًا طَرِيًّا وتَسْتَخْرِجوا مِنْه حلْيَةً تلبسونها وترى الفلكَ مواخرَ فيه وَلتبْتَغوا من فضْله ولَعَلَّكم تَشكُرون"(3)

"اللَّهُ الذي سَخَّرَ لَكُمُ البحرَ لتَجري الفلكُ فيه بأَمْره ولتَبْتَغوا من فَضْله ولعلّكم تشكرون"(4)

وعن تسخير الأنعام ،يقول الحق سبحانه وتعالى :

"والْبُدْنَ جَعلْنَاها لَكُم من شعائر الله ، لكم فيها خيرٌ ، فَاذْكروا اسمَ اللهِ عَليها صوافَّ فإذا وجبتْ جُنوبها فكلُوا منها وأَطعموا القانعَ والمُعترَّ كَذلك سخَّرْناها لَكُم لعلّكم تشكرون"(5)

"لِتَسْتَوُوا على ظُهُوره ثُمَّ تَذْكروا نعمة رَبِّكم إذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيْه وتَقُولوا سُبْحَانَ الذِي

---

1) سورة إبراهيم : الآيات 34 ، 35 ، 36 .

2)ابن كثير : التفسير ، الجزء الرابع ص 139 .

3) سورة النحل : الآية 14

4) سورة الجاثية : الآية 11 .

5) سورة الحج : الآية 34 .

سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ" (1)

فهو حقا تسخير يستوجب الشكر

وصفوة القول أن الآيات التي تقدمت تجمع كلها على أن الله الذي خلق الكون سخره لخدمة البشر وسلطهم عليه بما وهبهم من أبصار وأسماع وعقول تساعدهم على استخدام مافي الكون من خيرات ، واكتشاف مافيه من قوى ، واستغلال ذلك كله في سبيل نفعهم وإسعاد أنفسهم في ظل منهج الله .

وكل ذلك التسخير فضل من الله يستوجب الشكر من العباد

هذا عن تسخير الكون باللفظ الصريح "سخر" ، وهناك آيات أخرى تشير إلى تسخير مافي الكون بلفظ "التذليل"

قال الله تعالى :"هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" (2)

قال القرطبي في التفسير :"أي سهلة تستقرون عليها ، أي لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغلظة" (3)

والأمر في الآية : "فامشوا في مناكبها" للإباحة وإظهار الإمتنان .

وقال ابن كثير :"..... ذكر نعمته على خلقه في تسخيرة لهم الأرض وتذليله إياها لهم بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب بها جعل فيها من جبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار" (4)

وقال سيد قطب :"والأرض الذلول كانت تعني في أذهان المخاطبين القدامى هذه الأرض المذللة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة وبالفلك التي تمخر البحار ، والمذللة للزرع

1) سورة الزخرف : الآية 12 .
2) سورة الملك : الآية 15 .
3) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج 14 ـ ص 214
4) ابن كثير : التفسير ج 4 ص 398 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والجني والحصاد ، والمذللة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة .... وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم فيما اهتدى إليه حتى اليوم ، تفصيلا يمد في مساحة النص القرآني في الإدراك" (1)

ويقول البوطي معلقا على هذه الآية :"ألا ترى إلى كلمة "ذللولا" وهي صيغة مبالغة بمعنى مذللة كيف صورت الأرض وكأنها مائدة وضعت بين يدي الإنسان بكل مافي باطنها من خير ، وبكل ماعلى ظهرها من خير ليعمل فيها قدرته العضلية ومواهبه الفكرية ، وليستخرج منها كل ما يطمح إليه من أسباب السعادة" (2)

وعن تسخير ما على ظهر الأرض من أنعام ، يقول القرآن الكريم : "أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون" (3) .

قال القرطبي :"أي سخرناها لهم حتى يقود الصبي الجمل العظيم ويصرفه كيف يشاء لايخرج من طاعته" (4)

فالله سبحانه أودع في الإنسان خصائص ، وفي الأنعام خصائص ، فجعل الإنسان قادرا على تذليلها واستخدامها والإنتفاع بها ، وجعل الأنعام مذللة نافعة طيبة لشتي حاجات الإنسان ، ولولا إيداع هذه الخصائص في الأنعام ، ماستطع الإنسان أن يذللها ، لأنها تتمتع بقوة تفوق قوته تجعلها تستعصي على الخضوع والإنقياد ، لولا أن الله هيأها لذلك .

إن القرآن الكريم يوجه أنظار البشر إلى المنفعة الحاصلة لهم من خلقه هذا الكون وطبيعته ، وإلى دلالته على خالقه .

فالكون بمظاهره ومشاهده مجعول "مسخر" للإنسان .

---

1) سيد قطب : الظلال - ج 29 ص 3637 .
2) البوطي : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص 98 .
3) سورة يس : الآيات ، 71 ، 72 ، 73 .
4) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ج 15 ، 55 .

فكثير من الآيات نصت على أن الأرض جعلت فراشا ومهادا وبساطا وقرارا ....

ومن شواهد ذلك قوله تعالى : " الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون " (1)

وقال : "أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله ، بل أكثرهم لايعلمون"(2)

وقال : "الذي جعل لكم الأرض مهادا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون" (3)

وقال : "والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا" (4)

وقال : "ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون"(5)

وهذه آيات أخرى تنص على ما في تعاقب الليل والنهار من نعم ، نعم من الخالق على الناس ، وأخرى تنص على مافي حركة الشمس والقمر من فوائد جليلة . قال تعالى : "هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون" (6)

"وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا" (7)

"قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (8)

"هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين

---

1) سورة البقرة : الآية 21 .
2) سورة النمل : الآية 63 .
3) سورة الزخرف : الآيات 9،10،11
4) سورة نوح : الآيتان 19 ـ 20 .
5) سورة الأعراف : الآية 10 .
6) سورة يونس : الآية 67 .
7) سورة الفرقان : الآية 47 .
8) سورة القصص : الآيات 71 ـ 72 ـ 73 .

والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون" (1) .

إن القرآن الكريم يقرر أن الله سبحانه وتعالى قد سخر للإنسان الكون بسمائه وأرضه وجوه وبحره وشمسه وقمره وكواكبه ورياحه وطيوره وبوابه ونواميسه .

ففي عبارة "ألم تروا" التي تكررت في القرآن ، تذكير السامعين بما يشاهدونه ويمارسونه وينتفعون به ، وهي كذلك تنطوي على تقرير اختصاص بني الإنسان دون غيرهم من الأحياء بتسخير ما في السموات والأرض من قوى ونواميس ، نتيجة لما اختصهم به من تكامل عقلي أو قابلية للتعامل العقلي .

إن عبارات القرآن مثل : التسخير ، والتذليل ، والتمكين تقرر بأن الله قد أخضع المظاهر الكونية المختلفة للإنسان أيما اخضاع .

ومنه نخلص إلى القول بأن العلاقة بين الإنسان والكون هي علاقة حب وخدمة ، فكل الآيات التي مرت معنا تربط الإنسان بالكون بوشيجة الألفة والمودة والخدمة ، ولم يرسم القرآن للكون صورة في الذهن تحمل الإنسان على الإبتعاد عنه أو الحذر منه ، بل راح يقربه إليه بالأوصاف التي تحببه إلى نفسه ويدعوه إلى الإستفادة منه قدر إستطاعته .

إذاً فليس حقيقة ماتزعمه بعض الدراسات والتصورات الغربية من أن الإنسان منذ أزمنة بعيدة وهو يصارع الطبيعة وتصارعه .

إن العلاقة بين الإنسان وهذه المكونات لم تكن يوما ما علاقة تحد وصراع ، وليس لما يعبر عنه البعض بكلمة (تحديات الطبيعة) أي مدلول في ميزان العلم والوقائع والأحداث التاريخية ، فلا الإنسان عاش يوما ما مجردا من مزية العقل والفكر ، ولا التي يسمونها الطبيعة وقفت تجابه الإنسان بأي تحد أو تمرد ، بل النسب قائم ومتين بينهما منذ أن أبدع الله كلا من الخليقتين ، وليس ثمة إلا شرط واحد لتغذيه هذا النسب القائم بينهما

---

1) سورة يونس : الآية 5 .

واستخراج ثماره ، ألا وهو أعمال الفكر والعقل واستخدام وسائل البحث والعلم " (1)

وهو ما دعا إليه القرآن الكريم بصراحة في مواطن كثيرة كما بينت في المبحث السابق، ولعلي لا أكون مجانبا للصواب إذا قلت أن الكون وما فيه من مخلوقات نبه الأنسان إلى كثير من المخترعات : أي أن الإنسان نظر إلى الكون فحكاه وصنع كثيرا من الآلات الميكانيكية وغيرها على منوال ما رأى وشاهد في الكون ، وهو ما عبر عنه أحد الباحثين بـ "تقليد نظام الطبيعة . " قال :" ... ولهذا فإن تقليد نظام الطبيعة قد أصبح اليوم موضوعا خاصا في العلم يولي أهمية خاصة للسير بالآلات الميكانيكية وفق ذلك النظام .... ومن أمثلة استغلال نظام الطبيعة في الصناعة ، آلة التصوير ، وهي في الواقع تقليد ميكانيكي لعين الإنسان " (2)

فالكون ليس عدوا للإنسان ، ولكنه مخلوق سخر لخدمته ليساعده علي القيام بمهمة الخلافة في الأرض .

قال سيد قطب :

"إن التصورات الجاهلية الإغريقية والرومانية هي التي تطبع تصورات الجاهلية الحديثة ، وهي التي تصور الكون عدوا للإنسان ، وتصور القوى الكونية مضادة لوجوده وحركته ، وتصور الإنسان في معركة مع هذه القوى بجهده وحده ، إنها تصورات سخيفة فوق أنها خبيثة" . (3)

وقال :"لوكانت النواميس الكونية مضادة للإنسان ، عدوة له ، تتربص به ، وتعاكس اتجاهه ، وليس وراءها إرادة مدبرة كما يزعمون ما نشأ هذا الإنسان أصلا ، وإلا فكيف كان ينشأ ؟ كيف كان ينشأ في كون معاد بلا إرادة وراءه ؟ ولما استطاع المضي في الحياة على فرض أنه وجد وإلا كيف يمضي والقوى الكونية تعاكس اتجاهه ، وهي بزعمهم التي تصرف نفسها ولا سلطان وراء سلطانها" .(4)

---

1) البوطي : منهج الحضارة الاسلامية في القران ـ ص 99 .
2) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ـ ص 83 .
3) سيد قطب : في ظلال القران ص 1262 .
4) سيد قطب : في ظلال القران ـ ص 1262 .

إن الكون في التصور الاسلامي ، وكما قرر القرآن الكريم ، خادم أمين مسخر بمشيئة الله للإنسان ، ، يستفيد منه بمقدار ما يتأمل فيه وهو كون مأنوس للإنسان ، بينه وبين الإنسان علاقة حب وخدمة ، وليس بنه وبين الإنسان أي تشاكس أو تحد أو تضاد .

وهو كون عابد لربه ، مسبح بحمده ، كما أن الإنسان عبد لله مستخلف في الكون بأمر الله عزوجل .

وفي ظل هذا التصور يعيش الإنسان في كون مأنوس صديق ، وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة ... يتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة ، ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود ، وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافته وتيسر له قدرا جديدا من الرقي والراحة والمتاع .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

حقيقة الإنسان وصلته بالله عز وجل في القرآن الكريم .

المبحث الأول :

نشأة الإنسان في الفكر الغربي اللاديني في العصر الحديث

المبحث الثاني :

حقيقة الإنسان في القرآن الكريم .

المبحث الثالث :

صلة الإنسان بالله عزوجل في القرآن الكريم :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول :
نشأة الإنسان في الفكر الغربي اللاديني في العصر الحديث

1ـ مذهب النشوء والإرتقاء : تاريخه ، ورواده

2ـ موقف علماء اللاهوت وعلماء الطبيعة الغربيين منه

3 ـ مذهب النشوء في الشرق العربي

4ـ بعض ماقيل في المذهب

5 ـ إيحاءات المذهب وما تركه من آثار في العلوم الإنسانية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول :

نشأة الإنسان في الفكر الغربي اللادبني في العصر الحديث

موضوع الإنسان في الفكر الغربي اللادبني في العصر الحديث ، موضوع شائك وطويل وقد تناوله باحثون أجلاء فأجادوا وأفادوا ، وشفوا وكفوا ، ومع ذلك أرى أنه لا مندوحة من تناوله في هذه الدراسة ، ولو بشيء من الإيجاز والتركيز .. لأنه لصيق بموضوع الإنسان في القرآن ، أو هو كالتوطئة له ، وسأقصر الدراسة في هذا الموضوع على ناحيتين :

أولا : من حيث النشأة : "نظرية أو مذهب النشوء والإرتقاء"

ثانيا : إيحاءات النظرية وماتركته من آثار في سائر العلوم الإنسانية كعلم النفس والإجتماع والإقتصاد .

أولا : مذهب النشوء والإرتقاء أو مذهب التطور :

"وهو أول مذهب يتعين البحث فيه واستقراء ما يقال عنه ، تأييدا وتفنيدا" (1)

وتجدر الإشارة إلى أن القائلين بالتطور فرقتان : فرقة تعمم التطور على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وقوة ، وفرقة تقصره على عالم الكائنات العضوية التي تشمل النبات والحيوان والإنسان ولا تحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية .

والذي يعنينا في هذا المبحث هو التطور المتعلق بالكائنات العضوية بما فيها الإنسان .

ـ تاريخ المذهب :

مذهب النشوء لم يعرف بتفصيل قبل العالم الفرنسي لا مارك (2) ثم العالمين الإنجليزيين : شارل داروين (3) وزميله الفريد رسل والاس (4) . وعلى مباحث هؤلاء الثلاثة

---

1) العقاد : الإنسان في القران ص 60 .

2) اسمه الكامل لامارك جان بابتست (1744 ـ 1829 م) مفكر فرنسي وعالم طبيعي .

3) اسمه الكامل داروين تشارلز روبرت (1809 ـ 1882) عالم طبيعي ومفكر انجليزي . أهم مؤلفاته : أصل الأنواع عن طريق الإنتخاب الطبيعي (1859) ، أصل الإنسان 1871 .

4) اسمه الكامل الفريد روسل والاس (1823 ـ 1913) عالم طبيعي ومفكر انجليزي .

يقوم أساس مذهب النشوء أو مذهب التطور(1)

ـ خلاصة المذهب :

خلاصة "مذهب النشوء والإرتقاء أو التطور" هي أن أنواع الأحياء تتحول وتتعدد على حسب العوامل الطبيعية ، وإنها ترجع جميعا إلى أصل واحد أو أصول قليلة لعلها هي الخلايا البادئية .

هذا إجمال بعده تفصيل .

بما أن رواد هذا المذهب أكثر من واحد ، فلنعرض إلى رأي كل واحد منهم وفكرته في المسألة :

1ـ لامارك :

يعتمد لامارك في تعليل نشوء آلية التطور على فكرتين أساسيتين .

1ـ فكرة الإهمال والإستعمال .

2ـ الصفات المكتسبة تنتقل من السلف إلى الخلف عن طريق الوراثة .

ففي رأي لامارك أن أعضاء الجسم تتغير بالاستعمال أو بالاهمال أو بطارئ من طوارئ المرض والإصابة ، وأن الصفات المكتسبة التي تتولد من ذلك تنتقل بالوراثة ولاتزال تتباعد بين الأفراد حتى ينفصل كل منها بنوعه المستقل الذي لا يقبل التناسل مع غيره ، وقد ضرب المثل بالزرافة وافترض أنها لطول قوائمها ـ كانت تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا ، وتعودت أن تمط عنقها كلما تجردت الفروع السفلى من أوراقها حتى بلغ غاية امتداده ، وثبت على هذا الطول في أعقابها المتوالية .

2ـ داروين :

تتلخص أسس النظرية الداروينية في النقاط التالية :

---

1) العقاد : الإنسان في القرآن ص 74 .

1- إن الأحياء كلها نشأت عن طريق التطور والتسلسل من أصل واحد ، سواء في عالم النبات أو الحيوان ، وإن النوع البشري قد انحدر من النوع الحيواني ، وهو لم يخلق مستقلا من أول مرة ، والأصل الأول للحياة هو البروتوبلازم وهي الذخيرة أو الأصل الذي تعود إليه كل صور الحياة من نبات وحيوان وإنسان .

2- الأنواع الموجودة في كوكب الأرض ، من الكائنات الحية ، تتزايد على حسب المتوالية الهندسية - أما الموارد الإقتصادية فزيادتها تكون حسب المتوالية الحسابية - مما يؤدي بالضرورة إلى تنافس وتنازع بين الكائنات الحية من أجل الحصول على المورد الغذائي ، فلا يبقى إلا النوع القوي "البقاء للأقوى" .

3- إن الطبيعة تعمل على توازن بين أنواع الكائنات الحية الواحدة ، وفق البيئات المختلفة ، فلا يعيش فيها إلا القوي الذي يتلاءم مع تلك البيئة أوما يسمى بالإنتخاب الطبيعي .

4- إن الصفات القوية التي يكتسبها الكائن الحي ، بواسطة الإنتخاب الطبيعي سوف تنتقل إلى الأبناء عن طريق الوراثة ، ومن هنا يكون لجيل الأبناء فرصة التكاثر والبقاء ولا يبقى بين هذا النوع كذلك إلا القوي

5- الإصطفاء أو الإنتخاب الجنسي . (1)

ولما وجهت انتقادات موضوعية كثيرة إلى نظرية دراوين التجأ بعض الداروينيين إلى ملء هذا الثلم ، فنشأ من ذلك ما يسمى بالداروينية الجديدة .

وقد تزعم هؤلاء الباحثين العالم هيغوبو فريس "HUGO DE VERIES" (2). وأهم ما ينهض عليه هذا المذهب الجديد ويعتبر فارقا أساسيا يتميز به عن نظرية داروين ماقد ترجح عند هؤلاءالآخرين من أن التطور إنما يقوم على أساس (الطفرة)التي تحدث فجأة وبالمصادفة ، لا على أساس انتخاب الأصلح كما يقول داروين ، ويقولون إن التغيرات بعد

---

1) بكير بن سعيد اغوشت : القران ومذهب داروين دار البعث - قسنطينة - ط 1 (1401 هـ - 1983 م) - ص 64 .

2) HUGO DE VERIES عالم هولندي ولد سنة 1848 وتوفي سنة 1935 .

أن تتم فجأة وعلى سبيل الطفرة التي لا يستبين فيها سبب غائي تتسجل فورا في الذخيرة الوراثية ، حيث تنتقل بعد ذلك إلى السلالة بعامل من الوراثة . (1)

2 ـ موقف علماء اللاهوت وعلماء الطبيعة الغربيين من مذهب النشوء

من المفيد أن نسجل هنا ، أن الإعلان عن مذهب النشوء في الغرب قوبل بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتكفير في البيئات الدينية " فقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم باقي الأثر إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات...."(2)

"إلا أن الباحثين الدينيين عدلوا أخيرا عن التحريم بقوة القانون إلى مناقشة المذهب بالبراهين العلمية ، فأخذ فريق منهم في تفسير المذهب بالمعنى الذي يوافق الروايات الدينية بمعانيها الرمزية ، وأخذ الفريق الآخر في إنكاره بالأدلة العلمية التي استند إليها العلماء ولا يزاولون يستندون إليها إلى هذه الأيام" (3)

ومن هؤلاء الباحثين : الأستاذ ث.ب بيشوب ، ألف كتابا سماه : (النشوء منتقدا) (EVOLUTION CRITICISED) ، وفي سنة 1945 تدفقت الكتب التي تعرض لهذه المباحث بأقلام علماء الطبيعة وعلماء اللاهوت ، ولكن مؤلفات اللاهوتيين في هذه الفترة لم تكن دون مؤلفات العلماء الطبيعيين في حجج العلم وشواهد التجربة وصدق النظر في أقوال الأنصار والخصوم .

وليس علماء اللاهوت وحدهم هم المعترضون على مذهب النشوء ، بل شاركهم في ذلك علماء الطبيعة ، وناقشوا المذهب بالأدلة العلمية وطلبوا من دعاته دليلا محسوسا على فعل الإنتخاب الطبيعي في تحول الأنواع ولا سيما نوع الإنسان .

وإلى جانب هؤلاء المعترضين على المذهب ، هناك المناصرون والمؤيدون المتحمسون في

---

1) البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ص 264 .
2) العقاد : الإنسان في القرآن ص 92 .
3) العقاد : المرجع السابق ، ص 93 .

تأييدهم للمذهب باسم حرية الرأي أشد من تحمسهم له إيمانا بحقيقته العلمية ، واعترافا بكفاية براهينه (1) .

وتجدر الإشارة إلى أن المنتقدين لسائر النظريات التفصيلية ، يثبتون فكرة التطور بالجملة ، وهو ماكان له أثر خطير في تفسير جوانب الإنسان الأخرى : كالأخلاق ، والإجتماع ، والإقتصاد ، وما إليها من نشاطات الإنسان المختلفة .

3- مذهب النشوء في الشرق العربي .

تصدى للرد على مذهب النشوء ، في الشرق الإسلامي عامة والشرق العربي خاصة نخبة من المفكرين وقادة الإصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية . وناقشوه كما شاع لأول وهلة بين الغربيين من قبل كأنه مذهب يستلزم إنكار الخلق ويزعم أن القردة جدود البشر أجمعين ، فكل إنسان حديث فهو نسل متأخر لقرد قديم . (2)

ومن بين رواد الفكر من المسلمين والمسحيين الذين تصدوا للرد على هذا المذهب في تلك الفترة ، السيد جمال الدين الأفغاني في كتابه "الرد على الدهريين" و"محمد رضا آل العلامة الأصفهاني" الشيعي ، في كتابه "نقد فلسفة داروين" والأستاذ ابراهيم الحوراني في رسالتين : تسمى الأولى :"مناهج الحكماء في نفي النشوء والإرتقاء" وتسمى الثانية :"الحق اليقين في الرد على بطل داروين" ، وقد كتب رسالته الثانية ردا علي مناقشة الدكتور "شلبي شميل." والأسقف خير الله اسطفان في كتابه "صفوة علم اليقين في حقيقة تصدع مذهب داروين " ، والدكتور حليم عطية سوريال في كتابه : "تصدع مذهب داروين والإثبات العلمي لعقيدة الخلق" .

ويلخص العقاد الردود المتقدمة ويحصرها في ثلاثة مناح :

1- منحى الجزم بالرفض والحكم ببطلان المذهب في جملته وتفصيله لأنه مناقض للدين غير مستند إلى أدلة قاطعة .

---

1) انظر العقاد : الإنسان في القرآن ص 97 .

2) العقاد : المرجع السابق ، ص 99 .

2- منحى الرفض لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة والإيمان بأنه - إذا ثبت - لا يقضي بتكذيب العقيدة الدينية والعقلية في الخالق .

3- منحى القول بأن الأدلة العلمية التي يوردها العلماء لنفيه والتشكيك فيه أرجح من الأدلة التي يوردونها على تأييده . (1)

ولقد رأيت للعقاد موقفا خاصا من مذهب النشوء وصاحبه الرئيسي داروين ، يتلخص موقفه في النقاط التالية :

1- خطأ المعترضين على المذهب باسم الدين يستوي في ذلك المسيحيون و المسلمون .

2- مذهب النشوء ليس فيه ما يصح أن يستند عليه الملحدون لإبطال الدين أو انكار الخالق .

3- دراوين مؤمنا بالدين و بقداسته .

قال العقاد في شأن النقطة الأولى :

"لكن الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطئوا - دينيا وعلميا - فى إنكارهم باسم الدين أمورا لا تزال قيد البحث بين الإثبات والنفي ، ويجوز أن تسفر بحوث الغد عن اثباتها بما يقطع الشك فيها ... كما يجوز أن ينفيها بما يزيل مواضع الخلاف فيما بين عقائد الدين وحقائق العلوم" (2)

وقال :"هل يصيب الذين يحرمون باسم الإسلام مذهب النشوئيين المؤمنين بالخالق ؟"

وليس يخالجنا الكثير من الشك ولا قليل في خلو كتاب الإسلام مما يوجب القول بتحريم هذاالمذهب ... فقد يثبت غدا أن المذهب صحيح كله أو باطل كله ، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ...." (3)

و قال : " فإذا أخطأ من يقحم القرآن في تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فمثله في الخطأ من يقحم القرآن في تحريمها وهي بين الظن والرجحان ، وبين الأخذ والرد ، في

---

1) العقاد : الإنسان في القرآن ، ص 119 .

2) العقاد : المرجع السابق ص 122 .

3) العقاد : المرجع السابق ص 124 .

إنتظار البرهان الحاسم من بيينات العقل أو مشاهدات العيان " (1) .

وقال :" ومذهب التطور - خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع - لم يثبت بالدليل القاطع ، لأن أنصاره لم يذكروا حتى الآن حيوانا واحدا تحول من نوع إلى نوع بفعل الإنتخاب الطبيعي، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، ولكن بطلان القول بهذا الإنتخاب لم يثبت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه ، وليس في القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الإنتخاب الطبيعي لأن خلق الإنسان من الطين لاينفي التحول إلى غير الطين ولايوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب ، وإنما نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الإنسان من الطين " (2) .

وعن النقطة الثانية ، قال :

"إن مذهب التطور أيا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو إنكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير"(3)

وقال عن عقيدة داورين مانصه :

" و كان داروين على تردده في مسائل الغيب ، يشعر بقداسة الدين ويحرص على رعاية شعور المتدينين ولا يرتضي من العلماء أن يقحموا مذاهبهم على ضمائر الناس فيما اطمأنوا إليه من عقائدهم الروحية ، فلما أراد "كارل ماركس" أن يهدي إليه كتابه عن رأس المال كتب إليه معتذرا وقال من رسالة محفوظة الآن بمعهد ماركس وانجلز في موسكو :"إنني أشكر لك رسالتك الودية ... ، وأفضل أن يكون هذا الجزء من الكتاب غير مهدى إلي مع شكري لهذه التحية ، وإذ كان اهداؤه إلي يتضمن على وجه من الوجوه إقراري لما في سائر الكتاب الذي لا علم لي به ..." (4)

---

1) العقاد : الإنسان في القران - ص 173 .
2) العقاد : المرجع السابق ص 173 .
3) العقاد : المرجع السابق ص 125 .
4) العقاد : المرجع السابق ، ص 126 .

ثم قال العقاد : "وعاش داروين بقية حياته على هذا الرأي ، مؤمنا بأن مذهبه لا يقتضي من العقل أن ينفي وجود الله ، ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجوده ، وأن الإيمان بأي ديانة من الديانات لا يتوقف على الفصل في قضية التطور إلى الرفض أو إلى القبول" . (1)

أقول : مهما حاول الباحثون الدفاع عن مذهب النشوء ورواده والتماس الأعذار لهم ، فلن يجدوا لهم عذرا في إنكارهم صراحة حقيقة الخلق المستقل القائلة بأن الإنسان لم ينحدر من أصل مشترك مع أي حيوان آخر .

فأصول المدرسة الداروينية تناقض الحقيقة القرآنية التي تؤكد أن الإنسان خلق خلقا مستقلا .

4- بعض ماقيل في مذهب النشوء او التطور .

1- إن الصفات التي يرثها الكائن الحي عن أبويه تكون عن طريق المورثات التي تمثل الموارد الأساسية للوراثة النوعية ، ولا تدخل هنا للخلايا الجسمية الخارجية فيها .

2 - إن الكائنات الحية التي تكسب سلوكا عن طريق المنعكسات الشرطية ، ليس في استطاعتها أن تقوم بنقل هذه الصفة المكتسبة لأبنائها : فمثلا : ابن الفلاح لا يرث صفة الخشونة والصلابة بيديه عن أبيه .

هذا النقد موجه بالخصوص إلى "نظرية لامارك"

3- إن الواقع الذي نشاهده يتنافى بشكل حاد مع ما أسماه داروين بقانون الإصطفاء والبقاء للأصلح ، فإن الكون لا يزال بعد كل ما قطعه من عمره المديد - يعج بالأصلح والصالح وغير الصالح من شتى أصناف الحيوانات بدءا بالهلاميات إلى القردة فالإنسان.

4- لاخلاف في أن كل نوع من الحيوانات تطرأ عليه خسائر ضخمة مع الزمن بسبب عواد وعوامل طبيعية مختلفة تتغلب عليها ، هذه حقيقة مشاهدة لا تنكر ، أما أن تكون الكارثة نتيجة تسابق وتنافس ينتهيان بإصطفاء الأنسب والأقدر ، فهذه مسألة أخرى ، إن

---

1) العقاد : الإنسان في القرآن ص 127 .

كلا من الموت والنجاة من الموت كثيرا ما يكون عائدا إلى المصادفة المجردة لا إلى صفات خاصة في الفرد .

5 - إن عملية الإصطفاء ليست حركة آلية ، سواء اعتبرناها اصطفاء صنعيا أو طبيعيا ، بل هي وسيلة تستهدف غاية ، والسعي نحو غاية ما يعتبر أعقد عمليات الفهم والإدراك فكيف يمكن اسناد ذلك إلى "الطبيعة" التي لا مناص من تفسير عملها وآثارها ، مهما تنوعت التعابير عنها ، بالآلية والعشوائية المجردة .

وانتخاب الأصلح لا بد أن يعتمد على قانون يميز الأصلح عمن دونه ويعلل ذلك ويوجهه. فعلى أي قانون تستند الطبيعة في انتخابها؟ وماهو التعليل الذي مضمته ثم انطلقت متأثرة به ؟

6- إذا كان مبدأ الإصطفاء الطبيعي هو مبعث التطور المستمر في الكائنات الحية وكان هذا التطور يتجه دوما شطر ماهو الأصلح - فلماذا لا نجد القوى العاقلة في كثير من الحيوانات أكثر تطورا وارتقاءا من غيرها ما دام هذا الإرتقاء ذا فائدة لمجموعها ؟ ولماذا لم تكتسب القردة العليا من القوى العاقلة بمقدار ماكتسبه الإنسان مثلا ؟

7- إن كل ما اعتمده داروين لا يعدو أن يكون من نوع المشاهدات الوصفية الثابتة ، أي أنه لاحظ ظاهرة التشابه التصاعدي في الكائنات الحية بدءا من الخلية الأولى إلى أرقى أنواعها وهو الإنسان ، ولكن ما علاقة هذا التشابه الثابت بين سلسة الحيوانات بدعوى أنها جميعا منحدرة من أصل حيواني واحد ؟ ألايمكن أن يكون الفرق بين الإنسان وغيره من الحيوانات مثلا فرقا ناشئا من اختلاف الماهية لا من الإختلاف في الطور وإن تراءى بينهما بعض الشبه ؟

أما الداروينية الجديدة فقد اعتبرها البعض "نسخة مصححة" لما سبقها من آراء وأفكار في مذهب النشوء ، واعتبروها دليلا على بطلان ما سبق : "وهكذا فإن القول بالطفرة يحمل

في طواياه عوامل التدمير لفكرة التطور من أساسها" (1)

وصفوة القول أن نظرية التطور في أصل الإنسان لا تستند إلى براهين قطعية بل تقوم على فروض وتخمينات انطلقت من مخيلات القائلين بها متأثرين ببواعث سياسية وإلحادية ضد تعاليم الكنيسة التي وقفت موقف العداء الشديد فحجرت عليهم التفكير ومنعتهم من إبداء آرائهم ونشرها بين الناس ، وعاملت من خالف تعاليمها بقسوة وعنف فكان شبح المحاكم يملأ قلوبهم رعبا ، فلما ضعف سلطانها تنفسوا الصعداء وقاموا بنشر هذه الأفكار نكاية برجال الدين وإمعانا في إسقاط قيمتهم وإظهارهم للناس بمظهر الدجالين ، فصاغوا هذه الآراء والأفكار وأخرجوها في قوالب علمية ليخدعوا بها الناس ، وليأثروا على ضعاف العقول الذين يتلقون كل جديد دون تحقيق وتمحيص . (2)

وقد فرق بعض الباحثين المسلمين بين فكرة التطور ، والتدرج المتراصف بين الأجناس ، فقال :

" ... إن كل هذا الذي ذكرناه إنما يتعلق بفرضية تطور الإنسان ، بعد النشأة الأولى ، من فصيلة حيوانية إلى أخرى ، أما التدرج المتراصف والموجود في أصل التكوين بدءا من الجمادات إلى النبات إلى الحيوانات إلى الإنسان ، فتلك حقيقة ثابتة منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا" (3)

وقد تحدث عنها علماء المسلمين . (4)

إلا أن بعض المتأخرين عد كلام بعض المفكرين المسلمين عن هذا التدرج من قبيل القول بالتطور الذي قال به داروين وأصحابه . (5)

ولعل أهم قرينة يستند عليها مذهب التطور هو علم الأحافير والجيولوجيا ، أو ما يسمى علم "المستحاثات" .

---

1) البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ص 266 .

2) عبد الكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا . دار الفكر العربي ص 2 . 1971 ص 229 .

3) البوطي : نفس المرجع ص 270 .

4) انظر : ابن خلدون - المقدمة ص 47 ، 48 ، طبعة بولاق .

5) انظر العقاد : الإنسان في القرآن ص 83 - 84 - 85 .

ولكن ماذا يقول العلماء في "علم المستحاثات" .

إن الكثير منهم يصرح بأنها مزورة ومزيفة لا تعكس الحقيقة .

فهناك كثير من المستحاثات التي ليست في الواقع ، إلا أنواعا من الإنسان العاقل تعرض في الصور والمتاحف بأشكال حيوانات ، ولكن هذه الصور وهذه الهياكل العظيمة التي جمعت لا تمثل الحقيقة .

كتب العالم التطوري : "غرو كلارك" في كتابه "أدلة علم المستحاثات في تطور الإنسان" يقول :"لا يوجد جنسان تتميز صفات جمجمة الواحد عن الآخر مثل الجنس الأسود والإسكيمو، وقد لا يتفق الخبراء بشأنهما حينما يكونون أمام جمجمة من المفروض أن تكون لأحدهما ، فإذا كان يصعب البت بأمر التمييز بين هذين الجنسين فكم من الصعب - لا بل من المستحيل - التمييز بنثرات من الهيكل العظمي بين جماعات عرقية صغيرة علاماتها المميزة أقل ظهورا من هذين العرقين" (1) .

ويقال أن علماء التطور يستعينون بالعلم لكي يعطوا المستحاثات الأشكال التي كونوها في أفكارهم ، ويؤيد هذا القول ما نشرته جريدة "نيويورك تايمز" سنة 1959 ، حيث قالت : إن إنسان بيكين الذي مضى عليه 500 ألف سنة قد أعطي خلقة جديدة ليلعب دورا رئيسيا في فيلم وثائقي صيني ، وقد أعيد تركيب هذا الإنسان الذي هو إنسان ما قبل التاريخ لهذه الغاية وعرض الإنسان الجديد على العالم على اعتبار أنه أشبه بالإنسان القديم .

وليس هذا التزوير في الأمور العلمية هوالتزوير الوحيد ، بل بالإمكان ذكر أمثال كثيرة له ... مثال ذلك حينما أعلن الطبيب الهولندي "دوبوا" من سنتي 1891–1892أنه اكتشف إنسان جاوه أو(بيتكانتروب)، ماذا اكتشف ياترى ؟ نترك الجواب على هذا السؤال للموسوعة البريطانية التي أجابت بما يلي :"إن القطع العظيمة الخمس كانت من جمجمة تشبه جمجمة قرد كبير "كيبون" وعظم فخذ أيسر وثلاثة أضراس ، وقد اكتشفت هذه

---

1) نقلا عن : الدكتور إحسان حقي ، خلق لاتطور ، دار النفائس ، ط 3 - 1405 هـ / 1985 م ، ص 110 .

العظام بعيدة الواحدة عن الأخرى نحو عشرين خطوة ، واكتشفت قطعة من الفك الأيسر في مكان آخر من الجزيرة ، ولكن في طبقة أرضية من العمر ذاته"

فهل يمكن أن نصف العثور على هذه القطع ، التي وجدت الواحدة بعيدة عن الأخرى مسافة خمسة عشر مترا ، وأن نضيف إليها قطعة وجدت على بعد بضعة كليومترات بأنه اكتشاف علمي ، ثم أن ندعي بأن كل هذه القطع جاءت من إنسان من نوع واحد ؟ (1) ويعطينا العالم بالتطور "غروكلارك" مثلا آخر على التزوير ويقول :

من الخطأ الكبير أن يعتمد المرء في هذه الأمور على معطيات غير كافية ... وقضية سن الخنزير الشهيرة مثال على ذلك. وقصة ذلك هو أنه في سنة 1922 اكتشفت في "نبراسكا" سن قيل أنه سن قرد - إنسان انقرض .... وقد ثبت بعد ذلك أنه سن خنزير بري ... وليس من شك بأن هناك قليلا من العلماء الذين لم يرتكبوا مثل هذه الأخطاء خلال حياتهم العلمية" (2)

ومن كل هذا يبدو بوضوح بأن تفسير علماء التطور للمستحاثات وإعادة تركيب أجسام أجداد الإنسان ليست إلا مهازل علمية تقوم على أوهام وفرضيات ، وأن سلسلة التطور تنطوي على ثغرات كثيرة زمنية وجغرافية ، وعلم هيئة .

وتدل المعطيات العلمية الأكيدة على أن الإنسان لم ينحدر من الحيوان ، بل خلق حلقة إنسانية تختلف عن الحيوانات ، وأن هذا الإختلاف موجود منذ الأزل ، ويسيظل إلى الأبد ، وبسبب احتواء جسم الإنسان على الحمض الريبي النووي لا يستطيع أن يتلاقح مع أي حيوان ، بل يظل في نطاق جنسه تبعا لأحكام مولده ، هكذا كان ، وهكذا سيظل أبدا (3) .

5 ـ إيحاءات مذهب النشوء والتطور وأثره على العلوم الإنسانية

وبعد :

حتى وإن كان مذهب النشوء ، أو التطور محاولة علمية لم ترق إلى اليقين العلمي ، ولم

---

1) إحسان حقي : خلق لا تطور . ص 112 .
2) إحسان حقي : المرجع السابق ص 114 .
3) إحسان حقي : المرجع السابق ص 114 .

يجزم بعض القائلين بالتطور إنكار الخالق ، فقد كان لهذا المذهب ايحاءات استغلها الماديون والملحدون وفسروا على ضوئها كثيرا من الجوانب المتعلقة بالإنسان .

فالعلوم الإنسانية بمختلف فروعها تستند على هذا المذهب ، وقد قامت من وراء هذا المذهب فلسفة مادية بحتة ، لا تفرض مجالا لأي شيء خارج عن الأرض وعن المادة المحسوسة ، ومن هذه الفلسفة المادية نشأت كل النظريات الغربية الحديثة ، وكل الفلسفات المسيطرة عليها .

قال محمد قطب :"إن عيب نظرية داروين ليس في الواقائع العلمية التي بسطها في كتبه ، وتابعه فيها أعوانه ومريدوه ، وإنما هو في إيحاءات تلك النظرية التي خلفت طابعها الخطر ، لا في أفكار الجماهير وحدها ، بل في اتجاه العلماء كذلك منذ عهده إلى العصر الأخير" (1)

أعطت نظرية داروين إيحاءين متصاحبين :

1ـ الإحياء بالتطور الدائم الذي يلغي فكرة الثبات .

2ـ الإيحاء بحيوانية الإنسان ومادية بإرجاعه إلى الأصل الحيواني من ناحية ، وحصر القوى التي تؤثر فيه من ناحية أخرى بالقوى المادية في البيئة أو في الطبيعة ، وإغفال الجانب الروحي إغفالا تاما ، وإغفال تدخل الله في عملية الخلق أو عملية التطور علي السواء . (2)

ومن هذين الإيحاءين ـ أحدهما أو كليهما ـ أخذ العلماء الثلاثة : ماركس وفرويد ودركايم.

ماركس في ميدان الإقتصاد .

فرويد في ميدان علم النفس .

ودركايم في ميدان علم الإجتماع .

أما ماركس فيعتبر القوى المادية والإقتصادية العنصر الفعال في تاريخ البشرية أي أن

---

1) محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام . ط 3 ـ 1968 . ص 19 .

2) محمد قطب : التطور والثبات في حياة البشر دار الشروق ـ 1394 ـ 1974 . ص 39

العمليات الإجتماعية والسياسية والمعنوية ليست قائمة بذاتها وليست أصلية في الكيان البشري ، إنما هي انعكاس لأسلوب الإنتاج في الحياة المادية ، فالدين - في رأيه - خرافة أو خدعة ، والقيم مجرد انعكاس للوضع الإقتصادي ، ومن ثم تتطور بتطوره ، فحقيقة العالم تنحصر في ماديته ، ولا شيء وراء ذلك .

وهذا التفسير المادي للتاريخ ، أخذ به الغرب دون أن يعتنق الشيوعية كنظام :

أخذ به في إعطاء الجانب الإقتصادي الإهتمام الأكبر ، والميل إلى تفسير الحياة الإنسانية كلها من خلاله ، وإغفال القيم وأثرها في الحياة ، وأخذ به في اعتبار القيم الأخلاقية متطورة على أساس التطور الإقتصادي بصفة خاصة . وأخذ به في اعتبار الدين آخر ما يمكن أن يؤثر في الحياة . (1)

وبكلمة واحدة : اصطبغت الحياة في الغرب بصبغة التفسير المادي للتاريخ .

أما "فرويد" فقد أخذ من نظرية التطور حيوانية الإنسان ، وفسر على ضوئها النفس الإنسانية ، فالنفس الإنسانية عنده تنبع من جانب واحد من جوانب الحيوان ، وهو جانب الجنس المسيطر على كل أفعال الإنسان ، ويلتقي "فرويد" مع ماركس في تسفيه الدين والقيم والأخلاق وإعتبارها عوائق ، تؤدي إلى الكبت والعقد .

أما "دركايم" فلا يعترف بأن الكيان النفسي للفرد هو أساس الحياة الإجتماعية بل العكس في نظره هو الأقرب للصواب .

قل محمد قطب :"هكذا لا يعترف دركايم بأن الحياة البشرية - ذات الصفة الإجتماعية - يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردي إنما يفسرها وجود "العقل الجمعي" خارج نطاق الأفراد" (2)

ويصرح "دركايم" بأن الدين ليس شيئا فطريا ، وكذلك الزواج والأسرة ويعتقد أن القواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها :

---

1) محمد قطب : التطور والثبات في حياة البشر ، ص 43 .

2) محمد قطب : المرجع السابق ص 53 .

قال: "ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان"، وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء، وغير ذلك من العواطف وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان" (1)

"وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأي السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية في ذاتها، إذا صح هذا التعبير ... ومن ثم فليس من الممكن، تبعا لهذا الرأي، أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التي لا وجود لها في ذاتها موضوعا لعلم الأخلاق" (2)

وهكذا يتضح أن ايحاءات نظرية التطور قد اصطبغت بها جل أو كل العلوم الإنسانية، والتقت توجيهات هذه العلوم الإنسانية التي تشبعت بنظرية التطور في نقاط رئيسية متصلة ومتصاحبة : أهمها :

1- الحملة على الدين والأخلاق والقيم، ونفي القداسة عنها، والتشكيك في قيمتها.

2- القيام بهذه الحملة باسم العلم والبحث العلمي.

3- الربط بين هذا التحلل الديني والإنحلال الخلقي وبين "التطور"

4- والإيحاء بأن هذا التحلل والإنحلال أمر حتمي لأن التطور حتمي لا قبل لأحد بوقفه عن طريقه المحتوم (3).

- تلك هي - بايجاز شديد - تصورات الفكر الغربي اللاديني عن الإنسان بدءا من نشأته ومرورا بسلوكه ونشاطه الداخلي والخارجي، وانتهاء بالغاية من وجوده. لايخرج في ذلك كله في ظل هذا التصور الغربي - عن الحيوانية.

فما حقيقة الإنسان في القرآن الكريم ؟ ذلك ما تناوله في المبحث التالي :

---

1) إميل دركايم : قواعد المنهج في علم الإجتماع، ترجمة د. محمد قاسم - ط2 ص 173.

2) إميل دركايم :المرجع السابق. ص 59.

3) محمد قطب : التطور والثبات في حياة البشر، ص 176.

المبحث الثاني :
حقيقة الإنسان في القرآن الكريم .

1- الإنسان مخلوق من حيث الجنس من تراب ، متكاثر من حيث المصدر من الإنسان الأول آدم عليه السلام .

2- الإنسان مخلوق منذ النشأة الأولى في أتم مظهر وأحسن تقويم .

3- الإنسان نو طبيعة مزدوجة

4- أحوال الإنسان وأوصافه في القرآن الكريم ودلالات تلك الأوصاف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

حقيقة الإنسان في القرآن الكريم

حقائق قرآنية عن الإنسان :

المتأمل في القرآن الكريم يجده يقرر جملة من الحقائق الهامة عن الإنسان منها :

1 ـ الحقيقة الأولى :

الإنسان مخلوق من حيث الجنس من تراب ، ومتكاثر من حيث المصدر من الإنسان الأول آدم عليه السلام .

وهذه حقيقة هامة جدا ، فصلها القرآن تفصيلا ، وهي الحقيقة التي صار الناس إزاءها فريقين : فريق يرد أمر الخلق إلى الله عز وجل ، وهم المؤمنون . وفريق يرد الأمر إلى الطبيعة تارة وإلى الصدفة أخرى .

والبرهان على هذه الحقيقة نجده في الخبر الصادق ، وهو كلام الله عز وجل ، وكلام الرسول عليه الصلاة والسلام .

فأما أن الإنسان مخلوق من حيث الجنس من تراب فيدل على ذلك آيات كثيرة منها :

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فيكون » (1)

« يَا أَيها الناسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فإِنَّا خلقناكم من تراب » (2)

« ومن آياتِهِ أَنْ خَلَقكم مِن ترابٍ ثُمَّ إِذَا أنتم بَشَرٌ تنتشرون » (3)

« مِنْها خَلَقْناكم وفيها نُعِيدُكم ومنها نُخْرِجُكم تَارَةً أُخْرَى » (4)

« ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلَالةٍ من طينٍ ، ثُمَّ جعلناه نُطفةً فِي قرارٍ مكينٍ » (5)

« الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وبَدأَ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ » (6)

---

1) سورة آل عمران : الآية 58 .
2) سورة الحج : الآية 5
3) سورة الروم : الآية 20 .
4) سورة طه : الآية 55 .
5) سورة المؤمنون : الآية 12 ، 13
6) سورة السجدة : الآيتان 7 ـ 8 .

« وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (1)

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » (2)

« خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار » (3) .

فهذه الآيات تقرر أن آدم مخلوق من تراب الأرض : من التراب ، إلى الطين ، إلى الصلصال ، إلى الحمأ المسنون إلى الفخار ، ثم النفخ فيه من روح الله .

ومن السنة حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم :« إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن وبين ذلك والخبيث والطيب وبين ذلك .» (4)

وروى الترمذي والنسائي والبزار وصححه ابن حبان ، من طريق سعيد المقبري وغيره عن أبي هريرة مرفوعا :

« إن الله خلق آدم من تراب فجعله طينا ثم تركه ، حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره ثم تركه ، حتى إذا كان صلصالا كالفخار كان إبليس يمر به فيقول : لقد خلقت لأمر عظيم . ثم نفخ الله فيه من روحه ، وكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فقال : الحمد لله فقال الله : يرحمك ربك » (5)

وأما أنه متكاثر من آدم ، وأنه الإنسان الأول فقد دلت على ذلك آيات كثيرة منها :

قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء ...» (6)

---

1) سورة ص : الآيتان 71 ، 72 .

2) سورة الحجر : الآية 26 .

3) سورة الرحمن : الآيتان 14 ـ 15 .

4) رواه أبو داود والترمذي وابن حبان ، وقال الترمذي حسن صحيح ، وسكت عليه ابن كثير ، وذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ، باب خلق آدم ص 364 .

5) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم ص 364 .

6) النساء : الآية 1

قال ابن كثير في تفسير الآية :

« يقول الله تعالى آمرا خلقه بتقواه ، وهي عبادته وحده لا شريك له ، ومنبها لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة وهي آدم عليه السلام (وخلق منها زوجها) وهي حواء عليها السلام ...» (1)

ومنها تلك النداءات الالهية التي تكررت في سورة الأعراف :

« يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُم الشَّيطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِن الجنةِ ... » (2)

« يَا بَنِي آدَمَ قد أَنزلنا عليكم لِباسًا يُوارِي سَوْآتِكم وَرِيشًا ... » (3)

«يَا بَني آدَمَ خُذُوا زِينتكم عِند كُلّ مسجد ... » (4)

« يَا بَني آدَمَ إِمَّا يأتينكم رُسُلٌ منكم يَقُصّون عليكم آياتي ... » (5)

« وإذ أَخَذَ ربك مِن بني آدَمَ مِن ظهورهم ذُرِّيَاتِهم ...» (6)

وفي سورة الإسراء قال الله عز وجل :

"ولقد كرّمنا بني آدمَ وحَمَلْنَاهُم في البَرّ والبَحْرِ ... » (7)

وفي سورة يس قال الله عز وجل :

"ألم أَعْهَد إِليكم يَا بَني آدمَ ألاَّ تَعْبدوا الشيطانَ ...» (8)

وقال عز وجل :

« إن اللهَ اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية ، بعضها من بعض .

---

1) ابن كثير : التفسير ج 2 ص 196 .
2) سورة الأعراف : الآية 27 .
3) سورة الأعراف : الآية 26 .
4) سورة الأعراف : الآية 31 :
5) سورة الأعراف : الآية 35
6) سورة الأعراف : الآية 172
7) سورة الإسراء : الآية 70 .
8) سورة يس : الآية 60 .

والله سميع عليم » (1)

2 ـ الحقيقة الثانية :

الإنسان مخلوق منذ النشأة الأولى في أتم مظهر وأحسن تقويم .

قال الله سبحانه وتعالى :

(فَإذا سَوَّيْتُه ونَفَخْتُ فيه مِن روحي فَقَعُوا له ساجدين) (2)

(لقد خلقنا الإنسان في أَحْسَنِ تقويم) (3)

قال ابن كثير :

(... وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة ، سوي الأعضاء حسنها) (4)

وقال تعالى : (يَا أَيها الإنسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريمِ الذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاك فعدَّلَك) (5)

ومن مؤكدات هذه الحقيقة التي قررها القرآن ، ما روي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (خلق الله آدم على صورته)(6)

أي أنه منذ خلق إنما كانت صورته هي الصورة ذاتها التي استمر عليها وعرف بها ، أي لم ينشأ متنقلا من شكل إلى آخر . فالضمير في(صورته) راجع إلى آدم .

قال ابن حجر : (وهذه الرواية تؤيد قول من قال أن الضمير لآدم ، والمعنى أن الله تعالى أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقل في النشأة أحوالا ولا تردد في الأرحام أطوارا كذريته ، بل خلقه الله رجلا كاملا سويا من أول ما نفخ فيه الروح)(7)

---

1) سورة آل عمران : الآية 33 ـ 34 .
2) سورة ص : الآية 71 .
3) سورة التين : الآية 4 .
4) ابن كثير : التفسير ص 527 .
5) سورة الإنفطار : الآيتان 6 ـ 7 .
6) ابن حجر : فتح الباري ، باب خلق آدم وذريته ص 366 .
7) ابن حجر : فتح الباري ، ص 366 .

وإذا كان الأمر كذلك ، وجب أن نعلم بأن الإنسان لم يتنقل خلال تاريخه كله في أي تطور نوعي ، كأن يقال إنه ترقى من فصيلة إلى أخرى أو تدرج من مظهر نوعي في الهيئة والشكل إلى مظهر آخر .

فالقرآن أعلمنا أن الله خلق آدم خلقا مستقلا سويا متكاملاً ثم نفخ فيه من روحه .

فحديث القرآن عن أصل الإنسان حقيقة علمية قاطعة ، لأنه كلام الله عز وجل ، يتحدث بنفسه عن كيفية خلق الإنسان .

أما حديث (داروين) فهو ليس أكثر من نظرية وفرضية باعترافه هو ، وباتفاق سائر العلماء الآخرين سواء منهم من أيده أم خالفه .

« ومن ثم تبطل نظرية النشوء والإرتقاء التي تتبنى فرضية أخرى عن الإنسان ، وهي أنه تسلسل ضمن حلقات مختلفة من التطور النوعي ، تدرج فيها من البسيط إلى المعقد ، ومن البدائية إلى الرقي في كل من الشكل والفكر معا » (1)

3ـ الحقيقة الثالثة :

الإنسان نو طبيعة مزدوجة :

فيه القدرة على الإرتفاع إلى أقصى المدى ، والقدرة على الهبوط إلى الحضيض ، وهذا أمر بارز في الكيان البشري .

هذا الازدواج تفرد به الإنسان وحده فيما نعلم . فالحيوان والملك كلاهما نو طبيعة واحدة ووجهة واحدة .

وهذه الخصيصة التي تفرد بها الإنسان تجاهلتها الدراسات الغربية .

قال محمد قطب موضحا هذه الطبيعة الإنسانية :

« الحيوان حتى أعلى درجاته التي تشابه الإنسان في تركيبه الجثماني مخلوق نو

---

1) البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ص 253 .

طبيعة واحدة تتحدد بحدود الجسد والغرائز والتصرفات الغريزية ، جسمه هو مصدر طاقته ، وغرائزه هي الموجه له ، وتصرفاته هي عالمه بأكمله . (1)

« والملك من وصفه الذي نعرفه به ـ وإن كنا لا نراه ـ مخلوق نو طبيعة واحدة كذلك ونو اتجاه واحد . مخلوق يعيش في نطاق روحه ويطيع توجيهاتها بلا إرادة ذاتية ولا تصرف ذاتي ، فالملائكة مخلوقات مفطورة على الطاعة المطلقة » (2)

« لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » (3)

والإنسان فيما نعلم من الكائنات هو الكائن المزدوج الطبيعة القادر على أكثر من إتجاه.

(ولقد ذكر الإنسان في القرآن بغاية الحمد والذم في الآيات المتعددة وفي الآية الواحدة، فلا يعني ذلك أنه يحمد ويذم في آن واحد وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منها ، ولأنه أهل للتكليف) (4)

فالإنسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض من ذي حياة أو غير ذي حياة وهذا الازدواج هو طابع كيانه كله . وهو متغلغل في كل أعماقه ، فلا يوجد عمل ولا شعور ولا فكر ولا تصرف لا تبدو فيه هذه الظاهرة الفذة المتميزة .

إذًا : أبرز ميزة في الإنسان هي هذه الازدواجية : ازدواجية الجسم والروح (5)

« وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (6)

الإنسان قبضة من طين الأرض تتمثل في حقيقة الجسد : عضلاته ووشائجه وأعضائه

---

1) محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية . دار الشروق ط 1974 ص 41 .
2) محمد قطب : المرجع السابق ص 42 .
3) سورة التحريم : الآية 6 .
4) العقاد : الإنسان في القرآن ص 14 .
5) محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية ص 42 .
6) سورة ص : 71 ـ 72 .

وأحشائه ، وتتمثل في مطالب الجسد وألوان نشاطه . ونفخة من روح الله تتمثل في الجانب الروحي ، تتمثل في الوعي والإدراك والإرادة ، وتتمثل في القيم والمعنويات التي يمارسها الإنسان . وهذان اللونان من النشاط البشرى حقيقة واضحة ولكنهما ليس منفصلين يعمل كل منهما وحده في اتجاه ، بل إنهما مختلطان ممتزجان مترابطان يتكون منهما كيان موحد مختلط الصفات أو مزدوج الصفات . وينبني على هذه الحقيقة أن الإنسان في حالته السوية يؤدي نشاطه الجثماني على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان ويؤدي نشاطه الروحي على طريقة الإنسان كذلك لا على طريقة الملائكة .(1)

فعلى سبيل المثال : الإنسان يأكل ، وتلك عملية مشتركة بينه وبين الحيوان ، ولكن الإنسان لا يأكل على طريقة الحيوان . وأبرز وجوه الإختلاف أن الإنسان يختار سلوكه نحو الطعام .

ويستجيب الإنسان لدافع الجنس ، وهو نفس الدافع العنيف الملح الذي يستجيب له الحيوان ، ولكن كما يختار الإنسان سلوكه نحو الطعام ، فهو كذلك يختار سلوكه نحو الجنس ويملك نطاقا واسعا للإختيار .

وقل مثل ذلك في كل الدوافع المشتركة بين الإنسان والحيوان .

ومع كل ما تقدم فالإنسان كيان موحد برغم ما في طبيعته هذه من ازدواج (2)

ومن مظاهر الازدواج في الكيان الإنساني تلك (الخطوط المتقابلة) (3) في النفس البشرية : الخوف والرجاء ، والحب والكره ، والإتجاه إلى الواقع والإتجاه إلى الخيال ، والطاقة الحسية والطاقة المعنوية ، والإيمان بما تدركه الحواس ، وبما لا تدركه الحواس ، وحب الإلتزام والميل إلى التطوع ، الفردية والجماعية ، السلبية والإيجابية ... إلى آخر ما هنالك من الخطوط المتقابلة في الكيان البشري الموحد .

---

1) محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية بتصرف . ص 44 .
2) محمد قطب : المرجع السابق ص 46 ـ 47 .
3) محمد قطب : المرجع السابق ص 71 .

ولقد فصل محمد قطب القول في هذه المسألة في كتابه : " دراسات في النفس الإنسانية " وتوصل إلى نتيجة خلاصتها أن هذه (الخطوط المتقابلة) تؤدي مجتمعة مهمة معينة في حياة الإنسان ، واعتبرها بمثابة (الأعصاب) في الجسم والتي تنقل الحس إلى جميع أجزاء الجسم فيحس الإنسان بكل شيئ يقع في نطاق حسه ، ويدرك عن هذا الطريق كل ما يحتاج إلى إدراكه . ومهمة هذه الخطوط المتقابلة - كما وصفها - هي إعطاء سعة عظيمة للنفس الإنسانية . هذه السعة النفسية الفريدة هي التي تعطي الحياة البشرية تلك السعة والتنويع اللذين تتميز بهما حياة الإنسان عن غيره من المخلوقات .

والمهمة الثانية لهذه الخطوط المتقابلة هي (إنشاء روابط متعددة بين الإنسان والحياة).(1)

إن الخالق سبحانه وتعالى قد شاء للإنسان أن يرتبط بالحياة بأكثر من رباط ، وبذلك تتعمق الصلات بين الإنسان والحياة ، وبين الإنسان والكون ، وتكون هذه الصلات العميقة الوثيقة أداة من أدوات الخلافة في الأرض . إذ ينبغي أن تكون الصلات عميقة جدا ومتعددة ومرتبطة بأوثق الحبال وأمتنها ، لكي يستطيع الإنسان أن يقاوم العقبات الكثيرة في طريقه ، وينتصر في معركة الكدح الدائم الذي يمثل الحياة : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » (2)

أما المهمة الكبرى الملحوظة في تقابل الخطوط على جانبي النفس ، فهي (إنشاء التوازن في كيان الإنسان) (3)

وهناك حقيقة أخري في النفس الإنسانية وهي أنها تشتمل على وجود طاقتين مختلفتين : (طاقة دافعة تحرك الإنسان في شتي اتجاهاته ، وطاقة ضابطة تضبط حركة الاندفاع)(4) . وكلتا الطاقتين من صميم الفطرة ، ليست إحداهما أصلية والأخرى مفروضة عليها من الخارج كما يرى علم النفس التحليلي الذي ينظر بطبيعة منهجه إلى الدوافع

---

1) محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية ، فصل خطوط متقابلة في النفس البشرية . ص

2) سورة الإنشقاق : الآية 6

3) محمد قطب : المرجع السابق . ص

4) محمد قطب : المرجع السابق . ص

المحركة ، ويكره الضوابط التي تحد الاندفاع .

ليس المجتمع أو الدين والأخلاق والتقاليد ، أو دكتاتورية الأب ـ كما يحلو للبعض تسميتها ـ هي التي تنشئ الضوابط في نفس الإنسان . إنها استعداد فطري يولد مع الطفل ، ولكنه يكون كامنا كما تكون الرؤية كامنة في جهاز الإبصار في الأيام الأولى ثم تنضج فطريا بعد قليل . كما تكون الحركة كامنة في عضلات الجسم والأطراف في الأيام والشهور الأولى لم تكتمل بعد ، فالطفل يحتاج إلى معونة خارجية لمساعدة هذه الطاقة الكامنة في الظهور ، ولكنها في النهاية تظهر .

(وكذلك التوجيه والتهذيب والرعاية تنضج القوة الضابطة في كيان الطفل ، وتساعدها من الخارج على استكمال نموها . ولكنها لا تنشئها من لا شيء ، كما أن المساعدة ليست هي التي تنشئ حركة المشي من لا شيء) (1)

ووجود الضوابط في داخل النفس مع الدوافع لا يزيد على أن يكون مظهر من مظاهر الازدواج في الكيان البشري .

زود الله الإنسان بدوافع تعمل مع الضوابط ، والدافع الأكبر في الكيان البشري هو حب الحياة والاستمتاع بها وهو المحرك الأكبر لما يصدر عنه من نشاط (وهذا الدافع الأكبر يشمل فرعين رئيسيين فطريين هما حفظ الذات وحفظ النوع ثم تتفرع عن كل منها أو عنهما معا فروع أخرى) (2)

وكل تفسير للنفس الإنسانية بدافع واحد من دوافع الحياة هو تفسير ناقص قصير محدود الرؤية ، فالتفسير الجنسي للسلوك البشري الذي قال به فرويد ، والتفسير المادي الذي يقول إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام والذي قال به ماركس وانجلز ، والتفسير السيكولوجي الجزئي الذي يقول إن رغبة البروز هي الدافع الأصيل للإنسان

---

1) محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية ص 163 .

2) محمد قطب : المرجع السابق ص 163 ومابعدها .

سواء في صورة التفوق كما أدلى بها « أدلر » أو الشعور بالنقص ومحاولة التعويض كما صرح بها (يونج) تلميذ فرويد (1) (كل هذه التفسيرات ترتكب خطأ رئيسا فاضحا ، هو أخذ جانب واحد من الإنسان ، والقول بأن هذا الجانب هو الإنسان ، وكذلك كل تفسير يأخذ في حسابه الدوافع وحدها ولا يأخذ القوة الضابطة بعين الاعتبار) (2)

ولتوضيح هذه النقطة الأخيرة نسأل : هل كان يصلح لأن يكون خليفة بالدوافع التي أشرنا إليها من قبل دون ضوابط ؟

أليست هي ذاتها دوافع الحيوان ؟

كلا لا يصلح بتلك الدوافع وحدها ، لا بد من صمام يناسب طبيعة الإنسان . ومن ثم كانت الضوابط في كيان الإنسان ، وهي قوة فطرية تولد مع الإنسان ، تولد كامنة في كيانه ، ولا تصنعها القوى الخارجية أبدا كما يزعم « فرويد » وأصحابه (وبرهان ذلك أن الضغط الخارجي لا يمكن أن ينشئ في كيان الإنسان شيئا ما لم يكن هناك استعداد فطري للإستجابة إليه) (3)

فالجوع مثلا جزء من كيان الإنسان ولا يمكن بأي نوع من أنواع الضغط الخارجي إنشاء إنسان لا يجوع . وقد يتعود الإنسان بالضغط الخارجي أو الذاتي أن يمتنع عن الطعام فترة من الوقت (الصيام مثلا) لأن هذا موجود في فطرته ، ولكن لا يمكن أن يمتنع البتة عن الطعام مهما أغري أو مهما اشتد الضغط عليه ، لأن هذا ليس من فطرته.

(وهكذا لا يمكن أن ينشئ الضغط الخارجي شيئا غير موجود بالفعل ولا يمكن أن يزيل إزالة تامة شيئا موجودا بالفعل) (4)

فالضوابط لا ينشئها الضغط الخارجي ولا التوجيه والتهذيب ، وإنما يمكن فقط تنميتها ، والتنمية غير الإنشاء .

---

1) محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية ص 171 .
2) محمد قطب : المرجع السابق ص 172 .
3) محمد قطب : المرجع السابق ص 173 .
4) محمد قطب : المرجع السابق ص 175 .

(وكما يعمل الإنسان بكيانه المتكامل في كل نشاط يصدر عنه ، فكذلك تعمل الدوافع والضوابط معا في ذات الوقت) (1)

وهذا الكيان المتجمع من الدوافع والضوابط الإرادية هو الذي يجعل حياة الإنسان تفترق عن حياة الحيوان الذي لا يعرف الضوابط الإرادية .

وهذا الكيان المتجمع من الدوافع والضوابط معا هو الذي يسمح بوجود غاية للحياة الإنسانية ، وهو الذي يجعل حب الحياة عند الإنسان تتبدى في ألوان وأشكال تختلف عن حب الكائنات الأخرى للحياة . (حب الذات هدف كل كائن حي ، يؤديه بدافع الغريزة ، ولكن الإنسان يضيف إليه الوعي والإدراك ، فيصبح شيئا آخر غير حفظ الحيوان لذاته ، يختلف عنه في الطريقة وفي الهدف) (2)

فالحيوان يأكل ويشرب ويتقي البرد والحر . ويتخذ المأوى ويقاتل ويحب الغلبة والبروز . والإنسان كذلك يأكل ويشرب ويتقي البرد والحر ويقاتل ويحب الغلبة والبروز ، ولكن هذه الدوافع عند الإنسان تختلف عما هي عليه عند الحيوان . ولعل أهم وجوه الاختلاف تنحصر فيما يلي :(3)

1 ـ سعة المجال وتعدد الطرائق :

فالإنسان يملك سعة في اختيار الطعام وله قابلية في تنويعه وفي الطرق التي يتم بها .

2 ـ الإنسان هو الذي يحدد بنفسه حد الإكتفاء .

فلا يوجد ضابط غريزي ـ كما هو عند الحيوان ـ يجعله يتوقف . بل يوجد ضابط مدرك واع مريد متصرف يستطيع أن يحدد مكان التوقف .

3 ـ والاختلاف الثالث هو : أنه لا يأخذ الأمور على حالتها الخامة إنما يصنعها . ففي مجال الطعام لا يتناول الإنسان طعامه ، كما هو ، بل يتدخل بالصنعة في إعداده وتنويعه.

---

1) محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية ص 181 .
2) محمد قطب :المرجع السابق ص 183 .
3) محمد قطب :المرجع السابق ص 183 ـ 185 .

4 ـ والاختلاف الرابع : أنه لم يتخذ سلوكا واحدا تجاه الشيء المراد .

فإذا أخذنا الطعام دائما ـ كمثال ـ نجد الأفراد مختلفين في سلوكهم نحو الطعام ، بل يختلف الفرد الواحد ما بين مرة ومرة ، وبين حالة وحالة ، فهو تارة يأكل طعامه نهشا وتارة مستأن ، وتارة متأنق ، فيأكل بأدوات أنيقة ...

5 ـ والاختلاف الخامس :

وجود هدف ثم اختلاف هذا الهدف بين فرد وفرد ، واختلافه في الفرد الواحد بين حالة وحالة ...

6 ـ والاختلاف السادس : أنه لا يحس بالقهر الكامل إزاء الضرورة ، فهو يملك بقدر أن يستجيب أو لا يستجيب ، وأن يختار طريقه الاستجابة وينظمها .

وهكذا يصنع في بقية الدوافع : جنس ، تملك ، حب البروز ، سيطرة .... الخ

بهذه الدوافع والضوابط التي تعمل معا ، والتي هي من صميم الفطرة وليست بخارجة عنها ، كان الإنسان هو الإنسان ، وحياته هي حياة الإنسان لا الحيوان . (فطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعملون » .

فالقيود التي يفرضها الإسلام هي قيود من الفطرة ذاتها ، فهو حين يكف الطاقات الإنسانية دون إسراف ، يقيها العطب والتلف ، ويتناسق في هذا مع الفطرة ويلبيها » (1)

وكان الإنسان بكل خصائصه كائنا فذا متفردا في هذا الكون ، كان فذا في طبيعته وتركيبه ، فذا في وظيفته وغايته ، وفذا في مآله ومصيره .

وفوق أن الله أودع في الإنسان ما جعله متميزا عن سائر المخلوقات ، فقد اعتنى به عناية أخرى تضمن له ـ إن هو أصغى إليها واتبعها ـ أن يظل إنسانا سويا ، يسعد ولا يشقى ، وهذه العناية الربانية تتمثل في ارسال الرسل وانزال الكتب . قال الله سبحانه وتعالى:

---

1) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي ص 370.

(وَما كُنّا مُعذّبين حتى نَبعثَ رَسُولاً) (1)

(وَمَا كَانَ رَبُّك مهلك القُرَى حتى يبّعث فِي أُمِّها رَسُولاً يتلُو عليهم آياتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكي القُرَى إلاّ وأَهْلُها ظالِمون) (2)

(وَما كان اللهُ ليضلَّ قومًا بَعْد إذْ هَداهم حتى يبينَ لهم ما يتقون) (3)

(رُسُلاً مُبشّرين ومُنْذِرين لِئلا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلى اللهِ حجةٌ بَعْدَ الرسلِ وكان الله عزيزا حكيما) (4)

قال سيد قطب رحمه الله :

« ... وتقف أمام عظمة العدل الذي يرتب للناس حجة على الله سبحانه ـ لو لم يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ـ هذا مع احتشاد كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون بالآيات الشواهد على الخالق ، ووحدانيته وتدبيره وتقديره وقدرته وعلمه ، ومع امتلاء الفطرة بالأشواق والهواتف إلى الاتصال ببارئها والإذعان له ، والتناسق والتجاوب بينها وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس .. ومع هبة العقل الذي يملك أن يحصي الشواهد ويستنبط النتائج .. ولكن الله سبحانه ، بما علم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلها ، فتعطلها ، أو تفسدها أو تطمسها ، أو تدخل في حكمها الخطأ والشطط ، فقد أعفى الناس من حجة الكون وحجة الفطرة وحجة العقل ، ما لم يرسل إليهم الرسل ليستنقذوا هذه الأجهزة كلها مما قد يرين عليها ، وليضبطوا بموازين الحق الإلهي الممثل في هذه الرسالة ، هذه الأجهزة فتصح أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي .. وعندئذ فقط يلزمها الاقرار والطاعة والإتباع ، أو تسقط حجتها وتستحق العقاب »(5)

---

1) سورة الإسراء : الآية 15 .

2) سورة القصص : الآية 59 .

3) سورة التوبة : الآية 115 .

4) سورة النساء : الآية 164 .

5) سيد قطب : الظلال ، ج السادس ، ص 810 ـ 811 .

ففي هذا منتهى العدل والرحمة الإلهية بالعباد . فقد قدر الله سبحانه ألا يحاسب العباد على عهد الفطرة الذي أخذه منهم وهم في الأصلاب ، حتي يرسل إليهم الرسل ويفصل لهم الآيات . قال سيد قطب رحمه الله : « ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقول تكفي وحدها للهدي دون رسل ولا رسالات ، ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله عباده بها ، ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هي الرسالة » (1)

فالقرآن الكريم هو وحده الذي يقدم لنا التصور الصحيح عن الإنسان ، وعن النفس الإنسانية : بدءا بالنشأة الأولى إلى النشأة الآخرة وما بينهما . فالذي " خلق فسوى " و" قدر فهدى " ، ويعلم ما توسوس به النفس البشرية هو وحده الذي نأخذ منه كل ما يتعلق بالإنسان :

أصلا ونشأة ، وتكوينا ، ومكانه وغايه ، ومالا ومصيرا (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (2)

4 ـ أحوال الإنسان وأوصافه في القرآن الكريم :

حديث القرآن عن الإنسان حديث العارف المحيط بكل دقائقه وبكل خصائصه النفسية والخلقية ، فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن من الحديث عن خصيصة من خصائص الإنسان ، ولا غرابة في ذلك ، لأنه كلام الذي خلق الإنسان (ويعلم ما توسوس به نفسه) . وقد رسم القرآن صورا شتى للإنسان في شتي نماذجه وشتى حالاته واستجاباته ، وأبرز قيمة الإيمان في تكييف وتقويم وضبط استعداداته وسلوكاته .

وحين قمت بجرد الآيات القرآنية الكريمة التي تذكر الإنسان ، تحصلت على الآتي :

1 ـ تقرير ضعف الإنسان .

قال الله سبحانه وتعالى :

---

1) سيد قطب : الظلال ج التاسع ص 1396 .

2) سورة الملك : الآية 14 .

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » (1)

قال ابن كثير في تفسير الآية :

« أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما قدره لكم . (وخلق الإنسان ضعيفا) فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهمته » (2)

وقال سيد قطب :

« ... فأما في هذا المجال الذي تستهدفه الآيات السابقة وما فيها من تشريعات وأحكام وتوجيهات ، فإرادة التخفيف واضحة تتمثل بالإعترافات بدوافع الفطرة دون أن يكلف الله عباده عنتا في كبتها حتى المشقة والفتنة ودون أن يطلقهم كذلك ينحدرون في الاستجابة لها بغير حد ولاقيد . وأما في المجال العام الذي يمثله المنهج الإلهي لحياة البشر كلها ، فإرادة التخفيف تبدو كذلك واضحة ، بمراعاة فطرة الإنسان وطاقاته وحاجاته الحقيقية »(3)

ومن مظاهر ضعف الإنسان خضوعه للإغراء والشهوات ، وجهله بأمر نفسه ومستقبله ومصيره ، إن ترك وحده .

ويتجلى ضعف الإنسان وخضوعه للإغراء والشهوات ، في قصة آدم مع الشيطان ، كما عرضتها سورة طه ، وغيرها .

قال الله سبحانه وتعالى :

« ولقد عَهدنا إلي آدمَ من قبلُ ، فَنَسِي ولم نجْد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدُوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليسَ أَبَى ، فَقُلنا يَا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لكَ ولزَوْجِك فَلا يُخْرِجَنَّكما من الجنةِ ، فَتَشْقَى إِنَّ لك أَلاَّ تَجُوعَ فِيها ولا تَعْرَى ، وأنك لا تَظْمأُ فيها ولا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إليه الشيطانُ قال يا آدمُ هَلْ أَدلك على شجرةِ الخلدِ ومُلْكٍ لا يَبْلى فأكلا منها فَبَدَت لهما

1) سورة النساء : الآية 28 .

2) ابن كثير التفسير ، ص 252 .

3) سيد قطب : ظلال القرآن ، المجلد الثاني ، الجزء الخامس ص 632

سَوْآتُهما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهما مِن ورقِ الجنة، وعصى آدمُ ربَّه فغوى ، ثُم اجْتَبَاه ربُّه فتابَ عليه وَهدى ، قال اِهْبطا منها جميعا ، بعضكم لبعْضٍ عَدُوٌّ ، فإمَّا يأتينكم مِنّي هُدًى فَمَن اتّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ، وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكري فَإنَّ لَهُ مَعِيشةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُه، يومَ القيامةِ أَعْمى قال رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ، قَال كَذلك أَتتك آياتُنا فَنَسِيتَها وَكذلك اليوم تُنْسَى ، وكذلك نَجْزِي مَن أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بآياتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذابُ الآخرةِ أَشَدُّ وأَبْقَى » (1)

ومن وراء تقرير ضعف الإنسان ، تقرير حقيقة هامة جدا ،هي أنه " الإنسان " لا يمكنه بضعفه وجهالته وهواه ، أن يتولى وضع منهج لحياته بنفسه ، وإن فعل تكون النتائج وخيمة ، وهذا ما صرحت به الآيات السالفة الذكر من سورة طه . وفي قوله تعالى : « وَلَوْ اتَّبَعَ الحقُّ أَهْوَاءَهُم لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ والأرضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » (2)

2ـ وصف القرآن للإنسان بالهلع والجزع والمنع

قال سبحانه وتعالى :

« إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزُوعًا وإذا مَسَّه الخيرُ مَنُوعا إلاّ المصلين »(3)

وهذا من مظاهر ضعف الإنسان وافتقاره إلى الله . فقد استثنت الآيات من هذا الهلع والجزع والمنع ، من ربط نفسه بالله عز وجل فالإنسان يكون في أحسن حالاته وأقومها حين يكون في حالات الإيمان ، فهو حينئذ يكون إيجابيا لذاته ولغيره .

3 ـ الإنسان خاسر إذا لم يستجب لله .

قال الله تعالى :« وَالْعَصْرِ إنالإنسانَ لَفِي خُسْرٍ إلا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وَتَواصَوْا بالحقِّ وتَواصَوْا بِالصَّبْرِ » (4)

---

1) سورة طه : الآيات 115 ـ 127 .

2) سورة المؤمنون : الآية 71 .

3) سورة المعارج : الآيات 19 ـ 22 .

4) سورة العصر

قال ابن كثير :

« أقسم الله تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر أي خسارة وهلاك . واستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم »(1)

قال الشافعي رحمه الله : « لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

قال سيد قطب :

« الحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السور بمجموعها هي هذه : إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار ، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار ، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح ، وطريق واحد ناجح ، هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه ، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار ...» (2)

ـ وصف القرآن للإنسان باليأس والعجلة .

قال الله سبحانه وتعالى :

« وَلَئِن أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ » (3)

وقال تعالى :

« وَكَانَ الإِنسانُ عَجُولا » (4)

« خُلِقَ الإنسانُ مِن عَجَلٍ سَأُرِيكم آياتِي فَلَا تَسْتَعْجِلون » (5)

قال ابن كثير :

« يخبر الله تعالي عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان علي نفسه أو ولده أو ماله بالشر . . وقد ذكر سلمان الفارسي وابن كثير وابن عباس هاهنا قصة آدم حين هم بالنهوض قائما قبل أن تصل الروح إلي رجليه ، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه ،

---

1) ابن كثير : التفسير ص 574 .

2) سيد قطب : في ظلال القرآن المجلد السادس ـ الجزء الثلاثون . 39(.

3) سورة هود : الآية 9 .

4) سورة الإسراء : الآية 11 .

5) سورة الأنبياء : الآية 37 .

فلما وصلت إلي دماغه عطس فقال : الحمد لله فقال الله : يرحمك ربك يا آدم ، فلما وصلت إلى عينيه فتحهما ، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه ، فهم بالنهوض قبل أن تصل إلي رجليه فلم يستطع ... » (1)

ثم قال والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الإنتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى : (خلق الإنسان من عجل) لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ... » (2)

« ... فالعجلة في طبعه وتكوينه . وهو يمد ببصره دائما إلي ما وراء اللحظة الحاضرة يريد ليتناوله بيده ، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله ، ويريد أن يستحضر كل ما يوعد به ولو كان في ذلك ضرره وإيذاؤه . ذلك إلا أن يتصل بالله فيثبت ويطمئن ، ويكل الأمر لله فلا يتعجل قضاءه » (3)

5 ـ وصف القرآن للإنسان بالتقتير :

قال الله تعالي :

« قُلْ لَوْ أَنتُم تَملكون خَزَائِنَ رَحْمَةَ ربي إِذًا لَأَمْسَكْتُم خَشْيَةَ الإنفاقِ وكَانَ الإنسانُ قَتُورًا »(4)

6 ـ وصف القرآن للإنسان بالكفر والظلم .

قال الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّار » (5)

---

1) ابن كثير : التفسير ، ص 283 .
2) ابن كثير : التفسير ص 563 .
3) سيد قطب : في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ـ الجزء السابع عشر ـ ص 2379 .
4) سورة الإسراء الآية 100
5) سورة إبراهيم : الآية 34 .

« فَلَمَّا نَجَّاكم إلي البر أَعْرَضْتمُ وكَانَ الإِنسانُ كَفُورًا » (1)

« إِنَّ الإنسانَ لَكَفُور » (2)

« وإنا إذا أذقنا الإنسانَ مِنّا رحمةً فرحَ بها وإِنْ تُصِبْهُم سيئةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيديهم فإ ن الإنسانَ كَفُور » (3)

« إِنَّ الإنسانَ لَكفورٌ مُبين » (4)

« قُتِل الإنسانُ مَا أكفره » (5)

فكل هذه الآيات تكرر فيها نسبة الكفر للإنسان بصيغ تدل على المبالغة ، وبأسلوب التوكيد تارة بإن ، وتارة باللام .

والكفر في معناه اللغوي الستر والتغطية . فالإنسان بهذا كثيرا ما يغطي الحق ويجحد نعم الله عليه .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى (وكان الإنسان كفورا) : « أي سجيته هذا ، ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله » (6)

7 ـ وصف القرآن للإنسان بأنه يطغى ويفجر

قال الله عز وجل : « كلا إنَّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » (7)

« بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ ليفجرَ أَمَامَه » (8)

---

1) سورة الإسراء : الآية 67 .
2) سورة الحج : الآية 66 .
3) سورة الشورى الآية 48 .
4) سورة الزخرف : الآية 15 .
5) سورة عبس : الآية 17 .
6) ابن كثير : التفسير ص 327 .
7) سورة العلق : الآية 6ـ 7 .
8) سورة القيامة الآية 5 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قال ابن كثير : «يخبر تعالى عن الإنسان أنه نو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله »(1)

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى (ليفجر أمامه) : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هو الكافر يكذب بيوم الحساب » (2)

8 ـ وصف القرآن للإنسان بأنه يحب الجدل :

قال الله عز وجل : « ... وكان الإنسان أكثر شيئا جدلا » (3)

وقال : «ويقول الإنسان أإذا مت لسوف أخرج حيا، أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (4)

قال ابن كثير : « ... يقول الله تعالى ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . »

ثم ذكر الحديث « قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري ، أخبرني علي بن الحسين بن علي أخبره أن علي بن أبي طالب أخبره أن الرسول صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله ليلة فقال : ألا تصليان ؟ فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئا ، ثم سمعته يقول وهو مول يضرب فخده ويقول (وكان الإنسان أكثر شيئا جدلا) ، أخرجاه في الصحيحين » (5)

---

1) ابن كثير : التفسير ص 527 .
2) ابن كثير : التفسير ص 448 .
3) الكهف 54 .
4) مريم : 66 ـ 67 .
5) ابن كثير : التفسير ج 4 ص 400 .

9 ـ وصف القرآن للإنسان بأنه خصيم :

قال الله سبحانه وتعالى :

« أولم ير الإنسانُ أنّا خلقناهُ من نطفةٍ فإذا هُو خَصِيم مُبين » (1)

« خَلَقَ الإنسانَ من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين » (2)

قال ابن كثير :

« ... ثم نبه إلى خلق جنس الإنسان من نطفة أي مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبدا لا ضدا » (3)

وقال سيد قطب :

« ... يا لها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير بين النطفة السائجة والإنسان المخاصم المجادل الذي يخاصم خالقه فيكفر به ويجادل في وجوده أو في وحدانيته ، وليس بين مبدئه من نطفة ومصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهلة . فهكذا يصوره التعبير ويختصر المسافة بين المبدأ والمصير ، لتبدو المفارقة كاملة والنقلة بعيدة . ويقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين مشهد النطفة السائجة ، ومشهد الإنسان الخصيم المبين .. وهذا إيجاز مقصود في التصوير » (4)

10 ـ تقرير القرآن أن الإنسان خلق للإبتلاء .

يؤكد القرآن أن الإنسان ـ فردا وجماعة ـ مبتلى في هذه الأرض بالحياة والموت ، والخير والشر ، والسراء والضراء والعطاء والحرمان ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والنصر والهزيمة ، والسعة والضيق ، والغنى والفقر ... ومجازى على استجاباته كلها ، ومطالب بأن تكون هذه الاستجابات وفق ما بين الله له ، وذلك بتحكيم شريعة الله ومنهجه

---

1) سورة يس : الآية 77

2) سورة النحل : الآية 4 .

3) ابن كثير : التفسير ص 180 .

4) سيد قطب : الظلال ، المجلد الرابع ـ الجزء الرابع عشر ص 2160 .

في نشاطه كله . ويمكن تصنيف الإبتلاء إلى صنفين :

أحدهما : يأتي بمعني القيام بالتكاليف التي تكون ثمارها العمل الأحسن وهذا ما تصرح به الآيات الكريمة :

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » (1)

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (2)

فخلق الموت والحياة إنما جاء لابتلاء بني آدم أيهم أحسن عملا ، وكذا ما على الأرض من زينة .

وثانيهما : يأتي بمعنى الكشف عن مواقف الجماعة البشرية والتعرف على أصالة المؤمنين وثباتهم .

وكأن هذا الإبتلاء من سنن الله في الاختبار والتمحيص . وتتجسد هذه الحقيقة في آيات كثيرة منها :

« ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (3)

« ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ... » (4)

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » (5)

« ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون » (6)

« أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا

---

1) سورة الملك : الآية 2 .
2) سورة الكهف : الآية 7 .
3) العنكبوت : 1 ـ 2 .
4) سورة محمد : الآية 4
5) سورة محمد : الآية 31 .
6) سورة الأنفال : الآية 37 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون » (1)

« ولنبلونكم بشيئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين » (2)

« إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » (3)

ومن سنن الله في الإبتلاء سنة (التدافع) التي بها تصلح الحياة على الأرض ، وبغيرها تفسد :

قال الله سبحانه وتعالى :

« ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين» (4)

« ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » (5)

11 ـ ومن الإبتلاء أن جعل الله للإنسان عدوا مبينا أخذ العهد على نفسه أن يزين لبني آدم في الأرض (قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » (6)

وصمم أن يقعد لهم صراط الله المستقيم : « قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد

---

1) سورة التوبة : الآية 16 .
2) البقرة : الآية 154 .
3) سورة آل عمران : الآيتان 140 ـ 141 .
4) سورة البقرة : الآية 249 .
5) سورة الحج : الآية 38 .
6) الحجر : الآيتان 39 ـ 40 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أكثرهم شاكرين » (1)

فالمعركة بين الشيطان والإنسان معركة شاملة وواسعة ومتشابكة . وهي من الإبتلاء الفعال الذي يؤدي إلى الحركة واليقظة المستمرتين .

وهذه مجموعة من الآيات تقرر فيها بوضوح عداوة الشيطان للإنسان :

تقرير القرآن أن للإنسان عدوا هو الشيطان :

قال الله عز وجل :

« إنّ الشيطان للإنسان عدوّ مبين » (2)

« إنّ الشيطان كان للإنسانِ عدوّا مبينا » (3)

« وكان الشيطانُ للإنسانِ خذولا »(4)

« كمثل الشّيطان إذ قال للإنسان أكفر فلمّا كفر قال إنّي بريءٌ منك » (5)

والآيات التي تدل على عداوة الشيطان للإنسان كثيرة جدا وقد حذر الله بني آدم منه :

« ألمْ أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدوّ مبين » (6).

« ولقد أضلّ منكم جبلاً كثيرا أفلمْ تكونوا تعقلون » (7)

« يا بني آدم لا يفتننكم الشّيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ..» (8)

بقي أن أقول : ما هو الجامع بين هذه الآيات التي تذكر ضعف الإنسان وكفره ،

---

1) الأعراف : الآيتان 15 ـ 16

2) سورة يوسف : الآية 5 .

3) سورة الإسراء : الآية 53 .

4) سورة الفرقان : الآية 29 .

5) سورة الحشر : الآية 16 .

6) سورة يس : الآية 59

7) سورة يس : الآية 61

8) سورة الأعراف : 27 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وجحوده ، ويأسه وعجلته ، وهلعه وجزعه وتقتيره وطغيانه وفجوره ، وجداله وخصومته ، وكونه للإبتلاء ومعرضا للخسران ، وله عدو يتربص به ؟

أقول ـ والله أعلم ـ :

ذكر القرآن كل ذلك ليقرر حقيقة وهي أن الإنسان لا يقوم وحده ، بل لا بد له من شرع ينظم حياته ويضبط نوازعه .

ولن يكون هذا الشرع إلا شرع الذي خلق فقدر ، وعلم سر هذا الإنسان وخصائصه .

فإذا ترك الإنسان لهواه ضل وشقى ، وأفسد في الأرض وطغى . وأهلك الحرث والنسل . وتلك نتائج ظاهرة في الحضارة الإنسانية البعيدة عن منهج الله .

4ـ وتحدث القرآن عن إحاطة الله التامة بالإنسان :

قال الله عز جل :

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (1)

« أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوي بنانه » (2)

« ينبأ الإنسان يومئذ ما قدم وأخر » (3)

« بل الإنسان على نفسه بصيرة » (4)

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى » (5)

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » (6)

« إنه على رجعه لقادر » (7)

---

1) سورة ق : الآية 16 .
2) سورة القيامة : الآية 3 .
3) سورة القيامة : الآية 13 .
4) سورة القيامة : الآية 14 .
5) سورة القيامة الآية 35 .
6) سورة الإنشقاق : الآية 6 .
7) سورة الطارق : الآية 8 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهذه الإحاطة الإلهية الشاملة تحد من جبروت الإنسان وكبريائه وغطرسته .

قال سيد قطب في تفسير سورة القيامة :

« ... وهكذا يشعر القلب ـ وهو يواجه هذه السورة ـ أنه محاصر لا يهرب . مأخوذ بعمله لا يفلت ، لا ملجأ له من الله ولا عاصم . مقدرة نشأته وخطواته بعلم الله وتدبيره ، في النشأة الأولى وفي النشأة الآخرة سواء » (1)

وقال في تفسير قوله تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى)

« ... وهذه اللمسة .. هي إحدى لمسات القرآن التوجيهية للقلب البشري ، كي يتلفت ويستحضر الروابط والصلات ، والأهداف والغايات ، والعلل والأسباب ، التي تربط وجوده بالوجود كله وبالإرادة المدبرة للوجود كله (2) .

13 ـ وتحدث القرآن عن ضجر الإنسان في الشدة ، ونسيانه الشكر على النعمة وكم هي كثيرة الآيات التي اهتمت بهذا الجانب الهام في الإنسان .

من ذلك قوله عز وجل :

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ... » (3)

« وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا ، قل الله أسرع مكرا ، إن رسلنا يكتبون ما تمكرون » (4)

« هو الذي يسيركم في البر و البحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا

---

1) سيد قطب : الظلال الجزء التاسع والعشرون ، المجلد السادس ص 3767

2) سيد قطب : نفس المرجع . ص 3774 .

3) سورة يونس : الآية 12 .

4) سورة يونس : الآية 21 .

الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ...» (1)

قال سيد قطب :

« ... وبمناسبة الحديث عن استعجال الشر ، يعرض صورة بشرية للإنسان عندما يمسه الضر ، تكشف عن التناقض في طبيعة هذا الإنسان الذي استعجل الشر وهو يشفق من مس الضر ، فإذا كشف عنه عاد إلى ما كان فيه .. إنها صورة مبدعة لنموذج بشري مكرور . . وإن الإنسان ليظل مدفوعا مع تيار الحياة يخطئ ويذنب ، ويطغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية ، وليس ـ إلا من عصم الله ورحم ـ من يتذكر في إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفا وأن هناك عجزا ، وساعات الرخاء تنسي ، والإحساس بالغنى يطغى . . ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع ، وإذا هو كثير الدعاء ، عريض الرجاء ، ضيق بالشدة مستعجل بالرخاء ، فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر ، انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار»(2)

« عجيب هذا المخلوق الإنساني الذي لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة ، ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا في ساعة الكربة ، فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان .. ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل آن ، مجلوة دائما بجلاء الإيمان » (3)

وقال عز وجل : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفار ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور » (4)

---

1) سورة يونس : الآيتان 22 ـ 23 .
2) سيد قطب : الظلال الجزء الحادي عشر ، المجلد الثالث ص 1769
3) سيد قطب : نفس المرجع ص 1773 .
4) سورة هود : الآيتان 9 ـ 10 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وفي الموضوع نفسه ، قال عز وجل :

« وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون » (1)

« وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا » (2)

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا »(3)

« فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » (4)

« وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » (5)

« وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون » (6)

« وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله .. » (7)

« فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيه على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون » (8)

---

1) سورة النحل : الآية 45 .
2) سورة الإسراء : الآية 67 .
3) سورة الإسراء : الآية 83 .
4) سورة العنكبوت : الآية 65 .
5) سورة الروم : الآية 36 .
6) سورة الروم : الآية 33 .
7) سورة الزمر : الآية 8 .
8) سورة الزمر : الآية 46 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

« لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط » (1)

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فنو دعاء عريض »(2)

كل هذه الآيات السالفة الذكر ذات موضوع واحد ، هو ضجر الإنسان والتجاؤه إلى الله في الشدة ، ثم نسيانه الشكر على النعم بعد حصولها ، وهذا التكرار له أهمية كبيرة في إبراز حقيقة هذا الكائن البشري . إنه ضعيف بنفسه ، قوي بإيمانه بربه وتوكله عليه ، والعيش في رحاب شرعه .

قال سيد قطب :

« إن الإيمان الجاد المتمثل في العلم الصالح هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة ، كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء ، وهو الذي يقيم القلب البشري على سواء في البأساء والنعماء ، ويربطه بالله في حاليه ، فلا يتهاوى ولا يتهافت تحت مطارق البأساء ، ولا ينتفخ ويتعالى عندما تغمره النعماء . وكلا حالي المؤمن خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم » (3)

وقال في معرض الحديث عن قوله تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه..»

« .. إنها صورة للنفس البشرية التي لا تستمد من قيمة ثابتة ، ولا تسير على نهج واضح ، صورة لها وهي تتأرجح بين الانفعالات الطارئة ، والتصورات العارضة ، والاندفاعات مع الأحداث والتيارات . فعند مس الضر يذكر الناس ربهم ، ويلجأون إلى القوة التي لا عاصم إلا إياها ، ولا نجاة إلا بالإنابة إليها ، حتى إذا انكشفت الغمة ، وانفرجت الشدة ، وأذاقهم الله رحمة منه : « إذ فريق منهم بربهم يشركون » . . وهو الفريق الذي لا يستند إلى عقيدة صحيحة تهديه إلى نهج مستقيم » (4)

---

1) سورة فصلت : الآية 48 .

2) سورة فصلت : الآية 50 .

3) سيد قطب : الجزء الثاني عشر ، المجلد الرابع . الظلال ص 1860 .

4) سيد قطب : ، الجزء الحادي والعشرون ، المجلد الخامس . الظلال ص 2770

وقد عدد الله سبحانه أكثر من حالة يجد فيها الإنسان نفسه مضطرا للجوء إليه طمعا في بلوغ النجاة ، والإخلاص له في الدعاء ، ولكنه إخلاص آني ، لا ينبع عن إيمان صادق، فإذا حقق الله له ما دعاه إليه ، تجده قد أدار ظهره وأصم أذنيه ، وكأن شيئا لم يكن ، بل هو يصبح أحيانا أشد مقاومة لدعوة الله مما كان عليه ، واشتط في البغي والظلم ، والجنوح إلى الشرك والإلحاد .

وفي هذا رسم صورة للنفس البشرية حين تتعرى فطرتها أمام الهول الذي يجاوز طاقاتها ، ويهز أعماقها ، وينفض الركام عنها ، ويردها للإستقامة ووضوح الرؤية .

وفوق هذا كله ، نجد القرآن يبصر الإنسان بحقيقته وبمختلف مزاياه ، وبمهمته في الدنيا ، من خلال تبصيره بحقيقتين اثنتين داخلتين في قوامه وتركيبه الإنساني ، وبينهما - في الظاهر - ما يشبه التناقض أو التشاكس (1)

وهاتان الحقيقتان هما :

الحقيقة الأولى : أنه مخلوق ضعيف أصله من تراب ، وسلالته من ماء مهين ، والشأن فيه ، إن طالت به الحياة أن يعود إلى أرذل العمر فلا يعلم من بعد علم شيئا . ويغلب عليه ، مع ذلك كما سبق بيانه - أن يشمخ بأنفه ويستكبر على الرغم من ذله ، وأن يعاند ويخاصم ويجادل ويكابر . وهذه طائفة من الآيات التي تبصر الإنسان بمظاهر هذه الحقيقة في ذاته.

قال سبحانه وتعالى :

« ألم نخلقكم من ماء مهين » (2)

وفي سورة المعارج لا يصرح بذكر الماء المهين الذي خلق منه الإنسان :

« كلا إنا خلقناهم مما يعلمون » (3)

وقال سبحانه وتعالى :

---

1) البوطي : منهج الحضارة في القرآن ص 46 .
2) سورة المرسلات : الآية 20 .
3) سورة المعارج : الآية 39 .

« فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » (1)

« قتل الإنسان ما أكفره ، من أي شيئ خلقه . من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره..»(2)

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني تمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى » (3)

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » (4)

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » (5)

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ...» (6)

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (7)

هذا عن الحقيقة الأولى ، أما الحقيقة الثانية التي تشكل الجزء الآخر من هوية الإنسان ، فهي أن الإنسان هو ذلك المخلوق المكرم علي سائر المخلوقات الأخرى ، وأنه ذلك الكائن الذي استأهل أن يكلف الله ملائكته بالسجود له ، متمثلا في شخص أبيه آدم عليه السلام، وأنه الذي شرفه الله بالخلافة علي هذه الأرض .

ومن الآيات القرآنية التي تبرز هذه الحقيقة ما يلي :

---

1) سورة الطارق : الآية 5 ، 6 ، 7

2) سورة عبس : الآية 17 . 18 . 19 . 20

3) سورة القيامة : الآيتان 35 - 36 - 37 .

4) سورة الإنسان : الآية 2 .

5) سورة يس : الآية 77 .

6) سورة الحج : الآية 5

7) سورة المؤمنون : الآيتان 12 - 14 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم علي كثير ممن خلقنا تفضيلا » (1)

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس » (2)

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ... » (3)

ومن تآلف هاتين الحقيقتين تتكون هوية الإنسان .

ولعل في تركيز القرآن على كل من هاتين الحقيقتين معا والاستمرار في تذكير الإنسان بضآلته وتفاهة أصله ، إلي جانب تذكيره بالمكانة التي يتبوؤها ، وبأهمية وجوده وخطورة الصفات التي ركبت فيه ، لعل في ذلك تنبيه للإنسان ، حتى لا ينكمش ولا يذبل ، أو يطغي ويتجبر ، لأن (رجل الحضارة الإنسانية المثلى في القرآن) هو ذلك الذي ربي في ظلال هاتين الحقيقتين معا . وعاش يستلهم غذاءه التربوي من معرفة أصله وحقيقته وضآلة شأنه وذل نهايته ، ثم من معرفة ما قد أنعم عليه الخالق عز وجل ، مع ذلك من صفات وملكات نادرة ، وما قد أكرمه به من سمو الرتبة والمكانة ، وما شرفه به من مسؤولية إنشاء الحضارة الإنسانية وعمارة الأرض .

« إن من شأن الذي ربيت أحاسيسه ونفسه على كلا هذين الغذاءين ، أن تتنامى في كيانه وتحت سلطان مشاعره ووجدانه ، هويته الإنسانية الكاملة ، فلا يتصرف إلا بوحي من هذه الهوية التي آمن بها أتم مايكون الإيمان ، ثم هيمنت علي عواطفه ودوافعه السلوكية في سائر التقلبات والأحوال ، ولا بد أن تقيه هذه التربية القرآنية عندئذ ، عن الشرود إلى أي تطرف أو جنوح ذات اليمن أو ذات الشمال ، فلا هو يركن إلى الخنوع والذل للأخرين مهما تجمعت عليه أسباب الضعف ومظاهر الفقر والهوان ، ولا هو يطمح إلى شيئ من التسلط والبغي والطغيان ، مهما أتيح له أسبابها ...» (4)

---

1) سورة الإسراء : الآية 70 .

2) سورة البقرة : الآية 34 .

3) سورة البقرة : الآية 29 .

4) البوطي : منهج الحضارة في القرآن ص 52 .

المبحث الثالث :
صلة الإنسان بالله عزوجل في القرآن الكريم :

1 ـ الإنسان عبد لله .

2 ـ الإنسان كائن كريم على الله .

3 ـ وظيفة الإنسان من خلال القرآن الكريم :

ـ حقيقتها .

ـ مقتضياتها .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث :

صلة الإنسان بالله في القرآن

الإنسان عبد لله :

- ومن الحقائق الثابتة في القرآن عن الإنسان ، أنه عبد لله أولا وأخيرا ، خلق ليكون مظهرا لألوهية الله عزوجل .

ولعل هذه الحقيقة هي خلاصة الحقائق كلها .

وما تكريمه وتفضيله على سائر المخلوقات ، وتسخير كل مافي الكون من أجله ، وتزويده بالخصائص التي تؤهله للتكليف وحمل الأمانة ، إلا وسيلة لأن يحقق عبوديته لله "بالكسب والممارسة والإختيار كما خلقه عبدا له بالجبر والاضطرار" (1)

وفي بيان ذلك قال الله سبحانه وتعالى :

"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إ ن الله هو الرزاق نو القوة المتين" (2)

وصفة العبودية للإنسان لا تكون حقيقية إلا بالنسبة لخالقه ومولاه عزوجل ، وهي صفة تتعدى الإنسان إلى غيره من المخلوقات ، إلا أن الإنسان عبد عاقل كريم على الله : "إن كلّ مَن فِي السّمواتِ والأرْضِ إلاّ آتِي الرّحْمَنِ عبدًا ، لقد أحْصاهُم وعَدّهُم عدًا ، وكلّهم آتِيه يومَ القيامةِ فَرْدا" (3)

فالعبودية لله تشريف للإنسان وتكريم له ، وتحرير له من عبوديات أخرى تضر به أيما ضرر .

ولهذا أمر الله الناس أن يعبدوه وحده :

---

1) البوطي : من روائع القرآن ، مكتبة الفارابي ط 3 ص 226 .
2) سورة الذاريات : الآيات . 56 ، 57 ، 58 .
3) سورة مريم الآية 94 ، 95 ، 96

"ياأيّها النّاس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتقون" (1)

ففي هذه الحقيقة - حقيقة عبودية الإنسان الحتمية لله ، فتح لآفاق التحرر من أصار العبودية للآخرين .

قال الله سبحانه وتعالى : "قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله" (2)

ولذلك أكد القرآن الكريم ، على أن الله سبحانه ما خلق "معشر الجن والإنس" إلا "ليعبدوه" ، فهذا أسلوب قصر كما يقول أهل البلاغة ، قصر موصوف على صفة .

وليست العبادة هنا ، مساحة ضيقة لا تتجاوز دائرة "الشعائر والاتصال الروحي بالله . إنها تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الأخذ والعطاء ، وتغدو أشبه بالبرنامج الشامل الذي ينظم فاعليات الجماعة البشرية في الأرض ، ويمنحها معنى ، ويسير بها إلى هدف واضح مرسوم ، ويعطيها الدافع والمبرر ، ويتجاوز بها السفوح الدنيا للنشاط البشري إلى القمم التي تليق بمكانة البشرية في ساحة العالم . وبهذا تسقط السلبيات التي يمكن أن تعلق بالنشاط البشري البعيد عن منهج الله أو البعيد عن العبادة بالمعنى الذي كنا نتحدث عنه . ومن هذه السلبيات التي تبرز في النشاط البشري البعيد عن البرنامج الإلهي وتختفي مع التزامه مسالكا العبث واللاجدوى .

فالقرآن يقرر أن خلق السموات والأرض والإنسان ماجاء عبثا ، وأن سعي الإنسان في العالم ليس أمرا محكوما باللاجدوى .

قال الله تعالى : "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون" (3)

"أيحسب الإنسان أن يترك سدى" (4)

---

1) سورة البقرة الآية 20 .
2) سورة آل عمران : الآية 64 .
3) سورة المؤمنون : الآية 115 .
4) سورة القيامة : الآية 36 .

"وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى" (1)

"وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين" (2)

والنشاط التعبدي في الإسلام لا يقتصر على فترات مقتطعة من الزمن ، أو أماكن محددة من العالم ، وإنما ينساح لكي يشمل كل الأماكن والأزمان .

ولهذا قال الله لنبيه عليه الصلاة والسلام :

"واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" (3) أي الموت .

وليس هذافحسب بل إن النشاط التعبدي في الإسلام هو "تذكر للوجود الإلهي في الكون" وإدارك لأبعاده الشاملة ، قدرة وإرادة وإحاطة ورقابة وعلما ... واتصال دائم بالله سبحانه وتعالى في كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال ظاهرة مرئية ، أو إرادات لم تتشكل في أفعالها بعد ، أو نيات وخواطر وتأملات وهواجس تدورفي أعماق النفس ... وتقدير لعظمة الله الذي خلق الكون والحياة والإنسان على أورع وأدق نظام ... واعتراف بالجميل للخلاق المبدع الذي هيأ للبشرية ظروفا تمكنها في كل وقت من تحقيق السعادة الكاملة في الأرض والسماء .... إن التعبد بهذا المعنى ، يمتد إلى كل مساحات الحياة الظاهرة والخفية ، الخاصة والعامة الفردية والجماعية ، المادية والروحية ، تماما كما تمتد الدماء وتسري في أوصال الجسد البشري وخلاياه" (4)

ومما يدل - أيضا - على أن الإنسان عبد لله ، أن القرآن وصف المرسلين وخاطبهم بلفظ العبودية .

قال الله تعالى :

"سبحان الذي أسرى بعدعه ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى" (5) وقال سبحانه في شأن الأنبياء :

---

1) سورة النجم : الآيات 39 - 41 .

2) سورة الأنبياء : الآية 16 .

3) سورة الحجر الآية 99

4) عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، دار العلم بيروت ط 5 ، 1991 ص 187

5) سورة الإسراء الآية 01 .

"واذكر عَبدَنا أيّوبَ إذ نادى رَبَه أنّي مَسّنيَ الشّيطانُ بِنُصْبٍ وَعَذاب" (1)

"واذكر عِبادَنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أولي الأيدي والأبصار" (2)

"ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب" (3)

"ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين" (4)

"إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل" (5)

"لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله" (6)

فإذا كان الأنبياء وهم صفوة البشر عبيدا لله ، فكيف بسائر البشر ، فالعبودية لله تلبية لحاجة الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وإلى هذه الحقيقة تشير الآية الكريمة :"وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا" (7)

قال سيد قطب رحمه الله

" .... إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري .فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته ، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة" (8)

فالصورة التي يقدمها القرآن عن صلة الإنسان بالله عزوجل صورة مغايرة في جوهرها تماما للصيغ إلتي طرحها الغربيون منذ عهد اليونان وحتى القرن العشرين .

إن العبادة في الإسلام وهي تمثل صلة الإنسان بالله ، تقوم على الحب والتعاطف

---

1) سورة ص : الآية 40 .
2) سورة ص الآية : 44 .
3) سورة ص الآية 29 .
4) سورة الصافات : الآية 171 .
5) سورة الزخرف : الآية 59 .
6) سورة النساء : الآية 172 .
7) سورة الأعراف : الآية 172 .
8) سيد قطب :الظلال ، الجزء التاسع ، المجلد الثالث ص 1391 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والتناغم الوجداني بين الله وعباده ، لا على الكره والمقت والصراع ، كما هو الحال في التصور الوثني ، إن هذا التصور الوثني انتقل عبر العصور محمولا في المعطيات الأدبيةعامة والدرامية خاصة .

إن الصورة التي قدمها القرآن الكريم عن صلة الإنسان بالله صورة مشرقة و تبين موقف التعاطف بين الله والإنسان ، وغفران الله لكل ما من شأنه أن يصدر عن ضعف الإنسان وعجلته وأخطائه غير المتعمدة .

وتتجلى هذه الصورة بوضوح في الأحاديث القدسية .

من ذلك مارواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه :

"من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي يكره الموت وأنا أكره مساءته" (1)

فهذا الحديث يعكس بحق صلة العبد بربه ، ففيه تحذير من معاداة أولياء الله ، وما ذلك إلا لمكانتهم عنده سبحانه وتعالى . وفيه تصريح بالحب أي حب الله لعباده المؤمنين الأتقياء، وفيه إعانتهم ، وفيه الرحمة بهم :"ماترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته"

فالمقطع الأخير من الحديث يتجلى فيه عطف الله على عباده حتى أنه سبحانه يكره مساءة عبده بالموت الذي كتب على كل الخلق .

وهذا حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :"قال النبي صلى الله عليه وسلم

---

1) فتح الباري : الجزء الحادي عشر - باب التواضع - ص 340 .

يقول الله تعالى : " أنا عند حسن ظن عبدي بي ، وأنا معه إن ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" (1)

فالحديث دال بألفاظه دلالة واضحة على سعة فضل الله على عباده وحب الخير لهم .

وهذا حديث ثالث يعكس صلة الإنسان بربه ويجليها في أحسن صورة .

عن أنس بن مالك "خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم" قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة" (2)

وفي رواية لمسلم : "لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح" (3)

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله سلى الله علسه وسلم : "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا : لا والله ، فقال : لَلّه أرحم بعباده من هذه بولدها" (4)

كما تتجلى هذه الصورة بوضوح في الرحمة في التكليف وفي الجزاء .

فالله سبحانه لم يكلف عباده إلا بما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ويستحقون به الجنة والرضوان . فكان ذلك رحمة من الله بهم وإنعاما منه عليهم .

ونصوص الكتاب والسنة شاهدة على ذلك .

---

1) فتح الباري : كتاب التوحيد ، باب (ويحذركم الله نفسه) ص 384

2) فتح الباري باب التوبة ـ الجزء الحادي عشر ـ ص 102

3) النووي : رياض الصالحين ، شركة الشهاب باتنة ص 43

4) النووي المرجع السابق ص 219

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من ذلك قوله تعالى : "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" (1)

"لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها" (2)

"وما جعل عليكم في الدين من حرج" (3)

"يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" (4)

ومن رحمته تعالى بالعباد أنه يثيب على الطاعة ويعطي عليها الجزيل ، أما المعصية فلا يضاعفها بل تكتب واحدة وقد تغفر ، ولا يجزى إلا مثلها .

قال الله تعالى : "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون" (5)

ومن السنة قوله عليه الصلاة والسلام : "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن همّ بحسنة فلم يعلمها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن همّ بها فعمل بها كتبها الله سيئة واحدة" . (6)

هذا مع العلم بأن العقاب من الله تعالى على المعصية حق وعدل ، على حين أن إثابته المكلف على عبادته وصالح عمله رحمة منه وفضل . ذلك لأننا مهما عملنا فلن نكافئ نعمه ولن نستطيع الوفاء بحقه .

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : "سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يدخل الجنة أحدا عملُه . قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه بمغفرة ورحمة" (7)

وبهذا تسقط تلك الرؤى الغريبة القديمة والحديثة ، التي تزعم أن العلاقة بين الإنسان

---

1) سورة البقرة . الاية 286

2) سورة الطلاق الاية 7 .

3) سورة الحج . الاية 78

4) سورة البقرة الاية 184

5) سورة الانعام . الاية 160

6) البخاري ومسلم

7) رواه الشيخان .

وبين الله هي علاقة كره ومقت وصراع .

ومما يبرز صلة الحب والرحمة بين الله وعباده ، تصريح القرآن الكريم بتكريم الله للإنسان .

2 ـ الإنسان كائن كريم على الله .

الإنسان في القرآن الكريم ، كائن كريم على الله ، نو مركز عظيم في تصميم الوجود ، على الرغم من كل مافي طبيعته من استعداد للضعف والخطأ والقصور والتردي ، فهو أفضل المخلوقات وأشرفها. ومن صور تكريم الله للإنسان خلقه في أحسن صورة ، وتزويده بخصائص جعلته فريدا من نوعه بين سائر المخلوقات ، وعناية الله به بارسال رسل من جنسه يبشرونه وينذرونه .

وقد ثبتت حقيقة تكريم الله للإنسان بدليل القرآن

قال الله تعالى :

"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (1) .

وقال تعالى :"وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين" .(2)

وقال تعالى :"يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ماشاء ركبك " (3)

"لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" (4)

إن الإنسان له مكانة عند الله ، وله مكانة في الملا الأعلى ، وله مكانة في هذا الكون ، وله غاية من أجلها خلق .

---

1) سورة الإسراء ، الآية 70 .

2) سورة البقرة ، الآية 33

3) سورة الإنفطار : الآية 7 .

4) سورة التين ، الآية 4 .

أما مكانته من الله ، فقد قرر القرآن قرب الإنسان من الله ، وقرب الله من الإنسان ، ذلك القرب القريب الذي يحطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان .

قال تعالى : "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان" (1)

"ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" (2)

"مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا"(3)

أما مكانته في الملأ الأعلى فهي مكانة اشرأبت لها أعناق الملائكة المقربين وتطاولت إليها نفوسهم فما أتوها ، فإن الذي اختار الله له هذه المكانة - خلافة الله في الأرض - هو الإنسان : "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم مالا تعلمون"(4)

أما مركز الإنسان في هذا الكون ، فهو مركز السيد المتصرف الذي سخر كل ما في هذا الكون لنفعه ولإصلاح أمره ، وكأن كل شيء في هذا الكون نسج من أجله وفصل على قده تفصيلا .

تلك هي مكانة الإنسان في هذا الكون وصلته بما فيه .

وما الذي بوأ الإنسان هذه المكانة السامقة ، وفي الكون أجرام أضخم منه وأكبر ؟

إنه سر القبس الذي هو فيه من نور الله ، والنفخة التي فيه من روح الله ، تلك النفخة التي جعلته مستعدا للخلافة في الأرض ، مستعدا لحمل الأمانة الكبرى ، أمانة التكليف والمسؤولية .

لقد سما الإسلام بالإنسان فاعترف به كله ، روحه وجسده ، عقله وقلبه ، إرادته ووجدانه ، غرائزه الهابطة وأشواقه الصاعدة ...

---

1) سورة البقرة : الآية 185 .

2) سورة ق : الآية 16 .

3) سورة المجادلة : الآية 7 .

4) سورة البقرة : الآية 29 .

لم يضع في عنقه غلا ، ولا قيدا ، ولم يحرم عليه طيبا ، ولم يغلق في وجهه باب خير ، قال ابن القيم :

"اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق له كل شيء ، وخصه من معرفته ومحبته وقربه ، وإكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له ما في سمواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربة - استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته ، وظعنه وإقامته ... وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل إليه ، وخاطبه وكلمه منه وإليه ... فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات" (1)

إن اعتقاد الإنسان بكرامته على الله ، ومكانه في الملأ الأعلى ، ومركزه القيادي في الكون ، يجعله يشعر بذاته ، ويغالي بقيمة نفسه لأنه يعتز بانتسابه إلي الله ، وارتباطه بكل ما في الوجود .

وما أعظم الفرق بين إنسانين : يعيش أحدهما وهو يعتقد في نفسه أنه مجرد حيوان من فصيلة راقيه ليس له قبل حياته جذور ، وليس له بعد موته امتداد ، وليس له في حياته صلة بالوجود الكبير ، أكثر من صلته بالقرود ....

ويعيش الاخر وهو يعتقد أنه خليفة الله في أرضه و نائبه في إقامة الحق وإفاضة الخير وإشاعة الجمال في هذا الكون ، ويشعر بأن الكون كله في خدمته ، والملائكة في حرساته ، وأن رب الوجود في معيته ، وأنه من فصيلة الذين أنعم الله عليهم من النبيين ووالصديقين والشهداء والصالحين ، وأن وجوده لا ينتهي بالموت ، وداره لا تنتهي بالقبر ، فإنما خلق للخلود والأبد الذي لا ينقطع ولا يزول" (2)

إن هذا الشعور الأصيل الذي بلغ حد الإعتقاد واليقين بمنزلة الإنسان ، هو أحد النقاط الرئيسية التي تخالف فيها عقيدة الإسلام التفكير المادي الذي يسود الحضارة الغربية

---

1) ابن القيم : مدارج السالكين دار الكتاب العربي بيروت ج1 ، ص 210

2) يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ، ص 76

اليوم في نظرتها إلى الإنسان .

إن هذه النظرة المادية للإنسان أنتجت شعورين مختلفين لدى الإنسان .

1- شعوره بالتفاهة والضياع ونظرته إلى نفسه نظرة حيوانية بحتة ، وهذا ما يلمحه كل دارس للحضارة الغربية .

2- شعوره بالغرور والكبر ، ذلك الشعور الذي ينتهي به إلي حد تأليه نفسه ، حين يسقط وجود الله من اعتباره ، ويتصرف كأنه إله لا يسأل عما يفعل .

وهذا الشعور أيضا بارز في حياة الإنسان المتشبع به .

وبعد الحديث عن مكانة الإنسان من الله عزوجل ، يأتي الحديث عن وظيفة الإنسان ، وظيفة الإستخلاف .

3- وظيفة الإنسان في القرآن : حقيقتها ، مقتضياتها

أ - حقيقتها

ب - مقتضياتها

يتضح من استقراء القرآن

أن الإنسان لم يخلق عبثا وإنما خلق من أجل وظيفة أساسية إشرأبت لها أعناق الملائكة الأطهار .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الوظيفة بمصطلحين اثنين هما :

الخلافة وحمل الأمانة .

أما أن الإنسان خليفة في الأرض فتصرح به الآية الكريمة :

قال الله تعالى : "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" (1)

والآية الكريمة "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" (2)

---

1) سورة البقرة : الآية 29 .

2) سورة هود : الآية 21.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأما أن الإنسان حمل الأمانة فيتضح في قوله تعالى : "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا " (1)

وسنتناول هذين المصطلحين بشيء من التفصيل من خلال أقوال المفسرين .

أولا : الخلافة :

قال الراغب الأصفهاني :

"الخلافة النيابة عن الغير ، إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته ، وإما لعجزه ، وإما لتشريف المستخلف وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض"(2)

وقال ابن عاشور :

"الخليفة في الأصل الذي يخلف غيره أو يكون بدلا عنه في عمل يعمله ، فهو فعيل بمعنى فاعل والتاء فيه للمبالغة في الوصف كالعلامة" (3)

وقد يراد بالخليفة المعنى المجازي أو المعنى الحقيقي فإذا حملنا لفظ الخليفة على المعنى المجازي ، فيكون الخليفة هو الذي يتولى عملا يريده المستخلف مثل الوكيل والوصي ، ويكون معنى قوله تعالى "جاعل في الأرض خليفة" أي جاعل في الأرض مدبرا يعمل ما نريده في الأرض . " لأن الله تعالى لم يكن حالا في الأرض ولا عاملا فيها العمل الذي أودعه في الإنسان ، ولأن الله لم يترك عملا كان يعمله فوكله إلى الإنسان ، بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى" (4)

وإن كان المراد من الخليفة معناه الحقيقي ، فهذا يعني أن الأرض كانت معمورة من قبل

وقد صرح بعض المفسرين بأن خلافة آدم كانت عن الجن الذين سبقوه ولذلك قالوا : من

---

1) سورة الأحزاب ، الآية 72

2) الراغب الأصفهاني : مفردات القرآن ، ص 157

3) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، الجزء الأول ، الكتاب الأول ص 398

4) ابن عاشور : المصدر السابق ، ص 398

المعني بالخليفة ؟

قال القرطبي :

"والمعني بالخليفة هنا في قول ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل آدم عليه السلام ، وهو خليفة الله في امضاء أحكامه وأوامره ، لأنه أول رسول إلى الأرض" (1)

وقال الرازي : "فأما أن المراد بالخليفة من ؟ ففيه قولان : أحدهما آدم عليه عليه السلام ، والثاني أنه ولد آدم" (2)

أما الذين قالوا المراد آدم ، فقد اختلفوا في أنه تعالى لم سماه خليفة ؟ وذكروا فيه وجهين :

الأول : أنه تعالى لما نفى الجن من الأرض وأسكن آدم الأرض ، كان آدم عليه السلام خليفة أولئك الجن الذين تقدموه .

إلا أن هذا الرأي يمكن الإعتراض عليه بأن الجن مازال موجودا إلى اليوم وبعد اليوم إلى أن يشاء الله ، وهناك من اعتبر القول بوجود خلق خلفهم آدم عليه السلام من المزاعم الشائعة عند الفرس أو اليونان" (3)

الثاني : إنما سماه خليفة لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه ، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي (4)

وهذا الرأي متأكد بقوله تعالى : "ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله" (5)

أما الذين قالوا المراد ولد آدم ، فقالوا إنما سماهم خليفة لأنهم يخلف بعضهم بعضا ، ويؤكده قوله تعالى :

"وهو الذي جعلكم خلائف الأرض" (6)

---

1) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتاب العربي ، ط2 الجزء الأول ص 263

2) الرازي : التفسير الكبير ، دار إحياء التراث العربي ط3 الجزء الأول ص 165

3) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ص 399

4) الرازي : التفسير الكبير ، الجزء الأول ص 166

5) سورة ص : الآية 25

6) سورة الأنعام : الآية 167

وقد استدل ابن كثير بهذه الآية ، وهو يفسر قوله تعالى من سورة البقرة : "إني جاعل في الأرض خليفة" قال "أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل" (1)

و حاصل أقوال المفسرين في هذه المسألة أنهم :

1ـ اختلفوا في : من المراد بالخليفة ؟ أهو آدم أم ولده ؟

2ـ واختلفوا في الخلافة عن من ؟ ففريق يراها عن خلق سابق لآدم وذريته ، وفريق يراها خلافة عن الله .

ومن المسائل المثارة في هذه القضية ، أن هناك من لا يجيز أن يقال لبشر خليفة الله ، وحجتهم أنه إنما يستخلف من يغيب أو يموت والله لا يغيب ولا يموت ، كما يحتجون برفض أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين قيل له ياخليفة الله ، فقال : لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . (2)

والحق أنه لا ينبغي أن يقاس بالبشر من "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" فإذا كان من شأن البشر أن يستخلفوا في الغيبة والموت ، فإنه من شأن الله أن يستخلف وهو شاهد لا يغيب ، حي لا يموت .

وقد علمنا من كلام الراغب في الخلافة أنها تشريف المستخلف ، تشريف من الله للإنسان ، وعلمنا أن من المعاني المحتملة للخليفة أن يراد به المعنى المجازي ، فلا يستلزم من هذا أن يكون المخلوف مستقرا في المكان من قبل ، ولا متخليا عن عمل كان يعمله فوكله إلى الإنسان "بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى" (3)

وإذا صح هذا ، فلا يهمنا أن نتحقق مما إذا كان البشر خلفوا خلقا سابقا أم لا ، لأن هذا الخلق السابق ـ إن صحت الفرضية ـ إنما استخلفه الله في الأرض كما استخلف البشر ، فإذا خلف البشر من كانوا خلفاء لله ، فالبشر قد صاروا بذلك خلفاء لله .

---

1) ابن كثير : التفسير الجزء الأول ص 120

2) عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا السياسية ، الزيتونة للإعلام والنشر ، ص 26

3) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، الجزء الأول ، ص 399

والأهم من هذا كله ، أن لفظ "خليفة" في القرآن الكريم هو وصف يعبر عن وظيفة الكائن الجديد "الإنسان" وتحديد مهمته التي خلق من أجلها ، أي أن هذا الكائن الذي تعلقت الإرادة به ستكون الخلافة مهمته الحقيقية على هذه الأرض ، فالله سبحانه وتعالى انتدب الإنسان لنشر وتنفيذ شريعته في الأرض .

فالخلافة على هذا النحو من التخريج تحدد مهمة الإنسان التي خلق من أجلها ، والإنسان حين يغفل عن هذه المهمة يكون قد مسخ شخصيته وسلب أهم عناصر وجوده ، وألغى جانبا كبيرا من ماهيته ، وتنازل عن مقدار لا يستهان به من كرامته ، ثم يكون - فوق ذلك - قد ارتكب جرما عظيما يستوجب المساءلة والعقاب الشديد .

وربما يتسع معنى لفظ الخليفة ، ليشمل أن يكون أفراد النوع الإنساني لن يكون لهم البقاء ولن يتمتعوا بالخلود في الدنيا ، وإنما سيحيا الواحد منهم إلى أجل مسمى ثم يعود ترابا كما بدأ وبهذا فإن أفراد النوع الإنساني سوف يخلف بعضهم بعضا ويكون بعضهم خليفة عن بعض إلى أن يقضي الله أمره بانتهاء هذه الحياة .

وعلى هذا التخريج يكون الله قد نعى النوع الإنساني قبل وجوده وأعلمهم بأنهم لا بقاء لهم في هذه الدنيا إلا ريثما يستوفي الواحد منهم أجله ثم يتركها إلى الحياة البرزخية ومايتلوها . وفي هذا الإعلان لفت للنوع الإنساني أفرادا وجماعات إلي تحقيق العبودية لله في أنفسهم بتحقيق الواجب الذي طلب منهم والقيام بأعباء المهمة التي كلفوا بها .

ومن هنا يظهر الترابط بين التخريجين الأول والثاني .

فالإنسان خليفة عن الله لتنفيذ شرعه ، وأفراد الإنسان لا بقاء لهم فوق آجالهم المحددة، فهم بذلك يخلفون بعضهم بعضا .

والمتأمل في أسلوب القرآن يجده قد استخدم اللفظ بالمعنيين معا : ففي قوله تعالى : «يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق » إشارة إلى الخلافة بمعنى تنفيذ شرع الله في الأرض .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وفي قوله تعالى : « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) إشارة إلى أن أفراد النوع الإنساني يخلف بعضهم بعضا .

هذا في شأن الخلافة ، خلافة الإنسان في الأرض فما هو شأن حمل الأمانة

قال ابن جرير :

"اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم معناه : أن الله عرض طاعته وفرائضه على السموات والأرض والجبال على أنها إن أحسنت أثيبت وجوزيت ، وإن ضيعت عوقبت ، فأبت حملها إشفاقا منها أن لا تقوم بالواجب عليها ، وحملها آدم إنه كان "ظلوما" لنفسه جهولا بالذي فيه الحظ له" (1)

ثم ذكر أقوال من قال بذلك بأسانيدها .

ومن الأقوال المذكورة عن ابن عباس :

من طريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس :

"الأمانة : الفرائض التي افترضها الله على عباده" (2)

ومن طريق أخرى : عن على عن ابن عباس :"إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها وهو قوله :"فحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا" غرا بأمر الله" (3) .

وممن فسر حمل الأمانة" بالفرائض والطاعة ، ابن كثير ، والشوكاني والقرطبي والبغوي والزمخشري (4)

وفسرها المرازي بالتكليف ، قال :

"إنا عرضنا الأمانة" أي التكليف .

---

1) ابن جرير الطبري . التفسير ، الجزء الثاني عشر ص 53

2) ابن جرير : المصدر نفسه ص 53

3) ابن جرير : المصدر السابق . ص 53

4) انظر ابن كثير 522/5 ـ القرطبي 5335/8 ـ الشوكاني 308/4 ـ الزمخشري 56/5

ثم قال :"واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس في السموات ولا في الأرض ، لأن الأرض والجبال والسماء كلها على ما خلقت عليه ، الجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ، ولا من السماء الهبوط ، ولا في الملائكة ، وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء ، لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا ، فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه .

ثم قال : لم يكن إباؤهن كإباء ابليس في قوله تعالى "أبى أن يكون مع الساجدين" من وجهين .

أحدهما : أن هناك السجود كان فرضا وهاهنا الأمانة كانت عرضا .

وثانيهما : إن الإباء كان هناك استكبارا ، وهاهنا استصغارا استصغرن أنفسهن بدليل قوله تعالى :"وأشفقن منها" (1)

وقال البيضاوي :"فلعل المراد بالأمانة العقل والتكليف ، وبعرضها عليهن اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن ، وبإبائهن الإباء الطبيعي الذي هو عدم القابلية والإستعداد ، وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها" (2)

أما أبو حيان الأندلسي فله رأي شمولي في الأمانة ، فهي عنده كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن دين ودنيا . (3)

أما المودودي ، فقد فسرها بالخلافة : قال :

"والمراد بالأمانة هنا . تلك الخلافة التي أعطيت للإنسان في هذه الأرض ، فالنتيجة اللازمة للحرية التي منحها الله للإنسان في أن يطيعه أو يعصيه ، والعاقبة المحتومة لسلطات التصرف في مخلوقات الله الكثيرة ، التي وضعها الخالق في يديه ، لتعينه علي ممارسة هذه الحرية، هي أن يكون مسؤولا عن أعماله الإختيارية ، فيستحق الأجر على

---

1) الرازي : التفسير الكبير ص 165

2) البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، دار الفكر بدون تاريخ ، ص 564

3) أبو حيان التحيدي البحر المحيط ج 7 ص 253

حسناته وأفعاله الصالحة ، والعقاب على سيئاته وأعماله الطالحة ، وبما أن الإنسان لم يحصل على هذه السلطات بذاته ، بل منحه الله إياها ، وبما أنه مسؤول أمام الله عن حسن استعمالها وسوء تصرفيها واستخدامها ، عبر القرآن عنها في مواضع أخرى بلفظ الخلافة ، واستعمل لها هنا لفظ الأمانة" (1)

وفسر البوطي "الأمانة" بأنها الصفات والملكات التي جهز الله بها الإنسان ليقوم بوظيفة الإستخلاف وعمارة الأرض . (2)

وخلاصة هذا القول ، أن الأمانة التي تحملها الإنسان تعني التكليف بمدلوله الواسع ، أو هي بتعبير آخر وظيفة الإستخلاف وما تستلزمه من ملكات وقدرات وخصائص خص بها الإنسان وحده دون سائر المخلوقات .

وإذ ثبت أن الإنسان هو ذلك الكائن المكلف المستخلف الحامل للأمانة ، فهذا يستلزم منا أن نتحدث عن مقتضيات التكليف أو الإستخلاف أو حمل الأمانة .

ب ـ مقتضياتها :

نحسب أن مقتضيات ذلك هي الإرادة الحرة والقدرة ، ثم تليها مقتضيات أخرى كالهداية والمعرفة والتكوين الجسدي الملائم والبيئة الدنيوية المعينة وإرسال الرسل . (3)

والحديث عن إرادة الإنسان الحرة واختياره يقود عادة إلى الحديث عن مسألة "القضاء والقدر"

ولا يعنيني هنا أن أخوض في هذه المسألة لإعتبارات منها :

أولا : أن الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان وسر من أسرار الله في خلقه ، وقد نهي النبي عن التنازع فيه ، ففي سنن الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة

قال : "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى

---

1) أبو الأعلى المودودي : تفسير سورة الأحزاب ص 175

2) البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ، ص 66

3) عبد الستار نوير : رسالة الإنسان في الحياة ومقتضياتها ، دار الثقافة ، الدوحة ط1 1987 ص 31

احمر وجهه ، حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان ، فقال : "أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ؟! إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه" (1)

ثانيا : أن الجهابذة من علماء الأمة المحققين ـ سلفا وخلفا ـ قد أشبعوا هذا الموضوع بحثا وبينوا وجه الحق من الضلال (2)

ومن زعم أن الإيمان بالقدر يقضي بترك العمل وإهمال الأسباب فقد أخطأ وجانب الصواب ، فالله سبحانه قدر النتائج وأسبابها .

فإذا قدر الله مثلا ، أن يرزق فلانا ولدا ، فإنه يكون قدر له أن يتزوج ويعاشر زوجته ، فالأسباب من الأقدار .

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة ، فقد أمرت بالعمل والسعي في طلب الرزق واتخاذ العدة لمواجهة الأعداء ، والتزود للأسفار .

قال تعالى : "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله" (3)

"فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه" (4)

"وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم" (5)

وأمر المسافرين للحج بالتزود

"وتزودوا فإن خير الزاد التقوى" (6)

وأمر بالدعاء والإستعانة :

---

1) سنن الترمذي 223/2 .

2) انظر ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، المجلد الثامن ص 192 .

3) سورة الجمعة : الآية 10

4) سورة الملك : الآية 15 .

5) سورة الأنفال : الآية 60

6) سورة البقرة : الآية 196

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

"وقال ربكم ادعوني استجب لكم" (1)

"قال موسى لقومه استعينوابالله واصبروا" (2)

وأمر باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوان الله وجنته كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها .

وحياة المرسلين جميعا والسائرين على نهجهم كلها شاهدة على أخذهم بالأسباب والجد والإجتهاد في الأعمال .

وقد فقه الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بمعنى القدر ، وأنه لا يوجب ترك العمل ، بل يوجب الجد والإجتهاد فيه لبلوغ ما يطمح الإنسان في نيله وتحقيقه .

فقد سأل الصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم عن فائدة العمل إذا كانت الأعمال مقدرة مقضية جف بها القلم ، وفرغ منها رب العالمين ، فقال : "اعملوا فكل ميسر" (3) وقرأ عليه السلام : "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى" (4)

والذي يتتبع القرآن الكريم يجده مليئا بإسناد الأفعال إلى من قاموا بها ، وبذلك يبطل زعم الذين قالوا بالجبر .

قال الله تعالى : "من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا" (5)

"قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا" (6)

وقال تعالى في شأن تحمل كل نفس ماتكسب ، وأنها لا تتحمل وزر غيرها :

---

1) سورة غافر : الآية 60

2) سورة الأعراف : الآية 128 .

3) أصل الحديث في صحيح مسلم من رواية علي رضي الله عنه .

4) سورة الليل : الآيات 5 ـ 10 .

5) سورة الإسراء : 15 .

6) سورة الإسراء : الآية 84 .

"ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى" (1)

وقال عزوجل في نسبة السعي للإنسان :

"وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى" (2)

والإنسان إما أن يكون شاكرا وإما أن يكون كافرا :

"إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا" (3)

وقد نسب الله الإرادة للإنسان في قوله :

"من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نوته منها وماله في الآخرة من نصيب" (4)

هذا على المستوى الفردي لمسألة الحرية والإرادة .

ونجد في القرآن آيات أخري تصرح بنسبة الأفعال إلى فاعليها وما يترتب عن ذلك من الصلاح والفساد في الدنيا ومن الجزاء العادل في الآخرة : قال اللهَ تعالى :

"ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون" (5)

"ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون" (6)

"وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (7)

"وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم

---

1) سورة الأنعام : الآية 164 .
2) سورة النجم : الآيات 39 ـ 41 .
3) سورة الإنسان : الآية 3 .
4) سورة الشورى : الآية 20 .
5) سورة المائدة : 65 . 66 .
6) سورة الأعراف : الآية 96 .
7) سورة الأنعام : الآية 49 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون" (1)

"من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فؤلائك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا" (2)

يتضح من خلال هذه النماذج القرآنية وغيرها أن أية جماعة أو أمة إنما هي مسؤولة عن فعلها فحسب ، وأنها لا تتحمل نتائج أفعال غيرها من الجماعات أو الأمم التي يفصلها عنها الزمان أو المكان "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون" (3)

وكثيرا ما تنتهي الآيات القرآنية في هذا المجال بعبارة "بما كانوا يصنعون" تعقيبا علي الجزاء الذي يلحق بأمة أو جماعة وفي "آية الأحقاف" نلتقي بالأفعال البشرية " أذهبتم" ، "واستمتعتم" "واضحة في نسبتها إلى الإرادة الحرة ، الأمر الذي يجعل الجزاء عادلا إزاء جماعة أذهبت بإرادتها طيباتها واستمتعت بها بغير حق" (4)

"ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في الحياة الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبماكنتم تفسقون"(5)

"وما أكثر ماكنت دعوات الأنبياء والمرسلين للجماعات البشرية تجيء لكي تناديهم أن يختاروا طريق الإيمان لكي يحظوا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة : وماكان لأي من هؤلاء المرسلين أن يلزمهم إلزاما بالإنتماء إلى دعوته " (6)

فهذا نبي الله نوح عليه السلام يرد على الملأ من قومه الذين كفروا "قال ياقوم أرأيتم إن

---

1) سورة النحل : الآية 112 .
2) سورة الإسراء : الآيات 18 ـ 19 ـ 20 .
3) سورة البقرة : الآية 133 .
4) عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ص 149
5) سورة الأحقاف : الآية 19 .
6) عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ص 149 .

كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموهاوأنتم لها كارهون" (1)

مما تقدم يتبين أن الإنسان نو فاعلية وإرادة إيجابية في مصيره كله . في إطار المشيئة الإليهة ، والعلاقة بين إرادته في هذا كله وبين قدر الله ومشيئته ، علاقة قائمة على أساس ألا يناله الظلم أبدا : "ومارّبك بظلام للعبيد" (2)

"إن الله لا يظلم مثقال ذرة" (3)

إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون" (4)

"ومهما يكن في هذه العلاقة من جوانب يصعب إدراكها على وجه الدقة والتفصيل ، فإن المقطوع به منها هو النصيب المقرر للإنسان من الفاعلية والإيجابية ، والعدالة فيما يترتب عليها من جزاء في الدنيا والآخرة" (5)

ولعل منشأ الخطأ في مسألة "القضاء والقدر" أت من اعتقاد أن كل ماقدره الله وخلقه ، فقد أحبه ورضيه وأمر به ،،ليس الأمر كذلك ، فالله سبحانه شاء - مثلا - وجود الكفر والشرك والذنوب والمعاصي ، ولكنه كرهها وأبغضها ونهى عباده عنهى ، "إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ..." (6)

"والمحققون من أهل السنة يقولون : الإرادة في كتاب الله نوعان : إرادة قدرية خلقية ، وإرادة دينية شرعية . فالإرادة الشرعية هي المتظمنة المحبة والرضى ، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات" (7)

"ومثال الإرادة الشرعية قوله تعالى :"يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" (8)

---

1) سورة هود الآية 28

2) سورة فصلت : الآية 46 .

3) سورة النساء : الآية 40 .

4) سورة يونس : الآية 44 .

5) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي ص 366 .

6) سورة الزمر الآية 8

7) سليمان الأشقر : القضاء والقدر . قصر الكتاب البليدة الجزائر ط1990 ص104

8) سورة البقرة : الآية 184

فهذا النوع من الإدارة لا تستلزم وقوع المراد ، إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة ، وهذه الإرادة تدل على أن الله لا يحب الذنوب والمعاصي والضلال والكفر ، ولا يأمر بها ولا يرضها وإن كان شاءها خلقا وإيجادا .

"وهذه الإرادة تتناول جميع الطاعات حدثت أولم تحدث" (1)

والإرادة الكونية القدرية هي الإرادة الشاملة لجميع الموجودات التي يقال فيها : ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن .

ومثال هذه الإرادة قوله تعالى :

"فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا" (2)

وقال تعالى :"ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد" (3)

وهذه الإرادة إرادة شاملة لا يخرج عنها أحد من الكائنات ، فكل الحوادث الكونية داخلة في مراد الله ومشيئته هذه ، وهذه يشترك فيها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، وأهل الجنة وأهل النار ، وأولياء الله وأعداؤه ، وأهل طاعته ، وأهل معصيته ..

وعلى كلٍ ، فإن المنهج الذي فقهه علماؤنا عن ربنا ونبينا عليه الصلاة والسلام .. أنه يجب علينا الإيمان بالقدر ، ولكن لا يجوز لنا أن نحتج به على ترك العمل ، كما لا يجوز لنا الإحتجاج به على مخالفتنا للشرع .

قال ابن تيمية :"وسلف الأمة وأئمتها متفقون على أن العباد مأمرون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم عنه ، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة، ومتفقون على أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه ، ولا محرم فعله ، بل لله الحجة البالغة على عباده" (4)

---

1) ابن تيمية : مجموع الفتاوى 198/8 .
2) سورة الأنعام : الآية 125 .
3) سورة البقرة : الآية 253 .
4) ابن تيمية : مجموع الفتاوى 452/8 .

ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتهامع إيمانهم بالقضاء والقدر ، وأن الله خالق كل شيء ، وأنه ماشاء كان ، ومالم يشأ لم يكن ، وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء أن العباد لهم مشيئة وقدرة ، يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم ، إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله" (1)

إذن قد تبين أن الإنسان يملك إرادة وقدرة في إطار المشيئة الإلهية المطلقة النافذة في كل شيء وفي كل حي . وذلك من مقتضيات التكليف والإستخلاف .

ويضاف إلى هذا المقتضى الرئيسي مقتضيات أخرى لعل أهمها :

ـ الهداية والمعرفة

لا يمكن للإنسان الإختيار إلا إذا عرف الخير والشر معا ، فإذا حصل علي هذه المعرفة استطاع أن يختار أحدهما علي بينة وبصيرة . من أجل ذلك وهبه الله وسائل الهداية والعلم ليكشف الطريقين . قال الله تعالى : « وهديناه النجدين » (2)

أي طريقي الخير والشر

ومن وسائل المعرفة التي وهبها الله للإنسان :

ـ الفطرة : قال الله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » (3) وقد غرس الله في كيان الإنسان هذه القوة لتقوم بوظيفتين أساسيتين :

الأولى هدايته ودعوته إلي توحيد الله وتعظيمه والتقرب إليه وزجره عما سوى ذلك

الثانية : هدايته ودعوته إلى الحق والخير ومكارم الأخلاق وزجره عن الغي والإثم والرذائل .

ـ الحواس الخمس التي هي أداة الإدراك والتمييز الحسي

ـ العقل الذي هو أداة التفكير المنطقي والإدراك المعنوي والتمييز بين الحق والباطل .

---

1) ابن تيمية : مجموع الفتاوى 459/8

2) سورة البلد : الآية 10

3) سورة الروم : الآية 30

وقد تحدثنا عن العقل في مبحث سابق من هذه الرسالة (1)

ولقد هيئ الله للحواس والعقل والفطرة المادة التي تهدي الإنسان في مصدرين عظيمين هما :

- آيات الكون المنظورة في الأنفس والآفاق (2)

- الوحي الإلهي الذي جاء به المرسلون عليهم الصلاة والسلام . وهذا الأمر ، أي الوحي عن طريق الرسل ، مقدم على سائر المقتضيات التي أشرنا إليها وهو من عدل الله ورحمته بالناس . فعلى الرغم من أن الإنسان مزود في خلقته وتكوينه وما يحيط به بما يعرف به ربه ، إلا أن الله عز وجل لم يشأ رحمة منه أن يرتب الجزاء علي ذلك إلا بعد إرسال الرسل إلي الناس . قال الله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (3)

فإرسال الرسل بالوحي فيه حكمتان عظيمتان :

الأولى إفاضة الرحمة وإتمام النعمة على الإنسان

الثانية تحقيق العدل في الحساب والجزاء .

ويدل على الأولى قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (4)

وقوله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى سراط مستقيم »(5)

ويدل على الثانية قوله تعالى : « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى »(6)

قال أبو السعود : « والمعنى (لو أهلكناهم) في الدنيا بعذاب مستأصل ، (من قبله) أي

---

1) انظر مبحث دعوة القرآن إلى دراسة الكون وإعماره من هذه الرسالة

2) انظر مبحث الكون معلم هداية إلى الله

3) سورة النساء : الآية 164

4) سورة الأنبياء : الآية 107

5) سورة المائدة : الآيتان 15-16

6) سورة طه : الآية 134

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعذاب كائن من قبل إتيان البينة أو قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، (لقالوا) أي يوم القيامة (ربنا لو لا أرسلت إلينا) في الدنيا (رسولا فنتبع آياتك) التي جاءنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب في الدنيا(ونخزى) بدخول النار اليوم » (1) .

أما بعد إرسال الرسل مبلغين ومبشرين ومنذرين فإن المخالفين يستحقون العقاب وتنقطع معاذيرهم وتكون حجة الله قائمة عليهم : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (2) . ومن أجل ذلك يحتج الله على الكافرين المكذبين يوم القيامة فيقول لهم : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون»(3).

وصفوة القول هي :

إن المهمة الرئيسية التي انتدب الإنسان لتحقيقها ، والتي كانت غاية وجوده ، هي الخلافة في الأرض .

يتضح ذلك من الآيات التي تكلمت عن خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام.فهذه الآيات تقرن الإعلان عن خلق الإنسان بالإعلان عن وظيفته . والخلافة في الأرض تعني تنفيذ الإنسان المطلب الإلهي المتمثل في الأوامر والنواهي التي جاء بها الوحي محددة لمصالح الإنسان في تكميل ذاته وترقية معنى الإنسانية فيه عقلا وروحا وجسما.وتجدر الإشارة إلى أن هذه الغاية التي وضعها الله للإنسان هدفا لحياته ليست ميسورة المنال ، آلية التحقق ، بل إن تحقيقها لا يكون الا عبر جهاد دائم تتصارع فيه نوازع المادة التي تشد إلى أفق الحيوانية مع نوازع العقل والروح التي تدفع إلى أفق الكمال الإنساني في ظل العبودية لله عز وجل .

---

1) تفسير ابي السعود 680/3

2) سورة النساء : الآية 164 .

3) سورة الأنعام : الآيتان 130ـ 131 .

وإنه لنبأ عظيم أن يكون هذا الإنسان لم يخلق لنفسه وإنما خلق لعبادة الله . لم يخلق لهذه الحياة الدنيا وإنما خلق للحياة الخالدة . ولكن نوع الحياة الأخرى التي سيحياها تتوقف على نوع الزرع الذي زرع في الحياة الدنيا .

ومنه يأتي الحديث عن ملامح العمل الإنساني أو العمل الحضاري المنبثق عن تلك العلاقة التي حددها القرآن : علاقة الإ نسان بالكون والحياة من جهة ، وعلاقته بالله من جهة ثانية . وهذا موضوع الفصل الأخير من الرسالة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع

أثر تلك العلاقة في بناء الحضارة الإنسانية

المبحث الأول :

ملامح الحضارة في ظل التصور القرآني

المبحث الثاني :

ملامح الحضارة في غياب التصور القرآني

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول

ملامح الحضارة في ظل التصور القرآني

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد :

المكتبة العربية الحديثة ثرية بالبحوث التي تناولت الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وأصحاب هذه البحوث عرب ومسلمون ، ومستشرقون غربيون ، إلا أن الملاحظ في كتابات هؤلاء جميعا ، في هذا المجال ، مجال الحضارة الإسلامية على الخصوص ، أنها كتابات وصفية ، تصف منجزات الحضارة الإسلامية ، وتظهر إعجابها وإكبارها بمظاهرها وآثارها ، دون أن تستجلي أسرار انبعاث هذه الحضارة .

وقليل هم الذين تناولوا في كتاباتهم ، المفهوم الإسلامي للحضارة بصورة تبين للدارس أهم الأسس التي تبرز حقيقة الموقف الإسلامي من قضية الحضارة .

ومن الباحثين المسلمين الذين درسوا القضية بعمق ، وبتصور قرآني شامل ، المفكر مالك بن نبي والشهيد سيد قطب ، والأستاذ أبو الأعلى المودودي ، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

أما مالك بن نبي فقد وضع كتبه جميعا تحت عنوان " مشكلات الحضارة "

ويرى أنه لايمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته مالم يرتفع بفكرته الى الأحداث الإنسانية، ومالم يتعمق في فهم العوامل التي تبنى الحضارات أو تهدمها . ويرى أن الحضارة لاتنبعث إلا بالعقيدة الدينية .

ويمكنني أن أقول : إن (مالكا) سلك في بحوثه الكثيرة عن الحضارة الإسلامية ، مسلك النابش عن جذورها ، الباحث عن صلة مابينها وبين نفوس أصحابها . لذلك فبحوثه ذات أهمية كبيرة .

لكن مايؤخذ على مالك في رأي بعض الباحثين " أنه اتجه الى ذلك من خلال طريق طويل جعله يجتاز بالقارئ مراحل نظرية مجردة ، قبل أن تأخذ بيده لتدله بشكل عملي

على المفتاح الضائع الذي يبحث عنه " (1)

وهناك من يرى أنه لما تعرض لمشكلة الحضارة ، تعرض لها بوصفها علاج لأزمة التخلف في العالم الإسلامي، وبذلك لم يعالج المشكلة بصورة تتجاوز حدود الزمان والمكان الذي عاصرهما" (2)

والحق أن في كتابات مالك عن الحضارة الإسلامية ، مايتخطى الزمان والمكان اللذين عاصرهما .

أما الشهيد سيد قطب رحمه الله فيرى أن الإسلام هو ذاته الحضارة ، وقد ظهر عنده هذا الطرح من خلال مؤلفاته العديدة التي حاول فيها أن يحدد خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، وموقف الإسلام من مشكلات الحضارة المعاصرة .

فمقومات الحضارة عند (سيد) هي : " العبودية لله وحده . والتجمع على أصرة العقيدة ، واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة ، وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لاحيوانيته ... وحرمة الأسرة ، والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه ، وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة ." (3)

أما الأستاذ المودودي ، فيركز على موقف الإسلام من الحياة الدنيا وإيثار الآخرة عليها، ويعتبر مقياس التفوق الحضاري في موقف أي مجتمع من الحياة الدنيا .

ويرى أن مايظنه الناس حضارة ، إنما هو في واقع الأمر مظاهرها ونتاجها .

وركز (البوطي) على أن منهج الحضارة الإنسانية في القرآن يتلخص في :

تعريف الإنسان بذاته وحياته ، والكون الذي يعيش فيه ، وماهي الحياة الإنسانية في القرآن ، وماهو الكون في القرآن .

---

1) البوطي : منهج الحضارة الإنسانية ص 9 .

2) سليمان الخطيب : أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، الزهراء للإعلام والنشر ، القاهرة ط 1 1406 هـ 1986م ، ص 14.

3) سيد قطب : معالم في الطريق ، مطبعة قرطاج باريس بدون تاريخ ص 107

ومن خلال الفصول السابقة التي بنيت عليها هذا الفصل الأخير والذي أعده ثمرة الفصول السابقة ، يبدو لي أن طرح هؤلاء الباحثين الأفاضل هو الطرح السليم ، هو التصور القرآني السليم للحضارة الإنسانية المثلى التي تُسعد ولا تُشقي .

وأزيد الأمر توضيحا ببيان ملامح الحضارة الإنسانية في ظل التصور القرآني ، ثم أعرض بعض ملامح الحضارة التي نبتت بعيدا عن هذا التصور القرآني الشامل لكل من مكونات الحضارة وعلاقة هذه المكونات ببعضها ، وهذه المكونات (أو العناصر) هي : الإنسان ، والكون ، والحياة .

قبل البدء في صميم المبحث ، أشير إلى كثرة التعريفات لمصطلح الحضارة ، فهو مصطلح يجمع تفاسير وتعاريف كثيرة ، وكل منها يعكس "مرئياته الخاصة عن الوجود ويختصر مفاهيم أصحابه عن الحياة" (1)

فمن قائل : إن الحضارة هي المدنية .

وثان يراها هي التاريخ والإقتصاد .

وثالث : يراها طريقة العمل والتفكير. (2)

ورابع يذهب إلى أنها (نظام إجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي ، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق ... " (3)

ويفرق (تقي الدين نبهاني) بين الحضارة والمدنية فيعرف الأولى (بمجموعة المفاهيم عن الحياة) بينما تقتصر الثانية على الأشكال المادية للأشياء المحسوسة التي تستعمل في شؤون الحياة . وهكذا تعددت المفاهيم والتعريفات ...

وثمة تقسيم خطير يتردد خلال الحديث عن الحضارة والثقافة والمدنية وهو تقسيم لاينبغي أن ننساق فيه ونستسلم لمقولاته .

وخلاصة هذا التقسيم أن الحضارة تتضمن (المدنية) التي تعنى بالجوانب المادية ، و

---

1) د . محمد علي صناوي : مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية ، دار القرآن بيروت ، 1403 هـ /1983م ، ص 11.

2) صاحب هذا الرأي هو العالم ، تايلور

3) صاحب هذا الرأي هو ول ديورانت .

(الثقافية) التي تعنى بالجوانب الفكرية والأخلاقية والفنية ... وتجعل الدين جزءا أو عنصرا من عناصر هذه الدائرة دائرة الثقافة .

فالدين في المنظور الإسلامي ، أوسع من دائرة الحضارة نفسها على امتدادها ، إنه رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان .

وبرنامج عمل ومنهاج حركة يهيمن على كافة المعطيات الحضارية : مدنية وثقافية ، ولاينضوى تحت أية جزئية منها مهما كانت فاعلية هذه الجزئية وتدفق معطياتها .

وعليه ، فإني أختار ذلك التعريف البسيط الذي يعتبر الحضارة " ثمرة التفاعل بين الإنسان الكون والحياة "(1)

فالحضارة تفاعل أي هي انعكاس لأنشطة الإنسان في الكون .

هي " صورة لممارسته المبنية على مبادئه وأهدافه وقيمه ومفاهيمه "(2)

لكن النجاح في بناء حضارة مثلى متوقف على معرفة تامة بطبيعة عناصرها معرفة لايشوبها أي خطأ أو وهم ، لكن من الذي يستطيع أن يعرف الإنسان على هذه العناصر الثلاثة : (الإنسان ، والكون ، والحياة) ؟ ومن الذي يبصره بالوجه السليم لتسخيرها والاستفادة منها تبصرة دقيقة مطابقة للحقيقة وواقع الأمر دون خطأ أو وهم ؟

إن الذي يملك وحده أن يعرف الإنسان على هويته ، وعلى هوية الكون والحياة ، إنما هو ذاك الذي استقل بإبداعه وصنعه ثم وضع في كل منها قابليته وأقامه على مهمته ووظيفته .

إنه البارئ عز وجل " الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى "

"إنه الله الذي أنزل كتابا مفصلا غير ذي عوج ، يعرف الإنسان فيه على هذه الأجهزة الخطيرة ، ويهديه الى كيفية استعمالها وإلى أفضل السبل للاستفادة منها "(3) .

---

1) البوطي : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص 39 .

2) د/ محمد علي صناوي : مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية ص 19 .

3) البوطي : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص 39 .

والآن لنرى كيف بصر القرآن الإنسان بهويته ووظيفته بالحياة وحقيقتها وبالكون الذي يعيش فيه ومن حوله ، وكيف أرشده الى التناسق بين هذه العناصر ، فإذا عرف الإنسان ذاته ووظيفته وقيمة الحياة الدنيا ، وحقيقة الكون ، وعلاقة هذه المخلوقات بخالقها ومبدعها، استطاع أن ينشئ حضارة مثلى لاتحمل في طياتها بذور فنائها ، إلا إذا تنكرت لخالقها ، وللفطرة التي فطر الله الناس والكون عليها .

وبيان هذا الإجمال كالتالي :

أولا : تبصير القرآن الإنسان بحقيقته ووظيفته ومركزه في هذا الوجود .

يبصر القرآن الإنسان بهويته من خلال تنبيهه الى حقيقتين داخلتين في تركيبه .

وأولى هاتين الحقيقتين : أنه مخلوق ضعيف أصله من تراب ثم من نطفة .

والثانية : أنه ذلك المخلوق المكرم على سائر المخلوقات الأخرى .

أما عن الحقيقة الأولى فنقرأ الآيات الكريمة التالية :

قال تعالى: " فلينظر الإنسان مما خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب " (1) وقوله تعالى: " قتل الإنسان ما أكفره من أي شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره "(2)

وقوله تعالى: " إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا " (3)

وقوله تعالى : " ألم نخلقكم من ماء مهين " (4)

هذا في شأن الحقيقة الأولى ، وهي ضالة الإنسان ، أما عن الحقيقة الثانية ، وهي كونه

---

1) سورة الطارق : الآيات 5 ، 6 ، 7 .

2) سورة عبس : الآية 17 .

3) سورة الإنسان : الآية 2 .

4) سورة المرسلات : الآية 20

مكرما ، فنجدها مجسدة في الآيات التالية :

قال تعالى " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (1)

وقوله تعالى : " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة " (2)

وقوله تعالى في السورة نفسها :" وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس"(3)

وقوله تعالى : " علّم الإنسان مالم يعلم " (4)

ومن تآلف هاتين الحقيقتين يتكون الإنسان . وفي تركيز القرآن الكريم على هاتين الحقيقتين معا أثر تربوي كبير يجعل الإنسان يعرف قدره فلا يتأله ، ولاينزل إلى البهيمية ، ولا ينكمش وينطوي على ذاته ، وثمة دلالة أخرى هامة جدا ، وهي أن الإنسان لايقوم وحده ، ولايصلح (بجهالته هذه وضعفه وهواه ، لأن يتولى وضع منهج لحياته هو " (5)

فالحضارة الإنسانية المثلى التي نتحدث عنها ، قامت على الإنسان الذي عرف هاتين الحقيقتين وربي في ظلالهما وعاش يستلهم سلوكه منهما . فلا هو يطغى ولاهو يستكين للطغيان .

إن القرآن يربي الإنسان بغذاءين اثنين :

أحدهما ينمي فيه الشعور بضعفه وافتقاره الدائم إلى الله عز وجل ، وثانيهما ينمي فيه الشعور بعزته وكرامته وأهميته في الكون الذي خلقه الله فيه . ولايتهيأ الإنسان لقبول هذين الغذائين إلا بعد يقينه بوجود الله ربا واحد لاشريك له .

فإذا تكاملت هذه التربية في الإنسان ، فذلك هو رجل الحضارة الإنسانية في القرآن .

والأمة التي تتشبع بهذه التربية القرآنية ، يرتفع فيها المستضعفون عن ذلهم ، وينزل

---

1) سورة الإسراء : الآية 70 .

2) سورة البقرة : الآية 29

3) سورة البقرة : الآية 33

4) سورة العلق : الآية 4 .

5) سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ، ، دار الشروق ط 4 ، 1398 هـ ، ص 27 .

المستكبرون عن تسلطهم وطغيانهم ، ثم يتلاقون جميعا على سبيل معتدل من التعاون والتآخي ، ابتغاء مرضاة الله أولا ـ ثم ابتغاء عمارة الأرض وإنشاء حضارة إنسانية سليمة فوقها . والأدلة على صدق هذه القضية معروضة في القرآن الكريم . تجدها في حديث القرآن عن فرعون وقومه ، وعن سحرة فرعون قبل معرفة حقيقتهم وبعد معرفتها . وتجدها في حديث القرآن عن قوم صالح وعن قوم شعيب ...

يضاف إلى معرفة الإنسان لذاته ولمركزه ، معرفته الحياة التي يحياها ما هي ؟ وما قيمتها ؟ ومامآلها ؟ ومتى يجب الحرص عليها ومتى يجب التضحية بها ؟

ثانيا : تبصير القرآن الإنسان بالحياة التي يحياها :

اتخذ القرآن في تعريفه للحياة الموقف ذاته الذي اتخذه في تعريف الإنسان وبيان مركزه ووظيفته .

فكما أنه لفت نظر الإنسان إلى جانبين متباعدين ضمن ذاته وكيانه موضحا له أن التكامل الحقيقي لجوهره ، وكينونته إنما يتم بتلاقي هذين الجانبين وتمازجهما ، كذلك يلفت القرآن نظر الإنسان هنا إلى جانبين متباعدين من حقيقة الحياة الإنسانية . ثم يوضح أن التكامل الحقيقي لجوهر هذه الحياة لا يتم إلا من خلال تمازج هذين الجانبين في اعتبار الإنسان ويقينه .

إذن ، فالقرآن الكريم يقرر من جهة ـ أن الحياة الدنيا متاع قليل وتافه وقصير . ويقرر ـ من ناحية أخرى ـ أن حياة الإنسان مقدسة ولها حرمة ويجب صيانتها . ومن تمازج هذين الجانبين يدرك الإنسان حقيقة الحياة فلا يغالي ولا يفرط . فعن الجانب الأول من الحياة يقول القرآن الكريم :

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر ، في الأموال والأولاد ،

كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (1)

فهذه الآية الكريمة تقصر الحياة الدنيا وتحصرها في خمسة أمور : 1 ـ لعب ، 2 ـ ولهو ، 3 ـ وزينة ، 4 ـ تفاخر ، 5 ـ وتكاثر .

ثم يضرب لها مثلا بالزرع الذي يعجب الزراع ثم في الأخير يكون حطاما .

قال تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا » (2)

وقال تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» (3)

وقال تعالى : « لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » (4)

وقال تعالى : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا » (5)

وقال تعالى : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (6)

فالتقرير الواضح الذي تلتقي عليه هذه الآيات هو ضآلة الحياة الدنيا وقصرها بالقياس مع الحياة الأخرى . وهي ـ أي الحياة الدنيا ـ ليست أكثر من ممر أو معبر إلى الحياة الأخرى . و في هذه الآية ، تجد التحذير الشديد من الإغترار بزينة الحياة الدنيا .

قال سبحانه وتعالى :

« إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل

---

1) سورة الحديد : الآية 20 .
2) سورة الكهف : الآية 45 .
3) سورة العنكبوت : الآية 64 .
4) سورة آل عمران : الآية 197 .
5) سورة النساء : الآية 76 .
6) سورة الأعراف : الآية 23 .

الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناه حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (1)

قال ابن كثير : « ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أبّ وقضب وغير ذلك »(2)

وقال ابن القيم : « شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها إغترارا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها ، (3)

وعند التمعن في هذه الآية وأمثالها ومحاولة الخروج بموقف تجاه الحياة الدنيا وأسبابها ، لا شك أننا سنخرج بموقف ، وهو نبذها واطراحها ونفض اليدين منها .

وهو الخطأ الذي انحرف فيه بعض ممن وقفوا عند حدود هذه الحياة ومظاهرها ولم يصلوها بما يتمم بيان المقصود منها ، من آيات كثيرة أخرى . ففسروا الزهد على غير وجهه المطلوب ، ثم تعلقوا منه بصورة لم يأت بها الكتاب ولا أيدتها السنة ، إذ هجروا العمران وانساحوا في القفر من الأرض . فلو أن الناس جميعا شايعوهم في هذا الفهم لبطل معنى الأمر الإلهي ولعادت الأرض خرابا ، ولبطلت الحكمة من تسخير الله مكوناته المختلفة للإنسان .

قال دروزة : « يوجد في أذهان جمهور المسلمين في مختلف أنحاء الأرض صورة مشوهة عن تعاليم القرآن إزاء الحياة الدنيا جعلته يعتبرها من الوجهة النظرية والذهنية على الأقل حقرة لا نستحق الإهتمام والإنهماك ، ويفسر الآيات القرآنية في الإستخفاف بها تفسيرا من شأنه أن يحمله على نفض اليدين منها » (4)

---

1) سورة يونس : الآية 24 .

2) ابن كثير : التفسير ج 3 ص 495 ـ 496 .

3) ابن القيم : التفسير القيم ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ص 205 .

4) محمد عزة دروزة : الدستور القرآني في شؤون الحياة ، المكتب الإسلامي 1401 هـ ـ 1981م ، المجلد الأول ص 21

وقد كان لهذه الصورة المشوهة آثار سيئة في حياة المسلمين ومن هذه الآثار قبول الأمور الواقعة والاستسلام لها ، مهما كان فيها من المسكنة والخمول والانكماش عن الجد في العمل والكفاح والحركة في سبيل حياة حرة ماجدة .

« ونتج عن ذلك أيضا أن المغرضين من الأفرنج اتخذوا مظهر المسلمين هذا وسيلة للتحامل على الإسلام وتعاليمه ووصفهما بالجمود ، واعتبروا ذلك قضية مسلمة ، ولا سيما أنهم قد صاروا أصحاب السلطان في الأرض وتمكنوا من وسائل القوة والعلم ، وأن الناشئة الإسلامية قد تأثرت بدعايتهم ومذاهبهم استتباعا لأساليب ثقافتهم الحديثة ووسائلها فوقعت في إثم الظن بأن التعاليم الإسلامية عثرة في سبيل رفعة المسلمين وقوتهم وتقدمهم ... » (1)

أقول ، قد زال هذا الانبهار ، والحمد لله ـ بفضل الصحوة الإسلامية المنبعثة في مختلف الأقطار الإسلامية ..

وأعود بعد هذا الاستطراد فأقول : لكي لا نفهم ذلك الفهم القاصر والتصور الناقص لمختلف مظاهر الدنيا الذي فهمه البعض عند وقوفه مع تلك الآيات دون غيرها ، أقول لكي لا يحصل ذلك ، عاد الخطاب الإلهي فدعانا إلى التعامل مع الدنيا وهذه المكونات من حولنا ، ودعانا إلى الاستفادة منها ، بل حذرنا من التأثم من الاقدام إليها .

قال الله سبحانه وتعالى :

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (2)

قال ابن كثير في التفسير : « يقول الله تعالى ردا على من حرم شيئا من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع الله (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين

---

1) محمد عزة دروزة : الدستور القرآني في شؤون الحياة ص 24 .

2) سورة الأعراف : الآية 30 .

الذين يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم (من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) الآية . أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا وإن شاركهم فيها الكفار حسا في الدنيا . فهي لهم خالصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار » (1)

قال الرازي : « إن هذه الآية ظاهرها استفهام ، إلا أن المراد منه تقرير الانكار والمبالغة في تقرير ذلك الانكار » (2)

وقال صاحب المنار :

« وحب الزينة أعظم أسباب العمران ، واظهار استعداد الإنسان لمعرفة سنن الله وآياته في الأكوان ، فهي غير مذمومة لذاتها ، وإنما يذم الإسراف فيها والغفلة عن شكر المنعم بها ومن الإسراف فيها جعلها شاغلة عن عبادة الله وعن سائر معالي الأمور والكمالات الإنسانية ...(3)

وفي سورة المائدة يقول الله سبحانه وتعالي :

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » (4)

قال ابن كثير :قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي قالوا نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان فبلغ ذلك النبي فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا نعم : فقال : ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني » (5).

قال سيد قطب : « ... لقدخلق الله هذه الحياة لتنمو وتتجدد وترقى عن طريق النمو والتجدد المحكومين بمنهج الله ، والرهبانية وتحريم الطيبات الأخري تصطدم مع منهج الله للحياة » (6)

وفي سورة الإسراء يقول الحق سبحانه وتعالى :

---

1) ابن كثير : التفسير ص 162 .
2) الرازي : التفسير الكبير ص 63 .
3) رشيد رضا : تفسير المنار ص 390 .
4) سورة المائدة الآية 89 .
5) ابن كثير : التفسير ص 626 .
6) سيد قطب : الظلال ، ص 972 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » (1)

إن هذه الآية سمت الدنيا عاجلة وحذرت من الركون إليها ولكن القرآن أردف بعد هذه الآية أية أخرى تكمل الصورة . فقال تعالى :

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا »(2)

قال القرطبي : « اعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين . (وما كان عطاء ربك محظورا) أي محبوسا ممنوعا» (3)

قال سيد : « عطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه ، فهو مطلق تتوجه به المشيئة حيث تشاء»(4)

وفي سورة الملك يقول الحق سبحانه وتعالى :

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ...» (5)

ومجال الاستدلال هو ذيل الآية : فهو أمر إلهي موجه إلى الإنسان بأن يقبل إلي الأرض فيستخرج منها مكنوناتتها ويجني منها خيراتها ولا ريب أن هذا الأمر ينطوي على النهي عن نقيظ ذلك وهو الإعراض عن ذلك كله .

إن القرآن لم يقيد هذه الإباحة إلا بشيء واحد ، أن يشعرالإنسان بأنه مهما طال المدي فهو عائد إلي ربه ليقدم حسابا دقيقا عما صنع . القرآن يذكر الناس بالموت لا ليكفوا عن السعي أو يتوقفوا عن الحركة بل ليكون سعيهم رائداً وحركتهم رزينة .

إن العمل للحياتين : الدنيا والآخرة ، قد وصل الإسلام أطرافه وربط بعضه ببعض . »

---

1) سورة الإسراء : الآيتان 18 ـ 19

2) سورة الإسراء الآية 20 .

3) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج 10 ص 236 .

4) سيد قطب : الظلال ج 15 . ص 2219

5) سورة الملك : الآية 15

« فإذا رأيت طاقات معطلة وأعمال مهملة . وواجبات مهددة فثق أن الذي ضاع من الدين لا يقل عن الذي ضاع من دنيا الناس » (1)

وخلاصة القول أن الآيات التي أوضح الله سبحانه فيها هوان الحياة الدنيا وتفاهة مظاهرها لا ينبغي أن تفهم بمعزل عن الآيات الأخري التي بين فيها المولى عز وجل واجب الإنسان تجاه الحياة الدنيا وتجاه مختلف المظاهر الكونية .

لقد أكدت نصوص القرآن ما في هذه الحياة الدنيا من متاع وغرور ، إذا تناسى الإنسان حقيقته ، وجهل نفسه ، وفصل بين هذا العالم وبين حقيقته الكبرى ، وهي أنه من خلق الله وأن رحلة الإنسان فيه ليست إلا رحلة نحو عالم لا نهائي من السعادة أو الشقاء « وفي تاريخ الإنسانية أمم نسيت هذه الحقيقة ، واقتصرت فلسفتها للحياة على هذا الوجود الموقوت ففقدت بذلك المبدأ الأخلاقي والغائي الذي يقف وراء كل فعل تاريخي ناجح »(2)

* وعن الجانب الثاني من الحياة ـ والتقسيم هنا للبيان والتوضيح ليس إلا ـ وهو قداستها وحرمتها عند الله يقول القرآن :

قال تعالى : « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » (3)

وقال عز وجل : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (4)

وقال عز وجل : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » (5)

وقال عز وجل :

«ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما »(6)

---

1) محمد الغزالي : الإسلام والطاقات المعطلة . ص 25 .

2) عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية دار النهضة ، بيروت الطبعة الثالثة 1981 ص 282 .

3) سورة المائدة الآية 35 .

4) سورة البقرة : الآية 194 .

5) سورة البقرة : الآية 178

6) سورة النساء : الآية 92 .

فهذه الآيات تضع الحياة الإنسانية في إطار من القداسة والرعاية والأهمية .

وحين يدرك الإنسان حقيقة الحياة التي يحياها على هذا الوجه الذي وضحه القرآن فسيستغلها ويسخرها التسخير الأمثل ، وستكون عنصرا هاما في بناء حضارة سليمة .

ثالثا : تبصير القرآن الإنسان بحقيقة الكون :

يبصر القرآن الإنسان بالحقائق الكونية من جهتين بينهما تلاحم : الجهة الأولى : أن الكون مسخر لخدمة الإنسان لكي يؤدي وظيفته التي خلقه الله من أجلها . وقد مر الحديث عن هذا في الفصل الثاني من هذه الرسالة .

الجهة الثانية : ينبه القرآن الإنسان إلى قيمة الكون ومدى أهميته من أجل أن يعرف الإنسان قدر هذا الكون بمظاهره المختلفة فلا يركن إليها ركون الأبد ، ولا يفر منه إلي الكهوف ، . وإنما يقبل عليه إقبال الحاكم على الأمر المستخدم له طبق نظام معين ، وضمن حدود مرسومة ، ومن أجل الوصول إلى هدف مقدس .

فإذا ربي الإنسان على هذه التبصرة القرآنية ، فإنه مهما تذوق من نعيم الدنيا ألوانا . فلن تسكره ولن تنسيه وظيفة العبودية ، ولن تنسيه النعيم الأكبر الذي ينتظره في الحياة الأخرى .

فالإنسان الذي ينشأ في ظل هذا التصور الكامل عن الكون ، هو الذي يبني حضارة إنسانية مثلى .

ـ أثر تلك التبصرة القرآنية من واقع الرعيل الاول من المسلمين :

لقد كان من أبرز الآثار الحضارية لإتباع هذا المنهج والانصباغ به ، عند الرعيل الأول من المسلمين ، أن أحدهم كان يقبل إلى الحياة إقبال العارف بها ، المستأنس بها مهما

كانت الظروف، فلم يكن يتبرم بها لضيق ألم به ، ولم يكن ينتشي بها أو يلهث وراءها للذة نالته منها . لقد فهمها ـ كما حدثه القرآن ـ جسرا إلى غاية ، وفرصة لأداء مهمة ، وليست هدفا بذاته .

والدليل على صدق هذه الحقيقة أولئك الرجال الذين رباهم القرآن فإننا لا نكاد نعثر على رجل منهم تبرم بالحياة لألم أصابه أو مرض سكن جسمه أو خطب نزل به ، بل كان الواحد منهم يستقبل الموت مبتسما ، والداء راضيا . وكمثال على هذا الأمر (عمران بن الحصين) الذي لم يذق من حياته سوى مرارة البؤسروالألم ، فلقد أثبته المرض على سريره قرابة ثلاثين عاما دون أن يفارق البشر وجهه ، ولما رأى أخاه (العلاء) يبكي مرة عنده قال له : لم تبكي ؟ قال : لهذه الحال التي أنت فيها ، قال : لا تبك ، فإن أحبه إلى الله أحبه إلي.

وليس هذا نموذجا واحدا فريدا ، بل أصحاب رسول الله صلى اله عليه وسلم كلهم نماذج لذلك ، ولم نسمع في التاريخ أن رجلا من هؤلاء الذين رباهم القرآن ، وضع حدا لحياته بالانتحار مهما كانت الظروف . لقد تجلت آثار الحضارة الإنسانية المثلى التي بنيت وفق التبصرة القرآنية في شتى المجالات :

- في الصبر على الشدائد
- في أداء الحقوق المالية
- في الإعتراف بالجريمة وتحمل العقوبة
- في رعاية القوانين والأمانات
- في التجارة والمعاملة .
- في المواساة والإيثار
- وفي السياسة والحكم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وليس هذا الكلام خيال شاعر ، بل هو أمر واقع سجله التاريخ وأخبرت عنه الكتب الضحاح .

فمن شواهد الصبر على الشدائد ، موقف عروة بن الزبير أحد فقهاء التابعين .، فقد رووا أن رجله وقعت فيها (الأكلة) فقرر الأطباء قطعها حتى لا تسري إلى ساقه كلها ثم إلى فخذه . فطابت نفسه بنشرها فعرضوا عليه أن يسقى شيئا يغيب عقله حتى لا يحس بالألم ويتمكنوا من قطعها فقال : ما ظننت أن أحدا يؤمن بالله يشرب شيئا يغيب عقله حتى لا يعرف ربه عز وجل ، ولكن هلموا فاقطعوها ، فقطعوها من ركبته ، وهو صامت لا يتكلم ، ولا يعرف أنه اشتكى . وروي أنه في هذه الليلة التي قطعت فيها رجله سقط ابن له ـ كان أحب أولاده إليه ـ من سطح فمات ، فدخلوا عليه فعزوه ، فقال : اللهم لك الحمد ، كانوا سبعة فأخذت واحدا وأبقيت ستة ، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحدا ، وأبقيت ثلاثة . فإن كنت أخذت فلقد أعطيت، ولئن كنت قد ابتليت فلقد عافيت .

وفي أداء الحقوق المالية أذكر هذه الواقعة :

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : بعثني النبي صلى الله عليه وسلم مصدقا ـ أي جابيا للزكاة ـ فمررت برجل ، فلما جمع لي ماله ـ من الأنعام ـ لم أجد عليه فيه إلا بنت مخاض . فقلت له : أد ابنة مخاض فإنها صدقتك . فقال : ذاك مالا لبن فيه ولا ظهر ، ولكن هذه ناقة فتية عظيمة سمينة فخذها . فقلت له : ما أنا بآخذ ما لم أؤمر به ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريب منك ، فإذا أحببت أن تأتيه فتعرض عليه ما عرضت علي ، فافعل فإن قبله منك قبلته ، وإن رده عليك رددته . قال فإني فاعل .

فخرج معي ، وخرج بالناقة التي عرض علي حتى قدمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا نبي الله أتاني رسولك ليأخذ مني صدقة مالي وأيم الله ما قام في مالي

رسول الله ولا رسوله قط قبل ، فجمعت له مالي فزعم أن ما علي فيه ابنة مخاض ، وذاك ما لا لبن فيه ولا ظهر وقد عرضت عليه ناقة فتية عظيمة ليأخذها فأبى علي وها هي ذه قد جئتك بها يارسول الله خذها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك الذي عليك ، فإن تطوعت بخير أجرك الله فيه وقبلناه منك .

قال : فها هي ذي يا رسول الله . قد جئتك بها فخذها .

قال : فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبضها ، ودعا في ماله بالبركة (1)

فتأمل أمانة الرجال الذين رباهم الرسول الكريم وفق التبصرة القرآنية .

وفي الاعتراف بالجريمة وتحمل العقوبة نذكر القصة التي رواها مسلم : « عن أبي نجيد عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنهما أن امرأة من جهينه أتت رسول الله وهي حبلى من الزنى ، فقالت يا رسول الله أصبت حدا فأقمه علي ، فدعا النبي وليها فقال : أحسن إليها فإذا وضعت فأتني ، ففعل . فأمر بها نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت . قال : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل » (2)

وكذلك فعل (ماعز بن مالك) الذي وقع في الفاحشة في فترة من فترات الضعف البشري ، فقد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد تطهير نفسه مطالبا بتنفيذ الحد عليه . وحاول النبي أن يدرأ عنه الحد بالشبهات فقال له : لعلك قبلت ، والرجل مصر على الإعتراف بخطيئته ، مصر على التطهر منها .

وفي رعاية القوانين والأمانات نقرأ تلك القصة المشهورة التي تحكي حكاية الأم وابنتها : الأم تريد أن تخلط اللبن بالماء ، والبنت تذكرها بمنع أمير المؤنيين عمر بن الخطاب .

الأم تقول : أين نحن من أمير المؤمنيين . والبنت ترد : إن كان أمير المؤنين لا يرانا ، فرب عمر أمير المؤمنين يرانا (3)

---

1) روى هذه القصة أبو داود .

2) رواه مسلم وأخرجه ابو داود والترمذي والنسائي وأحمد .

3) انظر : الإيمان والحياة ، د . يوسف القرضاوي ص 236 .

وهذا موقف آخر :

قال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق فانحدر بنا راع من الجبل فقال له عمر : يا راعي بعنا شاة من هذه الغنم فقال إني مملوك . فقال عمر اختبارا له : قل لسيدك أكلها الذئب ، فقال الراعي : فأين الله! فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا مع المملوك فاشتراه من مولاه واعتقه ، وقال : أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

وفي مجال السياسة والحكم ، وهو المجال الذي يغري بالحيف والغرور والطغيان ، قص علينا التاريخ أمثلة شامخة لخلفائنا المهديين في العدالة الكاملة التي لا تعرف التحيز لقريب أو تتحيف على عدو ، وفي المساواة القانونية التي لا تعرف الفوارق ، وفي الزهد الذي يعرض عن الدنيا (وفي يده البيضاء والصفراء ، والقوة والسلطان) (1)

وما موقف عمر بن الخطاب (عام الرمادة) بخاف على الدارس للتاريخ الإسلامي ، وهذا علي بن أبي طالب يقول له جعد بن هبيرة : يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان ، أنت أحب إلى أحدهما من أهله وماله ، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك ، فتقضي لهذا على هذا . قال : فلهزه علي وقال : إن هذا شيئ لو كان لي لفعلت ، ولكن إنما ذاك شيئ لله » (2)

وفي التجارة والمعاملة ، يروي أبو حامد الغزالي عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بخمسة دراهم وبعضها بعشرة فباع غلامه في غيبته لأعرابي شقة من الخمسينات بعشرة فلما عاد ابن المنكدر وعرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة . فقال الأعرابي : يا

---

1) يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ص 239 .

2) يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ص 239 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا قد رضيت . قال : وإن رضيت فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا ، فاختر إحدى ثلاث خصال : إما أن تأخذ شقة من العشريات ، بدراهمك ، وإما أن نرد عليك خمسة ، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك ، فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي (1)

ويتجلى بوضوح أثر الحضارة الإنسانية المثلى التي ضيعت على هدي من التبصرة القرآنية في مجال المساواة ، والإيثار بالمال والنفس .

روى ابن سعد في طبقاته أن عبد الرحمن بن عوف باع لعثمان بن عفان أرضا بأربعين ألف دينار ، فقسم ذلك في الفقراء من أقاربه ، وفي ذي الحاجة من الناس ، وفي أمهات المؤمنين (2).

وبعث معاوية بن أبي سفيان بثمانين ألف درهم إلى عائشة رضي الله عنها ، وكانت صائمة وعليها ثوب خلق ، فوزعت المال في ساعتها على الفقراء والمساكين ولم تبق منه شيئا فقالت لها خادمتها : يا أم المؤمنين ما استطعت أن تشتري لنا لحما بدرهم تفطرين عليه ؟ فقالت يا بنية لو ذكرتني لفعلت (3)

وأخذ عمر بن الخطاب أربعمائة دينار ، فجعلها في صرة ثم قال لغلامه : اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح ، ثم تله في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فذهب بها الغلام إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك . فقال : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالي يا جارية ، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره ، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال اذهب بها إلى معاذ وتله في البيت حتى تنظر ما يصنع ، فذهب بها إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين ، اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال رحمه الله ووصله ، تعالي يا جارية ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا و اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، اذهبي إلى بيت

---

1) الغزالي أبو حامد : الإحياء ، دار القلم بيروت ط 1 كتاب آداب الكسب ج 2 ص 73

2) يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ص 246 .

3) رواه الحاكم في المستدرك .

فلان بكذا ، فاطلعت امرأة هي امرأة معاذ وقالت : نحن والله مساكين ، فاعطنا ، فلم يبق في الخرقة إلا ديناران فرمى بهما إليها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره ، فسر بذلك وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض(1)

ولا تحسبن أن هذه كانت حوادث فردية ، لا تصور حقيقة المجتمع كله ، فإن أمثال هذه المواقف كثيرة جدا ، وهي تصور بحق روح المجتمع واتجاهه وفلسفته ونظرته إلى المال والحياة .

إن ذلك الجيل الذي أصغى بكل كيانه إلى التبصرة القرآنية ، بدأ فصحح مفاهيمه المغلوطة عن الإنسان وهويته ، ثم انتقل بعد ذلك فصحح أغلاطه عن تصوره لمعنى الحياة التي يتمتع بها، ثم تعرف على حقيقة المكونات التي تطوف من حوله ، وتنبه إلى العلاقة القائمة بينه وبينها ، فكانت النتيجة حضارة باسقة متوازنة أسعدت أهلها .

« فالحضارة في جوهرها وحقيقتها ليست أكثر من ثمرة التفاعل الذي يتم على نحو ما بين الإنسان والكون والحياة ، تصورا أولا ، وسلوكا ثانيا . ثم إنها تصلح أو تفسد أو تتردد بين طرفي الصلاح والفساد ، بمقدار ما يكون ذلك التفاعل الثلاثي سديدا أو غير سديد . أي بمقدار ما يكون فهم الإنسان لتلك العناصر الثلاثة والعلاقة القائمة بينها فهما صحيحا أو غير صحيح»(2)

انطلاقا من ذلك التصور السليم ، والمعرفة التامة بهوية الإنسان وحقيقة الحياة وقيمتها وحقيقة الكون ، وعلاقة هذه العناصر ببعضها ، كانت الحضارة الإسلامية ـ وستظل ما ظل التصور الآنف الذكر قائما ـ حضارة قائمة على أساس رباني . عقيدي أخلاقي ، فجميع نظمها ومنجزاتها تنبعث فيها تلك الروح الإيمانية الأخلاقية المرتبطة أولا وأخيرا بالعبودية لصاحب الخلق والأمر سبحانه وتعالى .

---

1) رواه الطبري في الكبير .

2) البوطي : حوار حول مشكلات حضارية الدار المتحدة ، مكتبة رحاب ، الجزائر ط 3 1990 ص 72 .

وقد أفاض العلماء في تبيان هذه الحقيقة عند حديثهم عن خصائص الحضارة الإسلامية ومميزاتها .

إنها حضارة إيمانية منبثقة عن أصول عقيدة مستمدة من منهج عملي إلهي . ثم هي حضارة ملتزمة صاغها مجتمع ملتزم بشريعة الله . تلك الشريعة الخاتمة التي حوت التصور الكامل للوجود ومن فيه . ثم إنها حضارة تميزت بتقابل فذ بين الأصالة والإنفتاح، بين القدرة على حماية الذات من التفكك والتغير والانحلال وبين الاستعداد الدائم لقبول القيم والخبرات من الغير وهضمها وتمثلها .

وهي حضارة التوازن الفريد الذي يعد ملمحا من ملامح هذه الحضارة وأكثرها خصوصية وارتباطا بشخصيتها الإسلامية . ذلك التوازن الملاحظ في كافة الاتجاهات وعلى كافة الجبْهات .« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (1)

(والوسطية هنا ليست موقعا جغرافيا أو مكانا محددا من قارات العالم . ولكنه موقف عقيدي، واستراتيجية عمل ، ورؤية نافذة لموقع الإنسان في الكون والعالم ... إنه القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال » (2)

« إنها الحضارة التي قدرت انطلاقا من رؤيتها هذه ، أعلى أن تجمع في كلٍّ متناسق واحد : الظاهر والباطن ، والحضور والغياب ، والمادة والروح ، والقدر والإختيار ، والضرورة والجمال ، والطبيعة وما وراء الطبيعة ، والتراب والحركة ، والوحدة والتنوع ، والأخلاقية والمنفعية ، والفردية والجماعية ، والعدل والحرية ، والوحي والتجريب ، والدنيا والآخرة ، والفناء والخلود .» (3)

ثم هي بسبب هذه الخصائص جميعا ، حضارة إنسانية ، بمعنى أنها جاءت لكي تتعامل مع الإنسان وتكون بحجمه ، وتستجيب لمطامحه ومنازعه ودوافعه واهتماماته وأشواقه ، على أنه إنسان ، وليس إلها ، ولا حيوانا ، ولا آلة صماء ، إنسان عبد لله خلقه وسخر له

---

1) سورة البقرة الآية 143 .

2) د ـ عماد الدين خليل : مؤشرات حول الحضارة الإسلامية ص 64 .

3) عماد الدين خليل : مؤشرات الحضارة الإسلامية ص 64

الكون ، وجعله خليفة في الأرض وفق منهجه الذي رسم .

الدورة الحضارية :

هل للحضارة عمر كعمر الإنسان ؟

حاول المفكرون مع اتجاهاتهم المختلفة دراسة أسباب نمو الحضارات وكيفيته وأسباب اندثارها . ويمكن للدارس أن يلاحظ ثلاثة أنماط من النظريات هي خلاصة آراء جل المفكرين ، وهذه النظريات الثلاثة التي حاولت تفسير أو تحليل حركة التاريخ الحضاري هي:

1 ـ حركة التقدم الصاعد بمعنى أن التاريخ يلتزم مسارا مستقيما على طريق التقدم الصاعد إلى الأمام .

لقد نشأت فكرة التقدم الصاعد لحركة التاريخ الحضاري منذ وقت طويل وشاعت على ألسنة كثير من الفلاسفة الذين يميلون إلى تأكيد الفعل الإنساني وانجازاته في التاريخ . وكان من روادها (بيكون) و (ديكارت) و (أوغست كونت)

ويرى أصحاب هذه النظرية أن التقدم عملية تراكمية لأن المعاصر يفوق أسلافه بما يضيفه إلى ما ورثه في جميع الميادين . « وقد واجهت هذه النظرية كثيرا من النقد ، بعضه يتصل بمنهج أصحابها في البحث ، وبعضه يتصل بالقيم التي صدروا عنها » (1)

2 ـ حركة النكوص المتدهور :

وهي على عكس النظرية الأولى . فإذا كان هناك من يقول بفكرة التقدم الصاعد بالإنسانية ، فهناك من يقول بالنكوص ، ولكن هذه الفكرة لم تشع على ألسنة كثير من الفلاسفة كما شاعت على ألسنة العامة . وهذه النظرية يرى البعض أنها نظرية تشاؤمية . ومن رواد هذه النزعة (جيتيه) الذي يقول : « لقد صار الإنسان أكثر ذكاءا ووعيا

---

1) عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية ص 177 .

ولكنه لم يصبر أكثر سعادة وأنبل خلقا » (1) و(ادوارد كربنتز) في قوله عن المدنية الحديثة : (أنها مرض مكتوب ،على جميع الأجناس البشرية أن تبرأ منه ، كما يبرأ الأطفال من مرض الحصبة أو السعال الديكي بعد عناء) (2).

وتشتد نزعة التشاؤم عند بعض الفلاسفة أمثال (اشبنجلر) و (ألبرت شفيترز) اللذين يريان في الحضارة الحديثة عالما صناعيا آليا خاليا من الروح والحياة والقيم الأخلاقية .

3ـ حركة التعاقب الدوري أو الدورات الحضارية للتاريخ :

هناك فريق ثالث يرى أن حركة التاريخ الحضاري تتمثل في شكل دورات حضارية ، قد تكون مغلقة ، وقد تكون مفتوحة يفضي بعضها إلى بعض .

و يعد (ابن خلدون) و(فيكو) و(شبنجلر) و(توينبي) أشهر أعلام هذه النظرية على التحقيق ، على الرغم من الإختلاف بينهم في تفصيلات النظرية وأبعادها الإجتماعية والتاريخية والفلسفية .

والقاسم المشترك بين هؤلاء هو أن للحضارة عمرا كعمر الإنسان . وبالتالي القول بجبرية مسيرة التاريخ الحضاري . وقد تأثر بهذه النظرية كثير من الباحثين المعاصرين من المسلمين وسموها (سنة التداول) (3) مستأنسين بقوله تعالى : (وتلك الأيام نداولها بين الناس)(4)

يقول المودودي : (لا تزال أحداث هذا العالم تجري وتتحرك فيما يشبه حركة دورية . فالولادة والموت، والشباب والشيخوخة ، والقوة والضعف ، والربيع والخريف ، والنضارة والذبول ، كل أولائك وجوه مختلفة لتلك الحركة الدورية ... تلك سنة الله فيما خلق ، وهذه السنة كما هي جارية في سائر الموجودات ، هي جارية أيضا في الإنسان ، سواء في حالته الفردية أو في حالته الجماعية) (5)

---

1) عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية ـ ص 179 .

2) عفت الشرقاوي : المرجع السابق ، ص 180 .

3) تجد هذا عند أبي الأعلى المودودي ، وعند الشيخ الغزالي في كتابه كيف نتعامل مع القرآن .

4) سورة آل عمران الآية 140 .

5) أبو الأعلى المودودي نحن والحضارة الغربية ـ دار الفكر ـ ص 72 .

وكتب محمد الغزالي تحت عنوان " الأمم بين النماء والفناء " يقول : « للأمم أعمار تنتهي عندها كما أن للأفراد أجال تحسم حياتهم » (1) واستشهد بقوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » (2)

لكن الشيء الملاحظ عند الكتاب المسلمين الذين استعملوا مصطلح (الدورة الحضارية) أنهم لم يقولوا بحتمية هذه الدورة . فالغزالي (محمد) . قال عقب استشهاده بقوله تعالى « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » :

(ما معنى أن يكون للأمم كتاب ؟ وأن يسبق لها أجل ؟ هل معنى ذلك أن يميت الله أمة توفرت بين بنيها خصائص الحياة ؟ أو أن القدر يعترض مسيرة إحدى الأمم الناهضة فيوفقها ويجيئ إلى أخرى كسيحة فيسعفها ؟

كلا ! فالأجل المحتوم يطرد مع قوانين الأسباب والمسببات ، بل هو واحد منها ، فالأمة التي تستجمع عناصر الخلود يطول في الأرض بقاؤها والأمة التي تستعجل دواعي الفناء لا تلبث أن تطيح مع الأمس الذاهب » (3)

والله عز وجل لا يحكم على أمة بالدمار إلا إذا قل خيرها وكثر شرها وعز صلاحها وتحول بقاؤها إلى ضرر بالحياة العامة ومستقبل البشر جميعا .

وجراثيم الفناء التي تنخر في هذه الأمة هي الظلم والبطر والترف ، مصداقا لقوله تعالى : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » (4)

ويقول الأستاذ عمر عبيد حسنة في مدارسة أجراها مع الشيخ الغزالي : « الناس

---

1) عفت الشرقاوي في فلسفة الحضارة الإسلامية ص 179

2) عفت الشرقاوي نفس المرجع ص 180

3) تجد هذا عند أبي الأعلى المودودي ، وعند الداعية محمد الغزالي في كتابه كيف نتعامل مع القرآن

4) القصص الآيتان [illegible]

الذين يعتنون بالجانب المادي ، تكلموا عن الدورات الحضارية : ظهور الحضارة ، ثم ذبولها وانقضائها .. ولو استقرأ الإنسان تاريخ الحضارات لا يجد أن ما سمي بالدورات الحضارية ينطبق على حال الأمة الإسلامية . . في سيادة الأمم وإبادتها ، ترى أن كثيرا من الحضارات في التاريخ سادت ثم بادت وانتهت ... بينما تجد عملية النهوض والسقوط بالنسبة للأمة الإسلامية ـ إذا استقرأنا التاريخ ـ لم تخضع تماما في جوانب حياتها كلها لهذه السنة من الدورات الحضارية»(1) وهذا يعطي خصوصية للحضارة الإسلامية بسبب الوحي . بسبب ذلك التصور السليم والتعامل الصحيح مع الكون والحياة الذي تحدثت عنه سابقا . فالحضارة الإسلامية تتوقف عن العطاء بسبب سوء التعامل مع منهج الله ، ولكنها لا تموت ولا تندثر (فخميرة النهوض) موجودة في القرآن الكريم .

ويمكن أن أقول بأن الحضارة الإسلامية لا تماثل سائر الحضارات وبالتالي لا تشترك معها في تلك الدورة التي يشير إليها الباحثون .

ومن الباحثين الذين رفضوا الدورة الحضارية عند « شينجلر » بالخصوص الدكتور رمضان البوطي في كتابه " منهج الحضارة في القرآن " واعتبر ذلك زعما سخيفا يؤدي بالباحثين إلى عدم التفتيش عن العلل والأسباب التي تنمو بها الحضارة أو تسقط .إن المسألة في رأي البوطي ـ تكمن في أن ثمة شرطا أساسيا ، وعلى جانب كبير من الأهمية والصعوبة معا ، إن أفلحت أمة ما في تطبيقه على وجهه الصحيح بصدد انهماكها في إنشاء الحضارة الإنسانية ، فسيتحقق لها من ذلك الشرط ما يدفع حضارتها في طريق سليم إلى الذروة ، ثم إنه سيتحقق لها من ذلك الشرط نفسه ما يحصن حضارتها و يحميها من كل آفة وضعف . وستبقى تلك الحضارة شابة قوية ما بقي ذلك الشرط في مركز العناية والتنفيذ على وجهه السليم . هذا الشرط هو « أن يمارس الناس دنياهم وأسباب عيشهم بدافع وظيفي لا بدافع التعلق أو التعشق النفسي » (2)

---

1) عمر عبيد حسنة . كيف نتعامل مع القرآن ص 126

2) البوطي منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص 114

ولن يتحقق ذلك إلا بعد اليقين بوجود الخالق ، ثم الإصغاء إليه وإلى بياناته عن حقيقة الإنسان وحقيقة الحياة وحقيقة الكون وقيمته .

ولن يكون ذلك إلا بالإسلام منهجا للحياة .

أما إذا بنت الأمم حضارتها بدافع النهم النفسي المتعلق بالحياة الدنيا فقط ، فلا بد - حينئذ - أن ينشأ عن السباق صراع ، وأن ينشأ عن الصراع خصومات وحروب . وعندئذ تمر الحضارة بالمراحل التي حسبها البعض طبيعة فيها ، وما هي كذلك .

فالحضارة بحد ذاتها لا تشيخ ولا تهرم ، ولكن الذي قد يتبدل ويتغير و يشب ويشيخ هو الإنسان ، فالحل كامن في النظر إلى حال رواد الحضارة وحراسها وبناتها وموقفهم الثابت أو المنحرف من تصورهم للإنسان والحياة والكون .

والخلاصة : أنه إذا صح أن للحضارات دورات تاريخية تمر بها ، فإن هناك استثناء هذا الإستثناء يخص الحضارة الإسلامية .

والسبب واضح ، لأنها حضارة آخر رسالة من رب العالمين كتب لها الصون والخلود وهي الرسالة التي يجد فيها الإنسان التصور الصحيح للعالم وعلاقته بالخالق عز وجل .

ويجد فيها الإنسان هويته ووظيفته ومركزه من الكون . ويجد فيها حقيقة الحياة وقيمتها . ويجد فيها حقيقة الكون وقيمته .

فلما كانت الحضارة الإسلامية مبنية على هذا التصور الشامل الصحيح المنبثق عن الرسالة الخاتمة المصونة من التحريف ، كان لزاما أن لا تخضع الحضارة الإسلامية للدورات الحضارية التي يتحدث عنها أصحاب هذا الفن .

هذه ملامح الحضارة الإنسانية في ظل التصور القرآني .

فما هي ملامح الحضارة في غياب هذا التصور القرآني ؟ ذلك ما أتناوله في المبحث التالي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني :

ملامح الحضارة في غياب التصور القرآني للكون والإنسان والحياة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني :

ملامح الحضارة في غياب التصور القرآني للكون والإنسان والحياة .

إن إنشاء الحضارة يشبه إلى حد ما ، تركيبة كيماوية يعكف على تحضيرها متخصص من مجموعة عناصر .

فكما أن نجاح هذه التركيبة متوقف على مدى معرفة المتخصص القائم بذلك ، لطبيعة تلك العناصر وخصائصها . فكذلك السعي إلى حضارة مثلى متوقف على معرفة تامة لعناصر الحضارة . تلك العناصر المتمثلة في الإنسان ، والكون والحياة .

فهل الحضارة القائمة اليوم . استوعبت حقيقة كل من الإنسان والكون والحياة ؟

لقد مر ، في الفصول السابقة أن التصور القرآني للكون والإنسان والحياة ، مغاير تمام المغايرة للتصور الغربي للكون والإنسان و الحياة .

وهذه المغايرة أثمرت حضارة مصبوغة بصبغة ذلك التصور .

ـ طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها .

الحضارة الغربية سليلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية خلفتهما في ثراتهما السياسي والعقلي والمدني ، وورثت عنهما كل ما خلفتا من ممتلكات ونظام سياسي ، وفلسفة اجتماعية وتراث عقلي وعلمي ، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما .(1)

ومن الخصائص التي تمتاز به الحضارة اليونانية :

1ـ الإيمان بالمحسوس

2ـ قلة التدين والخشوع

---

1) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ط 5 ، دار الشهاب ص 223 .

3ـ شدة الإعتداد بالحياة الدنيا والإهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها .

4ـ النزعة الوطنية (1)

ويمكن حصر هذه الخصائص في كلمة واحدة هي (المادية)

وقد ورثت الحضارة الغربية التي هي سليلة الحضارة اليونانية هذه (المادية) ، وقد اعترف رجالها بذلك .

وقد نقل الندوي عن الدكتور (هوس) قوله :"المدنية اليونانية هي مركز المدنية الغربية الحاضرة"(2)

وكان المثل الكامل عند رجالها الجسم الجميل ، وليس هذا إلا اعتدادا كبيرا بالمحسوسات.

والظاهرة التي تمتاز بها الروم بين الأمم ، هي روح الاستعمار والنظر المادي البحت إلى الحياة ، وذلك ما ورثته أوروبا المعاصرة عن سلفها الرومين وخلفتهم فيه .

ولم يكن تنصر الروم إلا قشرة سطحية ، خسرت فيها النصرانية أكثر مما ربحت ، فلم تستطع هذه النصرانية الملحقة بالوثنية المشوهة التي فقدت روحها وجمالها أن تغير من سيرة الروم المنحطة وأن تبعث فيهم حياة جديدة ، حياة دينية نقية طاهرة ، بل إنها ابتدعت رهبانية لعلها كانت شرا على الإنسانسة والمدنية من بهيمية روما الوثنية . (3)

ولعل تلك الرهبانية القاتلة هي التي دفعت أوروبا إلى التنكر للدين ومعاداته معاداة شديدة . وكانت القطرة التي أفاضت الكأس هي اضطهاد الكنيسة للعلم ورجاله ، الأمر الذي جعل الغرب يتجه إلى المادية الصرفة .

فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون في الكون نظرا مؤسسا على أنه لا خالق ولا مدبر ولا آمر ، وليس هناك قوة وراء الطبيعة والمادة تتصرف في هذا العالم وتحكم

---

1) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ص226

2) أبو الحسن الندوي : المرجع السابق . ص226

3) أبو الحسن الندوي : المرجع السابق . ص 238 .

عليه وتدبر شؤونه ، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعي ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكي بحت ، وسموا هذا نظرا علميا مجردا ، وسموا كل بحث وفكر يعتقد بوجود إله ويؤمن به طريقا تقليديا لا يقوم عندهم على أساس العلم والحكمة ، واستهزؤوا به ، واتخذوه سخريا ، ثم انتهى بهم طريقهم الذي اختاروه وبحثهم ونظرهم إلى أنهم جحدوا كل شيء وراء الحركة والمادة ، وأبوا الإيمان بكل ما لا يأتي تحت الحس والاختبار ، ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة ، فأصبح بحكم الطبيعة وبطريق اللزوم . الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة من قبل المفروضات التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم .

وكان لهذه المادية في أوروبا دعاة وجنود من الكتاب والمؤلفين والأدباء والإجتماعيين والسياسيين والفلاسفة ، فأصبحت الحياة في أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين نسخة صادقة من الحياة في اليونان وروما الوثنيتين الجاهليتين . (1)

"إن الرجل العادي في أوروبا ديمقراطيا كان أو فاشيا ، رأسماليا كان أو اشتراكيا، عاملا باليد أو رجلا فكريا ، إنما يعرف دينا واحدا ، وهو عبادة الرقي المادي ، والإعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل" . (2)

ونتيجة هذه النهامة للقوة ، والشره للذة ، هو ظهور طوائف متنافسة مدججة بالسلاح والاستعدادات الحربية ، مستعدة لإبادة بعضها بعضا إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها :

وقد بلغ النظر المادي والفكري المادي في أوروبا درجة الإستغراق فيه والفناء ونسيان ما سوى القيم المادية ، حتى أن " كارل ماركس" يرى أن النظام الإقتصادي هو روح الإجتماع، وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون كلها انعكاس لهذا النظام الإقتصادي.

إن الحضارة القائمة اليوم ، والتي انطلقت من تصور مادي ملحد ، خلطت بين الوسائط

---

1) ابو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ص 253

2) ابو الحسن الندوي : المرجع السابق . ص 258

والغايات ، فجعلت الوسائط والوسائل غيات ، هذه الحضارة التي غاب عنها منهج الله ، فاعتقدت أن ليس للإنسان وراء اللذة والراحة والإنتفاع المادي والعلو في الأرض وبسط السيطرة عليها والتغلب على أهلها والإستئثار بخيراتها وخزائنها ، مقصد ولا غاية ، فاستعملت القوة والعلم في حصول اللذات والتغلب على الناس وقهر المنافسين ، وتنافست في اختراع الآلات التي ينال بها الوطر . هذه الحضارة ينطبق عليها قول الله تعالى "ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم" .

وللأستاذ المودودي كلام نفيس في وصف منطلق الحضارة الغربية ونتائجها : أرى أن أثبته بنصه :

قال : " .... إنهم بدأوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية ، نظروا في الكون على أنه ليس له إله، نظروا في الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس ، وليس وراء هذا الستار الظاهر شيء ، إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختبار والقياس ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها ، إنهم وجدوا الموجودات مسخرة واستخدموها لأغراضهم ، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومدبريها ، بل هم خلفاء سيدها الحق ، فلم يروا أنفسهم مسؤولين عنها ، ولم يروا على أنفسهم عهدة وتبعة ، فاختل أساس مدنيتهم وتهذيبهم وانصروفوا عن عبادة الله إلى عباة النفس ، واتخذوا إلههم هواهم ، وفتنتهم عبادة هذا الاله وسارت بهم هذه العبادة في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق زائغة خلابة رائعة ، ولكن مصيرها إلى الهلاك .

والحاصل أن البذرة الخبيثة التي ألقيت في تربة أوروبا في نهضتها لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة ، ثمارها حلوة ، ولكنها سامة ....

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها وأصبحوا يتذمرون منها: لأنها خلقت في كل ناحية من نواحي حياتهم مشاكل وعقد لا يسعون لحلها إلا وظهرت

مشاكل جديدة، ولا يفصلون فرعا من فروعها إلا وتطلع فروع كثيرة ذات شوك ، فهم في معالجة أدوائهم وإصلاح شؤونهم كمعالج الداء بالداء ، وناقش الشوكة بالشوكة .

إنهم حاربوا الرأسمالية فنجمت الشيوعية ، إنهم حاولوا أن يستأصلوا الديمقراطية فنبعت الدكتاتورية ، وأرادوا أن يشرعوا قوانين لاستئصال المفاسد الخلقية فاشرأبت حركة العصيان والجناية ، فلا ينتهي شر إلا إلى شر ، ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه .

ولا تزال الشجرة تثمر لهم شرورا ومصائب ، حتى صارت الحضارة الغربية جسدا مقروحا يشكو من كل جزء أوجاعا وآلاما ، وأعيى الداء الأطباء ، واتسع الخرق على الراقع"(1)

والأمم الغربية تتململ ألما ، قلوبها مضطربة ، وأرواحها متعطشة إلى ماء الحياة ، ولكنها لا تعلم أين معين الحياة .

إن الأكثرية من رجالها لا تزال تتوهم أن منبع المصائب في فروع هذه الشجرة ، فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ، ويضيعون أوقاتهم وجهودهم في قطعها ، إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد في أصل الشجرة ، ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد . (2)

وفيهم جماعة قليلة من العقلاء أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد ، ولكنهم لما نشئوا قرونا في ظل هذه الشجرة ، وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم ـ كلت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلا آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعا وأوراقا صالحة سليمة ، وكلا الفريقين في النتيجة سواء ، إنهم يتطلبون شيئا يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه . (3)

إن منطلق الحضارة الغربية هو ضمان قدر ممكن من المتعة والرفاه في الوقت الحضار

---

1) أبو الأعلى المودودي : نحن والحضارة الغربية ص 39 .
2) أبو الأعلى المودودي : المرجع السابق ، ص 40
3) أبو الأعلى المودودي : المرجع السابق ، ص 40 .

دون أي نظر إلى ما يترتب عليه من آثار في المستقبل .

"لقد عرف العالم أن الحضارة التي قادها الغرب ذات طابع خاص ، إنها لا تؤمن بالله ولا تتبع هداه ، ولا تثق في حياة أخرى ، وهي لا تقيم العلائق بين الناس ولا ترسم لهم أهداف الكفاح على ظهر الأرض إلا على أسس مادية محضة .

إن عبادة الحياة هي الدين الشائع في الحضارة الحديثة ، تستوي في ذلك أحزاب الميسرة المجاهرة بإلحادها ، وأحزاب الميمنة المخافتة به" (1)

والحضارة الغربية لا تجحد الله في صراحة ، ولكن ليس في نظامها الفكري موضع له ولا تغرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه ، (2)

إن أسس الحضارة الغربية تتطور نحو مستقبل مجهول باعتبار أن القيم المعنوية التي تؤلف مضمون هذه الحضارة تحطمت وذابت إلى التحليل والتجزئ. (3)

وحتى لا أكون من المتحاملين على الحضارة الغربية ، أترك المفكرين المسلمين ، وأقصد المفكرين الغربيين الذين صنعوا أو ساهموا في إنشاء هذه الحضارة ، أتركهم يحدثوننا عنها وعن رأيهم فيها .

يقول :"ألكسيس كاريل" صاحب كتاب "الإنسان ذلك المجهول" :" ... إننا نلاحظ أن الحضارة العصرية لم تحقق الآمال الكبيرة التي عقدتها بها الإنسانية ، إن الأفراد والإنسانية لم تتقدم بتلك السرعة التي تقدمت بها المؤسسات التي نبعت من عقولنا .... إن الوسط الذي أنشأته العلوم الطبيعية وعلم الصناعات للإنسان ، لا يناسب الإنسان لأنه مرتجل لم يقم على تصميم وتفكير سابق ، ولم يراع فيه الانسجام مع شخصية الإنسان . إن الأمم التي ازدهرت فيها الحضارة الصناعية وبلغت أوجها هي أضعف مما كانت ، وهي تسير سيرا حثيثا إلى الهمجية و لكنها لا تدرك ذلك . (4)

---

1) محمد الغزالي : ظلام من الغرب ص 49 .

2) أبو الحسن الندوي :ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ص 259 .

3) صلاح عبد القادر البكري : القرآن وبناء الإنسان ، ط 1 ، تهامة جدة ص 153 .

4) ألكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، تعريب شفيق أسعد فريد ، مكتبة المعارف ، ط4 1985م ص 41

ويرجع "ألكسيس كاريل" ما وقعت فيه الحضارة الغربية إلى جهلها المطبق بالإنسان . فيقول :"وواقع الأمر أن جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب : لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة" (1)

ويقرر أن الإنسان استطاع أن يتقدم في علوم الجماد تقدما باهرا ، بينما ظلت معرفته بالإنسان جزئية وسطحية وبطيئة . قال :" هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة، فعلوم الفلك والميكانيك والطبيعة تقوم على آراء يمكن التعبير عنها بسداد وفصاحة، وباللغة الحسابية ..وبتعلمنا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شيء على ظهر البسيطة ، فيماعدا الإنسان"(2)

ومرد جهل الحضارة الغربية المطبق بالإنسان - في رأي كاربل - يرجع إلى تعقد الموضوع وإلى تركيب عقولنا .

قال :"صفوة القول ، أن التقدم البطئ في معرفة بني الإنسان ، إذا قورن بالتقدم الرائع في علوم الطبيعة والفلك والكمياء والميكانيك يعزى إلى حاجة أجدادنا إلى وقت الفراغ ، وإلى تعقد الموضوع وإلى تركيب عقولنا وهذه العقبات أساسية ، وليس هناك أمل في تذليلها ... سيظل التغلب عليها شاقا يستلزم جهودا مضنية ... إن معرفة أنفسنا لن تصل أبدا إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ، والجمال ، التي بلغها علم المادة ؟ إذ ليس من المحتمل أن تختفي العناصر التي أخرت تقدم علم الإنسان ، فعلينا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان هو أصعب العلوم جميعا ." (3)

ويقودنا كلام "ألكسيس كاريل" إلى طرح أسئلة تفرض نفسها ، وهي ماذا وراء تقدم الإنسان في علوم المادة ، وجهله المطبق بحقيقة نفسه حتى اليوم ؟ هل كان ذلك لقصور الوسائل العلمية في فترة من الفترات ؟ أم لظروف وقتية من ظروف حياة الإنسانية ؟ أم

---

1) الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ص 17 .
2) الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ص 15 . 16 .
3) الكسيس كاريل : المرجع السابق ، ص 23 .

أن هناك أسبابا ثابتة في طبيعة الحقيقة الإنسانية من جهة ، وفي طبيعة تفكيرنا وعقولنا من جهة أخرى ، هي التي تنشئ تعذر الوصول إلى هذه الحقيقة بمثل الوضوح والدقة المعهودين في عالم المادة ؟

والحق ، أن الذي فات "الدكتور كاريل" ، ولم يقرره في هذا الشأن بحكم ثقافته الغربية ، وبحكم رواسب هذه الثقافة في كيانه على الرغم من باعه الطويل في ميدان العلم ، هو أن الله سبحانه زود الإنسان بطاقات معينة تجعله يتحكم في المادة عن علم ولو نسبيا ، وهو ما عبرنا عنه بتسخير الكون للإنسان ، بينما هو غير مزود بمثل هذه الطاقات لمعرفة نفسه حتى يتحكم في أمرها عن علم كما يتحكم في المادة .

ومن وراء هذا دلالة هامة جدا ، وهي أن الإنسان لا يمكنه وضع منهج حياته بنفسه ، وإنما الذي يضع له هذا المنهج هو خالقه ، فاتباع منهج الله ضرورة لا بد منها ، وهو الأمر الذي جهلته الحضارة الغربية ، بل تنكرت له عن قصد ، فكانت النتائج ما يلاحظه كل عاقل، وما يشهد به أرباب هذه الحضارة أنفسهم .

وفي كلام "كاريل" ما يشير إلى أن معرفة الإنسان لنفسه ستظل كماهي ، وأنه من الصعب الوصول إلى معرفة تامة بحقيقة الإنسان مالم يصغ إلى بيانات ربه .

قال في آخر الفقرة السابقة : " .... وهذه العقبات أساسية ، وليس هناك أمل في تذليلها ... وسيظل التغلب عليها شاقا يستلزم جهودا مضنية ...." (1) وينقل مصطفى السباعي عن الفيلسوف الألماني "ألبرت شفستير" قوله : "والأمر الذي أود أن يتداوله الناس هو أمر العلاقة بين الحضارة وبين نظريتنا في الكون ، وهي علاقة لا يعيرها أحد إلتفاتا في الوقت الحاضر... ، والواقع أن كل تقدم إنساني يتوقف على التقدم في نظريته في الكون ، على العكس نجد أن كل انحلال سببه انحلال مماثل في نظريته عن الكون ، وافتقارنا إلى

---

1) الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ص 23 .

حضارة حقيقية مرجعه إلى افتقارنا إلى نظرية في الكون ، وحينما يتهيأ لنا الوصول إلى نظرية قوية ثمينة في الكون ، نجد فيها اعتقادا قويا ثمينا هناك فقط يكون في وسعنا ايجاد حضارة جديدة" (1)

أقول ، ولن توجد هذه العقيدة إلا في الإسلام ، ولا تتحقق لهم معرفة صحيحة عن الكون إلا إذا رجعوا إلى المصدر الإلهي الصادق ، فهو وحده الذي يطلع الناس على حقيقة أنفسهم، وحقيقة الحياة التي يحيونها ، وحقيقة الكون المخلوق من أجلهم .

ويمكن القول أن الحضارة القائمة اليوم لا تلائم الإنسان ، لأنها نشأت في جو الشرود عن الكنيسة ، والفرار من ظلها، ومن ظل الدين ، كلّ الدين ، ولأنها كذلك جهلت الإنسان ، وجهلت خصائه ، ولم تلحظ في بنائها هذا الإنسان بكل فطرته واستعداداته وميوله .

وبعبارة أخرى :"قامت الحضارة دون معرفة بطبيعته ، أو سارت في طريقها دون اعتبار لخصائصه ، ودون اعتبار كذلك لما ينزل به من ويلات" (2)

يقول "كاريل" :" إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا ، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا" (3)

ويضيف في موضع آخر :" يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك ، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه ، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته ، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية ، فالبيئة التي ولدتها عقولنا

---

1) مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا - الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية - ص 35

2) سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص 116

3) الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ص 37

واختراعتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا ، إننا قوم تعساء لأننا نحط أخلاقيا وعقليا..."(1)

ثم يعقب هذا الإنذار بصيحة أخرى فيما ينبغي عمله في فصل طويل من كتابه بعنوان (إعادة صياغة الإنسان) :

« يجب علينا الآن أن نعيد إنشاء الإنسان في تمام شخصيته الذي أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة . كذلك يجب أن يحدد الجنسان مرة أخرى . فيجب أن يكون كل فرد إما ذكرا أو أنثى فلا يظهر مطلقا صفات الجنس الآخر العقلية وميوله الجنسية وطموحه . وبدلا من أن يشبه الالة التي تنتج في مجموعات ، يجب على الإنسان ـ بعكس ذلك ـ أن يؤكد وحدانيته . ولكي نعيد تكوين الشخصية يجب أن نحطم هيكل المدرسة والمصنع والمكتب وننبذ مبادئ الحضارة التكنولوجية نفسها »(2)

هذا كلام صريح في تقرير عدم ملاءمة الحضارة القائمة اليوم للإنسان ، وعدم صلاحيتها له ، بالرغم من أنه هو صانعها .

والحق أن أزمة الحضارة القائمة لا تكمن في جهلها بحقيقة الإنسان فقط إنما تكمن في رفضها ابتداءا أن يكون للدين ـ بوصفه منهجا للحياة من عند الله ـ هذه الإختصاصات وهذا السلطان أي رفضها لألوهية الله وربوبيته سبحانه وتعالى .

ولهذا قال سيد قطب رحمه الله وهو يقرر اختلافه ، مع الدكتور كاريل في تشخيص مرض وأزمة الحضارة الغربية :

" وفي هذا التشخيص نختلف مع الدكتور كاريل ، نختلف في أننا نبدأ من الجذور العميقة ، بينما يبدأ هو من أحد الفروع وهو "تخلف علوم الإنسان عن علوم المادة" وفي أننا ندرك حدود النشاط الديني التي تكبتها هذه الحضارة في مداها الواسع الشامل لكل

---

1) الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ص 41

2) الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ص 353

جانب من جوانب الحياة الإنسانية" (1)

قد يقول قائل : كيف جاز لك أن تسفه هذه الحضارة ، وأنت ترى التقدم التكنولوجي الهائل والاختراعات المستمرة التي يسرت ومازالت تيسر للبشرية سبل العيش والحياة الرغيدة .

وأقول : إنه لا تخلو حضارة ـ مهما كان نوعها ـ من الخير ، فليست هذه الحضارة شرا محضا ، ولكن ذلك كله لا يشفع لها ، ولا ينفي عنها سمات الإضرار بالإنسان .

قال البوطي :"..... وما من ريب في أننا مهما وصفنا الحضارة الغربية بالتألق والإزدهار ، فإن ذلك لا يصدق عليها إلا من حيث الطلاء الخارجي فحسب و ما يفتن الناس منها إلا بهذا الطلاء، ومما ينجذبون إليها إلا بسر من ذلك الطلاء وحده" (2)

ثم قال :"ولا أريد أن أسود الصفحات الطوال في الإستشهاد بأقوال علماء الإجتماع وعلماء النفس الأوروبيين والأمريكيين الذين يخرجون كل يوم المؤلفات العريضة ، وينشرون المقالات والتحقيقات المثيرة عن الهوة السحيقة التي تقف الحضارة الغربية على حافتها"(3)

إن الحضارة الغربية التفتت بالفعل إلى الكون الكبير واكتشفت من أسراره ما فات القرون الأولى ، ولكن اهتمامها بالكون كان لارتفاقها منه ، وانتفاعها به ، لا لتتزود منه باليقين الواجب والإيمان المبرور وشتان بين منهجين : أحدهما يتعرف إلى الله في أرجاء العالم الذي أبدعه ، والآخر يتعرف إلى أسرار العالم ويحتبس داخله فلا يعرف ربه .

ثم إن العلم الذي تتمتع به الحضارة المعاصرة ليس خصيصة من خصائصها ، إنما هو ميراث إنساني مشترك ، وخط بشري صاعد .

قال محمد قطب :" ليس العلم نتاج الجاهلية الحديثة ، العلم خط بشري صاعدا أبدا ـ

---

1) سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ص 118

2) البوطي : منهج الحضارة الإنسانية ، ص 172 .

3) البوطي : المرجع السابق ص 172 .

لا يتوقف إلا نادرا - في خط سير البشرية وهو طاقة محايدة لا توصف في ذاتها بالخير والشر ، ولكنها تعمل في خدمة السيد الذي يسيطر عليها وتتقدم بالخير وبالشر سواء" (1)

والحديث عن الحضارة الغربية على هذا النحو ، ليس حكما عليها بالإعدام وإنما الهدف بيان ما فيها من فساد وباطل .

وإذا كان "كاريل" يرى ترشيد الحضارة في المزيد من علوم الإنسان وإعادة صياغة الإنسان فإنا نقول :

إن المسألة لا تعالج على هذا المستوى ، إنها أعمق مما يتصور المختصون من علماء الغرب وعلى رأسهم "كاريل"

إن المسألة تبدأ من "نقطة تصحيح مركز الإنسان في هذا الوجود وتعيين مكانه ودوره ووظيفته وحقوقه وواجباته" (2)

تبدأ المسألة من اليقين التام بأن الإنسان ليس إلها ينازع الآلهة وتنازعه (4) إنما الإنسان عبد لله ، سلطه على هذه الأرض وسخر له كل مافيها ، وأعانه على استغلال كنوزها ، وطاقاتها ، ووضع له منهاجا وأمره أن يسير فيه ويعمل له وبه .

وهو إنسان وليس حيوانا جاء مصادفة إلى الأرض .. هو مخلوق فذ في هذا الكون مخلوق قصدا ، ولخلقته حكمة ، ومزود بطبيعة خاصة فوق طبائع الحيوان ، وبخصائص معينة فوق خصائص الحيوان - لأداء وظيفة لا يؤديها الحيوان ، وله من ثم مقام كريم يعدل وظيفته الكريمة (3)

وهو إنسان يتميز أفراده بعضهم عن بعض ، ويتمتع كل فرد بذاتية مستقلة لا نظير لها - رغم اشتراكهم جميعا في خصائص إنسانية عامة - ولكل فرد منهم خصائصه الذاتية إلى جانب الخصائص الإنسانية .

وهو إنسان من ذكر وأنثى ، من نفس واحدة .

---

1) محمد قطب : جاهلية القرن العشرين ، دار الشروق ط 4 ، 1980/1400 . ص 236 .

2) سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ص 171

3) سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ص 172

ولكن المنهج الرباني في الوقت الذي يكفل لشطري النفس الواحدة حقوقا واحدة فيما يتعلق بالأصل الإنساني العام ، يفرض في الوقت ذاته ، على كل منهما واجبات مختلفة ، وفق الوظيفة الخاصة في العمران ، ووفق طاقة كل منهما .

وهكذا ، في ظل هذا المنهج الذي يأخذ بعين الإعتبار كل المعطيات السابقة عن الإنسان، لن يكون هناك تحرج من الحضارة الصناعية التي تراعي كل هذه الحقائق .

إن المنهج الإسلامي لا يرفض الحضارة الصناعية ولا يتنكر لها ، لأنها ابتداء وليدة طرائقه المنهجية التي انتقلت إلى أوروبا (1)

إن الذي يرفضه المنهج الإسلامي هو شيء آخر غير الأساس العلمي التجريبي الذي تقوم عليه الحضارة .

إنه يرفض المذهب المادي الذي يجعل المادة هي الوجود ولا شيء غيرها .

إنه يرفض النظرة الحيوانية للإنسان التي أطلقها "داروين" والنظرة القذرة إلى دوافع الإنسان ، وحصرها في وحل الجنس كما يزعم "فرويد"

إنه يرفض ما ترتب على هذه النظرات كلها من إقامة الأنظمة السياسية والإجتماعية والإقتصادية ، وإقامة نظام العمل وطرائق الإنتاج الفنية على أساس اهدار آدمية الإنسان، وخصائصه الإنسانية العامة أولا ، وخصائصه الذاتية الفردية ثانيا ، وخصائص جنسيه المتميزة ثالثا

إن المنهج الرباني لا ينكر الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ، ولا يجمد الإبداع المادي في الأرض ، بل أكثر من هذا يعتبر ذلك جزءا من وظيفة الإنسان في هذه الأرض ، فالخلافة معناها القيام على شؤون هذه الأرض واستثمار خيراتها ، واكتشاف كنوزها ، والإستمتاع لطيباتها في حدود منهج الله مع التوجه لله بالعبادة والشكر على نعمه التي لا تحصى .

---

1) سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ص 175 .

المنهج الإسلامي يرفض أن يستمع الإنسان ، بخيرات الأرض ونتاج الحضارة كما يستمتع الحيوان ، يرفض أن تكون المتاع غاية في ذاته.والمنهج الإسلامي لا يرفض المؤسسات الإقتصادية في هذه الحضارة ، ولكنه يرفض الأساس الربوي الذي تقوم عليه.

إن الحضارة الرشيدة هي تلك التي تأخذ في الحسبان كل الحقائق السالفة الذكر .

والخلاصة أنه لما كانت الحضارة الغربية نتاج تصور خاطئ لكل من هوية الإنسان ، وحقيقة الكون والحياة ، ونتاج بعد عن الإهتداء بهدي الله ، فقد كان لزاما أن تكون النتائج وخيمة ، يشقى بها الإنسان بدل أن يسعد.وقد بدت نتائج ذلك التصور الفاسد في مختلف مناحي الحياة :

انحراف في تصور الحقيقة الالهية ، وعلاقة الإنسان بالله .

وانحراف في الكون وعلاقة الإنسان به ، وعلاقته بالإنسان

وانحراف في تصور حقيقة الحياة وارتباطاتها وأهدافها وانحراف في تصور النفس البشرية وارتباطات الإنسان بالإنسان فردا وجماعة وجنسين .

وانحراف في السياسية والإقتصاد والإجتماع والأخلاق والفن .

و بكلمة جامعة ، انحراف في كل شيء .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خاتمة البحث :

خلاصة البحث في هذه المجموعة من الحقائق :

1- أثبت القرآن الكريم عبادة الإنسان لبعض عناصر الكون كالشمس والقمر والنجوم .

2- وفي تأليه الإنسان في فترة من فترات حياته لهذه العناصر ما يدل على فطرية التدين في الإنسان ، وثبات العقيدة في كيانه ، والتاريخ البشري يشهد على أن الإنسان مارس العبادة بشكل من الأشكال ولم تمر عليه حقبة لم يكن فيها معتقدا في شيء ما ، سواء كان الإعتقاد صحيحا أو فاسدا .

3- وفي هذا إبطال لما يزعمه علم الإجتماع الغربي من تطور العقيدة ذاتها ، ليوحي بأنها أمر بشري ابتدعه البشر في جهالتهم .

4 - إن الدين فطرة كامنة في الإنسان وحقيقة موضوعية ، ذات وجود كوني مستقل عن الإنسان وفكره ، وليس نتيجة تعامل خاص بين الإنسان وبيئته كما يزعمون .

5 - إن القرآن الكريم جاء بحقائق ثابتة عن الكون ، تختلف عن المفاهيم والتصورات التي علقت بذهن الإنسان في الحضارات الأولى وفي المذاهب الحديثة .

إن القرآن حين عرض للكون أشعرنا أنه مربوب لله تعالى ومقهور لمراده ، ونفى عنه ما علق بأذهان كثير من الناس الذين توهموه إلاها وزعموه ذا سلطان وتأثير ، بينما هو خاضع لقدر الله وسلطانه .

إن الكون وما فيه،ومن فيه من خلق الله عزوجل ، أنشأه إنشاء بعد أن لم يكن ، سواء في ذلك مادته أو صورته ، وليس موجودا بذاته ، والحياة المبثوثة في الكون من الله

سبحانه وتعالى وليست حالة أوخاصية ملازمة لمادة الكون أو كامنة فيه ، ولا مكان للمصادفة في هذا الكون . كما أنه لا مكان للحتمية الآلية ، وإنما هناك سنن كونية أودعها الله تركيب هذا الكون ، وهذه السنن لا تتحقق بذاتها ، إنما تتحقق بقدر من الله عز وجل .

والله الذي أودع الكون هذه السنن لأجل مسمى سيوقف عمل هذه السنن في الأجل المسمى عنده ، ومن ثم فلا أزلية ولا أبدية للكون .

6- اتخذ القرآن الكون معرضا تتجلى فيه حقيقة الألوهية للناس على اختلاف مشاربهم وقدراتهم الذهنية والبيانية ، أيما تجل . والقرآن الكريم بهذا المنهج الذي نهجه في التعريف بحقيقة الألوهية كان فريدا من نوعه . فقد خالف طريقة الفلاسفة والمتكلمين الذين تصدوا لموضوع الألوهية ، والمسائل العقائدية .

7- كما أن في حديث القرآن عن الكون تحقيقا للمقاصد الكبرى وبناء للعقيدة الحقة ، وهدما وإبطالا للعقائد الضالة والتصورات الخاطئة .

8- إن القرآن الكريم دعا الإنسان إلى النظر والتدبر في الكون قصد اكتشاف سنن الله فيه، والإستفادة منها في التعمير الذي هو جزء من مهمة وجود الإنسان .

والذي نسجله في هذ االشأن ، وبكل أسف ، أن غير المسلمين هم الذين توجهوا بأنظارهم وعقولهم إلى الكون ، واستفادوا من تسخير الله لهذه السنن ، فكانت لهم السيادة على العالم بينما غفل المسلمون عن هذا التكليف القرآني فسُخِّروا بدل أن يُسَخِّروا غيرَهم .

9- إن القرآن الكريم بما احتوى من آيات تدعو إلى النظر والتدبر في الكون ، يكون قد فتح نوافذ أمام النظر العقلي ، وهيأ المناخ العلمي الذي يدفع الإنسان إلى المزيد من

الإكتشافات .

10- وبموجب ما سبق نستنتج أن العلاقة بين الكون والإنسان في التصور الإسلامي - علاقة حب وخدمة ، وليس علاقة تحدٍ وقهر وصراع كما تزعم بعض الدراسات والتصورات الغربية .

إن الكون في الحس المسلم والعقل المؤمن ، من خلق الله سخره الله للإنسان . فعن طريق التعرف إلى النواميس الكونية ، ينتفع الإنسان بها بإذن الله .

أما التعابير : "قهر الطبيعة" ، الصراع مع الطبيعة" ، "تحدي الطبيعة" ، "وهبته الطبيعة" ، فهي تعابير تعكس ظاهرة من ظواهر العقلية الغربية الناشئة عن رواسب الأساطير الإغريقية والرومانية .

11- رسم القرآن الكريم صورة كاملة للإنسان ، وأحاط به إحاطة شاملة ، فتحدث عن خلق الإنسان وأصل نشأته وخصائصه وما يعتريه من أحوال تتعلق بموقفه من الإيمان والكفر، وكشف عما ينتاب حياته الفردية والجماعية من انسجام وتنافر ، واستقامة وانحراف ، وبين صلته بالله في حال إيمانه وكفره ، ورشده وسفهه ، وحدد له الوظيفة التي من أجلها خلق ، وأمده بكل ما يساعده على أداء هذه الوظيفة بنجاح ، وأوضح له أن نوع الحياة التي يحياها في الأخرة يتوقف على نوع العمل الذي كسبه في الحياة الأولى

وكل ماقرره القرآن عن الإنسان ، فهو الحق الذي لامرية فيه ، لأن الخالق أدرى بخلقه .

ومن الملاحظ أن جل الدراسات التي تناولت الإنسان ، تناولته من جانب ، وأغفلت جوانبه الأخرى ، فكانت الصورة مشوهة .

12- إنه من المؤكد في القرآن الكريم أن الله خلق ادم وزوجه حواء ، وانهما أصل

النوع الإنساني ، وأنه خلق آدم من الطين ونفخ فيه من روحه وجعله بشرا سويا . كما أن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام وفي نشأة الجنس البشري ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة كان مصاحبا لخلقه ، وأن الترقي في تاريخ الإنسان كان ترقيا في بروز هذه الخصائص وتدريبها واكتسابها الخبرة العامة . ولم يكن ترقيا في وجود الإنسان من تطور الأنواع حتى انتهى إلى الإنسان كما تقول الداروينية .

13ـ كانت الحضارة الإسلامية متميزة عن كل الحضارات ، ذلك لأنها بنيت على قيم ثابتة وتتلخص هذه القيم في : العبودية لله وحده ، والتجمع على أصرة العقيدة في الله ، واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة ، وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان وتراعي خصائصه الفردية والجماعية ، والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه وتحكيم منهجه وشريعته في شؤون هذه الخلافة . فالحضارة الإسلامية هي التي توافرت فيها تلك القيم ، وليست هي كل تقدم صناعي أو إقتصادي أو علمي مع تخلف القيم عنها ذلك لأن الإبداع المادي وحده لا يسمى في الإسلام حضارة . فقد يكون وتكون معه الجاهلية . وهو ما هو كائن في الحضارة الحديثة .

ولما كانت القاعدة التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية بهذا الوصف ، كان من الطبيعي أن تستثنى الحضارة الإسلامية من الدورات الحضارية التي لاحظها الدارسون عند دراستهم لأسباب قيام الحضارات وانهيارها . إن النظريات التي تفسر قيام الحضارات واندثارها لا ينطبق أي منها على الحضارة الإسلامية بسبب تلك الخصوصية التي قامت عليها .

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ ـ بعد ذلك ـ أشكالا متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي . وهي لا تعادي الإبداع المادي ولا تتنكر له بل تعتبره جزءا من رسالة الإنسان في الأرض .

ـ أما الحضارة الحديثة فهي حضارة أرضية بشرية ترى أنه لم ينزل من السماء شيء ، وأن الإنسان وحده سيد الكون ، وأن الساعة الحاضرة هي الجديرة بالعناية ، ولذلك كان تتاجها الفكري والمادي على تنوعه وضخامته ، يهدف إلى غاية واحدة هي توفر أكبر قدر ممكن من المتاع واللذة والراحة للجسد

فالحضارة الغربية قامت على قاعدة لا دينية . ومن هذه الثغرة جاءتها كل الآفات .

قائمة المصادر والمراجع

(أ)

ـ الأشقر : د . عمر سليمان الأشقر

1 ـ القضاء والقدر ـ قصر الكتاب . البليدة ـ ط 1 1400هـ / 1990 م

2 ـ العقيدة في الله ـ قصر الكتاب . البليدة . بدون تاريخ .

ـ أعوشت : بكير بن سعيد

3 ـ القرآن ومذهب داروين ـ دار البعث قسنطينة . ط1 1403هـ / 1983م

4 ـ الإسلام ومدرسة فرويد ـ دار البعث قسنطينة . ط1 1403هـ / 1983م

ـ آمنة محمد نصير « دكتورة .

5 ـ إنسانية الإنسان في الإسلام ـ دار الشروق ط 1 1989

(ب)

ـ ابن باديس : عبد الحميد .

6 ـ مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ـ دار البعث قسنطينة ط1 1402هـ/1982م

ـ بلتاجي : محي الدين

7 ـ دراسات في التفسير وأصوله ـ دار الثقافة الدوحة ط 1 1987

ـ البكري : صلاح عبد القادر

8 ـ القرآن وبناء الإنسان ـ تهامة جدة ط 1 بدون تاريخ

ـ البهي : محمد

9 الدين والحظارة الإنسانية ـ مكتبة الشركة الجزائرية بدون تاريخ

ـ البوطي : محمد سعيد رمضان

10 ـ كبرى اليقينيات الكونية ـ دار الفكر ط 8 1402هـ / 1982م

11 ـ منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ـ دار الفكر ط1 1402هـ / 1982م

12ـ من روائع القرآن ـ مكتبة الفارابي ط3 1395هـ / 1975م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

13 ـ نقض أوهام الجدلية ـ دار الفكر ط 2 1407هـ / 1986م

ـ البيضاوي : القاضي ناصر الدين .

14 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي ـ دار الفكر بدون ذكر رقم الطبعة وبدون تاريخ .

(ت)

ـ التومي : محمد (دكتور)

15 ـ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ـ الدار التونسية للنشر 1407هـ / 1986م

16ـ الجدل في القرآن الكريم ـ الشركة التونسية لفنون الرسم 1400هـ / 1980م ـ

ـ ابن تيمية : أحمد .

17ـ مجموع الفتاوي ـ المجلد 8 ـ مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب . بدون تاريخ .

(ج)

ـ ابن حجر : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (773 ـ 852)

18 ـ فتح الباري ـ دار المعرفة بيروت ـ بدون تاريخ .

ـ أبو حجر : أحمد (دكتور)

19 ـ التفسير العلمي في الميزان ـ دار قتيبة للطباعة والنشر بيروت ط 1 .1991

ـ حنفي : أحمد

20 ـ التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ـ دار المعارف ط 3 بدون تاريخ

ـ حقي : إحسان .

21 ـ خلق لا تطور ـ دار النفائس ط 3 1405هـ / 1985م

ـ حوى : سعيد

22 ـ الأساس في التفسير المجلد الأول ـ دار السلام القاهرة ـ ط1 1985/1405

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- أبو حيان التوحيدي (محمد بن شريف الأندلسي) ت : 784هـ .

23- البحر المحيط - دار الفكر للنشر والتوزيع ط2 . 1983

(خ)

- خان : وحيد الدين .

24 - الإسلام يتحدى - ترجمة ظفر الإسلام خان - المختار الإسلامي القارة ط7 1397/ 1977

25 - الدين في مواجهة العلم ، المختار الإسلامي القاهرة ط 4

- خضر : عبد العليم عبد الرحمن (دكتور)

26 - الإنسان في الكون - عالم المعرفة للنشر والتوزيع جدة - ط1 1403هـ / 1983م

27 - هندسة النظام الكوني في القرآن - جدة ط1 1403 / 1983م

28 - المنهج الإيماني في الدراسات الكونية في القرآن - الدار السعودية ط1 1404هـ / 1984م

- الخطيب : عبد الكريم :

29 - الإنسان في القرآن الكريم - دار الفكر العربي ط1 1979 م

30 - مشيئة الله ومشيئة العباد - دار الفكر العربي بدون تاريخ

31 - الله ذاتا وموضوعا - دار الفكر ط 2 1983

- الخطيب : سليمان

32 - أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، الزهراء للإعلام والنشر القاهرة ط 1 1986

- خليل : عماد الدين (دكتور)

33 - التفسير الإسلامي للتاريخ - دار العلم بيروت - ط5 . 1991

34 - آفاق قرآنية - دار العلم بيروت . ط2 . 1991

35 - مع القرآن في عالمه الرحيب - دار العلم بيروت ط 3 . 1984

36 - مؤشرات حول الحضارة الإسلامية - بدون تاريخ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـ خواجه : أحمد

37 ـ الله والإنسان في الفكر العربي والإسلامي ـ منشورات عويدات بيروت ط1 1983

(د)

ـ الد سوقي : طه

38 ـ عقيدتنا وصلتها بالكون والإنسان والحياة . دار الهدى للطباعة مصر1405/1984

ـ دراز : محمد عبد الله

39 ـ النبأ العظيم ـ دار القلم الكويت ـ ط 2 1390/ 1970

ـ دروزه : محمد عزت

40 ـ الدستور القرآني في شؤون الحياة ـ المكتب الإسلامي 1401/1981

(ذ)

ـ الذهبي : محمد حسين

41 ـ التفسير والمفسرون ـ دار إحياء التراث العربي بيروت

(ر)

ـ الرازي : فخر الدين محمد بن عمر

42 ـ التفسير الكبير ـ دار إحياء التراث العربي بيروت ـ ط3

ـ الراغب الأصفهاني

43 ـ معجم مفردات القرآن ـ تحقيق نديم مرعشلي ـ دار الفكر العربي ـ بدون تاريخ

ـ الرافعي : مصطفى صادق

44 ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ دار الكتاب العربي بيروت

(ز)

ـ الزرقاني : محمد عبد العظيم

45 ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ـ دار الفكر ـ بدون تاريخ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـ الزركشي : بدر الدين محمد . ت : 794هـ

45 ـ البرهان في علوم القرآن : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط3 1980

ـ أبوزهرة : محمد

47 ـ المعجزة الكبرى (القرآن) ـ دار الفكر العربي بدو نتاريخ

ـ الزمخشري : محمود بن عمر الخوارزمي ت 583 هـ

48 ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ دار المعرفة بيروت

ـ زيدان : عبد الكريم

49 ـ أصول الدعوة ـ بغداد ط3 1396/ 1976

ـ الزيدي : كاصد ياسر

50 ـ الطبيعة في القرآن الكريم ـ دار الرشيد ـ العراق 1980

(س)

ـ السباعي : مصطفى

51 ـ من روائع حضارتنا ـ الإتحاد الإسلامي العالمي ـ بدون تاريخ

ـ السامرائي : نعمان عبد الرزاق

52 ـ في التفسير الإسلامي للتاريخ ـ دار الشهاب باتنة الجزائر . 1988

ـ أبو السعود

53 ـ تفسير أبي السعود ـ مكتبة الرياض الحديثة الرياض بدون تاريخ

(ش)

ـ الشاطبي : ابراهيم بن موسى الفرناطي . ت :790هـ

54 ـ الموافقات في أصول الأحكام ـ مكتبة محمد علي صبيح . بدون تاريخ

ـ بنت الشاطئ : عائشة عبد الرحمن

55 ـ القرآن وقضايا الإنسان . دار العلم للملايين ـ ط3 1989

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـ الشرقاوي : عفت

56 ـ في فلسفة الحضارة الإسلامية ـ دار النهضة العربية بيروت 1981

ـ الشوكاني : محمد بن علي . ت : 1255 هـ

57 ـ فتح القدير ـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ط 3

ـ شلتوت : محمود

58 ـ تفسير القرآن الكريم ـ دار الشروق ـ ط 5 ـ 1973

59 ـ من توجيهات الإسلام ـ دار الشروق ط7 ـ 1403 / 1983

ـ شعبان محمد إسماعيل

60 ـ الأحاديث القدسية ومنزلتها في التشريع ـ دار الشهاب باتنة ـ

ـ الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم ت : 548 هـ

61 ـ الملل والنحل ـ دار المعرفة بيروت 1400/ 1980

(ص)

ـ صناوي : محمد علي (دكتور)

62 ـ مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية ـ دار القرآن بيروت 1403 / 1983

(ط)

ـ الطبري : محمد بن جرير ت : 310 هـ

63 ـ جامع البيان في تفسير القران دار المعرفة بيروت ط 1980 م .

ـ طنطاوي جوهري

64 ـ الجواهر في تفسير القرآن ـ دار الفكر بيروت ط 2 1350 هـ

(ع)

ـ ابن عاشور : محمد الطاهر ت 1284 هـ

65 ـ تفسير التحرير والتنوير الدار ـ التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر ط 1984)

ـ عبد الباقي : محمد فؤاد .

66 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت .

ـ عبده : محمد

67 ـ تفسير القرآن الشهير بالمنار ـ دار المعرفة بيروت ط2 بدون تاريخ

ـ عثمان : محمد فتحي .

68 ـ القيم الحضارية في رسالة الإسلام ـ الدار السعودية للنشر ط1 1402 / 1982م

ـ عرجون : محمد الصادق

69 ـ القرآن العظيم : هدايته وإعجازه ـ مكتبة الكليات الأزهرية 1966م

ـ العقاد : عباس محمود .

70 ـ الإنسان في القرآن الكريم ـ منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا

71 ـ الفلسفة القرآنية ـ منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا

72 ـ التفكير فريضة إسلامية ـ منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا

ـ عبود : عبد الغني .

73 ـ الله والإنسان المعاصر ـ دار الفكر العربي ط 1981

74 ـ الإنسان في الإسلام والإنسان المعاصر ـ دار الفكر العربي ، ط 1978

ـ أبو العنين : صلاح الدين المحامي

75 ـ الله والكون ـ دار الفكر 1983

ـ عودة : عبد القادر

76ـ الإسلام وأوضاعنا السياسية ـ الزيتونة للإعلام والنشر .

(غ)

ـ الغزالي : أبو حامد ت : 505هـ

77 ـ إحياء علوم الدين ـ دار الفكر ط1 1406 / 1986

ـ الغزالي : محمد

78 ـ نظرات في القرآن الكريم ـ دار الشهاب باتنة الجزائر .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

79- الإسالم والطاقات المعطلة - الزيتونة للإعلام والنشر

80 - دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين - الزيتونة للإعلام والنشر - تونس ط 1989

81 - ظلام من الغرب - دار الشهاب .

82 - سر تأخر العرب والمسلمين - دار البعث - قسنطينة 1986

83 - المحاور الخمسة للقرآن الكريم - دار الهدى عين مليلة الجزائر

84 - كيف نتعامل مع القرآن - دار الإنتفاضة للنشر - الجزائر .

(ق)

- القاسمي : جمال الدين

85 - محاسن التأويل - دار إحياء الكتب العربية القاهرة - 1332 هـ

- القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد . ت : 671 هـ

86 - الجامع لأحكام القرآن - دار الكتاب العربي .

- القرضاوي : يوسف

87- الإيمان والحياة - مؤسسة الرسالة بيروت ط 4 1985/1399

- قطب : سيد

88 - في ظلال القرآن - دار الشروق ط1 1985/1405

89 - مقومات التصور الإسلامي - دار الشروق ط 4 1988/1405

90 - الإسلام ومشكلات الحضارة - دار الشروق ط 4 1318 / 1978

91 - المستقبل لهذا الدين - دار الشروق ط 7 1407 / 1987

92 - معالم في الطريق - مكتبة قرطاج باريس - بدون تاريخ

- قطب : محمد

93 - دراسات في النفس الإنسانية - دار الشروق ط 1974

94 - التطور والثبات في حياة البشر - دار الشروق ط 1974

95 - الإنسان بين المادية والإسلام - ط 1968

96 - جاهلية القرن العشرين - دار الشروق ط 1980

97- دراسات قرآنية - دار الشروق ط 6 1991

- قيلان : هاشم

98 - مع القرآن في الدين والدنيا - منشورات عويدات بيروت - ط 1 1986

- ابن القيم : الجوزية

99 - التبيان في أقسام القرآن تحقيق طه يوسف شاهين - دار الكتب العلمية بيروت ط 1982

100- التفسير القيم : جمع محمد ادريس الندوي - تحقيق محمد حامد الفقي - دار الكتب العلمية بيروت ط 1978

101 - مدارج السالكين تحقيق محمد حامد الفقي - دار الكتاب العربي بيروت 1972

(ك)

- كاريل : الكسيس :

102 - الإنسان ذلك المجهول - تعريب شفيق أسعد مكتبة المعارف ط 1985

- ابن كثير : عماد الدين اسماعيل . ت : 747هـ

103- تفسير القرآن العظيم - دار الأندلس بيروت ط 1983

- الكومي : أحمد السيد

104 - التفسير الموضوعي للقرآن - مطبعة دار البيان مصر ط 1983

- الكرماني : محمد بن حمزة بن نصر

105 - أسرار التكرار في القرآن - دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا - دار بوسلامة تونس .

(ل)

- لابوم : جول

106 - تفصيل آيات القرآن الحكيم - نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي - دار الكتاب العربي بيروت ط 1969

(م)

ـ ابن ماجة : محمد بن يزيد الربعي القزويني ـ ت : 273هـ

107 ـ كتاب السنن : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني .

ـ المجذوب : عبد العزيز

108 ـ الرازي من خلال تفسيره ـ الدار العربية للكتاب ليبيا ـ تونس ط 1980

ـ المحتسب : عبد المجيد عبد السلام .

109 ـ ـ اتجاهات التفسير في العصر الحديث. مكتبة النهضة الإسلامية الأردن ط 1988

ـ المراغي : أحمد مصطفى

110 ـ تفسير المراغي ـ دار إحياء التراث العربي بيروت

ـ مسلم : مساعد مسلم عبد الله . (دكتور)

111 ـ أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي ـ (رسالة دكتراه) مؤسسة الرسالة ط 1986

ـ المودودي : أبو الأعلى

112ـ نحن والحضارة الغربية . دار الفكر

113 ـ تفسير سورة الأحزاب . دار بوسلامة تونس

(ن)

ـ ابن نبي : مالك

114ـ مشكلة الثقافة ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر

115 ـ الظاهرة القرآنية دار الفكر .

ـ الناصري : محمد المكي

116 ـ رسالة القرآن في عصر العلم . الدار البيضاء المغرب ط 1989

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـ الندوي : أبو الحسن

117 ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ دار الشهاب باتنة 1987

ـ نوفل عبد الرزاق

118 ـ الله والعلم الحديث ـ دار الشروق ط 1 1990

ـ نوير : عبد الستار (دكتور)

119 ـ رسالة الإنسان في الحياة ومقتضياتها ـ دار الثقافة الدوحة ط 1 1987

ـ النووي : أبو زكريا يحيى بن شرف .

120 ـ رياض الصالحين ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ شركة الشهاب ـ الجزائر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهارس

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- فهرس الأعلام
- فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
	○ سورة البقرة :	
20	يأيها الناس اعبدوا ربكم	157
21	الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء	101
29	وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة	154 .164.166 ..
30	وعلم آدم الأسماء كلها	67.7
33	وإذ قلنا للملائكة إسجدوا لآدم .	69 .154 . 163 ..
37 _ 38	قلنا إهبطوا منها جميعا	7 ..
43	أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم	65
74	وإن منها لما يهبط من خشية الله	37
133	تلك أمة قد خلت لها ما كسبت	177
143	وكذلك جعلناكم أمة وسطا	206
154	ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع	145
163	إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار	64
169	وإذا قيل لهم إتبعوا ما أنزل الله	67
179	ولكم في القصاص حياة يأولي الألباب	198
184	يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر	178 . 162
185	وإذا سألك عبادي عني فإني قريب	164
194	ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة	198
196	وتزودوا فإن خير الزاد التقوى	174
249	ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض	145
253	ولو شاء الله ما إقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد	179
258	ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه .	57
269	يؤتي الحكمة من يشاء	65
286	لا يكلف الله نفسا إلا وسعها	162
	○ سورة آل عمران	
7	والراسخون في العلم يقولون آمنا به	65
18	شهد الله أنه لا إله إلا الله إلا هو والملائكة وأولوا العلم	71
33 _ 34	إن الله إصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران	126
58	إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب .	123 . 22
64	قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء	157
65	ياأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم	65

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
140	وتلك الأيام نداولها بين الناس	208 .145
141	وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين	145
179	ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه	87
191	ويتفكرون في خلق السموات والأرض	75 . 67 . 31
197	لايغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد	193
	✪ سورة النساء :	
6	ومن أصدق من الله قيلا	81
28	يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا	137
40	إن الله لا يظلم مثقال ذرة	178
42	ولا يكتمون الله حديثا	21
76	قل متاع الدنيا قليل	193
92	ومن يقتل مؤمنا معتمدا	198
164	رسلا مبشرين ومنذرين	182.181.135
172	لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله	159
	✪ سورة المائدة :	
16.15	قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين	181
35	من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل .	198
42	ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما	39
66ـ65	ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم	176
89	يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم	196
104	وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا.	68
120	لله ملك السموات والأرض وما فيهن	39
	✪ سورة الأنعام :	
01	الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ..	59
23	ربنا ما كنا مشركين ..	21
33	وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ...	65
49	وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين	176
65	انظر كيف نصرف الايات لعلهم يفقهون	75

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
77_78_79_80	فلما جن عليه الليل رأي كوكبا	3
115	وتمت كلمات ربك صدق وعدلا ..	81
125	فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام	179
130_ 131	يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم	182
160	من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها	162
164	ولا تكسب كل نفس إلا عليها ..	176
167	وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ..	168
	✪ سورة الأعراف :	
10	ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ...	101
15_16	قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم	145 ـ 146
23	ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين	193
26	يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا ..	125
27	يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ...	125 ـ 146
30	قل من حرم زينة الله ...	195
31	يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ...	125
35	يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي	125
53	إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار ...	26 ـ 40 ـ 53 ـ 97
96	ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ...	176
128	قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ..	175
172_173	وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ...	7 ـ 50 ـ 125 ـ 159
179	ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ...	68 ـ 75
185	أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ...	74 ـ 86 ـ 92
	✪ سورة الأنفال :	
37	ليميز الله الخبيث من الطيب	144
60	وأعدوا لهم ما استطعتم ...	174
	✪ سورة التوبة :	
16	أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم	144 ـ 145
115	وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم	135

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
	✪ سورة يونس :	
3	إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام	40
5	هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ...	102 ـ 91
12	وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ..	148
21	وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ..	148
22	هو الذي يسيركم في البر والبحر ...	148
23	فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق	149
24	إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ..	194 ـ 193
44	إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون..	178
67	هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ...	101
101	قل انظروا ما ذا في السماوات والأرض ...	95 ـ 74
	✪ سورة هود :	
7	وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ...	25 ـ 15
9	ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس ..	149 ـ 139
10	ولئن أنقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ..	149
21	هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ..	166
28	قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي .	178 ـ 177
	✪ سورة يوسف :	
5	إن الشيطان للإنسان عدو مبين ..	146
105	وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون	79
111	لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الأبصار ..	65
	✪ سورة الرعد :	
4_2	الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ..	97-53
14	ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ...	34
	✪ سورة إبراهيم :	
13	أفي الله شك فاطر السماوات والأرض	58-50

جامعة الملك عبد العزيز للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
34 ـ 36	الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ...	98
34	إن الإنسان لظلوم كفار	140
35	وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ...	97
48	يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ...	27
	✪ سورة الحجر :	
26	ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون	124
40-39	قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ..	145
99	واعبد ربك حتى يأتيك اليقين	158
	✪ سورة النحل :	
3- 4	خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ..	34 - 35
4	خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصم مبين ..	143
14	وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا ...	98
45	وما بكم من نعمة فمن الله ..	150
49	ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة ..	34 - 35
78	والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ...	86
112	وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة ..	177-176
	✪ سورة الإسراء :	
1	سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ..	158
9	إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ..	60
11	ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا	139
15	وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ..	175-135
18	من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء ..	197-177
19	ومن أراد الآخرة ، وسعى لها سعيها وهو مؤمن ..	197-177
20	كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك	197-177
21	انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ..	92
44	يسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ...	34-36
53	إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا	146
58	ويسألونك عن الروح ..	87
67	فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا	141-150

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
70	ولقد كرمنا بني آدم ..	191-163-154-125
83	وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ...	150
84	قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا	175
100	وكان الإنسان قتورا ..	140
	✪ سورة الكهف :	
01	الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا	59
7	إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ..	144
28	ولا تطع من أغفلنا قلبه من ذكرنا ..	68
45	واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ..	193
50	ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ...	43 ـ 10
54	وكان الإنسان أكثر شيئا جدلا ..	142
101	الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ..	68
	✪ سورة مريم :	
67ـ66	ويقول الإنسان أ إذا مت لسوف أخرج حيا ...	142
91	وتخر الجبال هدا ...	37
96ـ94	إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ..	156
	✪ سورة طه ..	
53.48	قال فمن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذي أعطى كل شيئ خلقه ...	58
55	منها خلقناكم ...	123
113	وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا	41
114	وقل ربي زدني علما ..	72
127 115	ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ...	138 ـ137
124 ـ120	قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ...	8 ـ 7
134	ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ..	181
	✪ سورة الأنبياء ...	
16	وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ...	158 ـ 44
33.30	أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ...	75 ـ 14
37	خلق الإنسان من عجل ..	139

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
104	يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ...	46
107	وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ...	181
	✪ سورة الحج :	
5	يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ..	123 ـ 153
18	ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ..	4 ـ 35
34	والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ...	98
38	ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع	145
61	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة	73
63	ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض	73
66	إن الإنسان لكفور ..	141
78	وما جعل عليكم في الدين من حرج ..	162
	✪ سورة المؤمنون :	
12 ـ 14	ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ...	123 ـ 153
71	ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ..	138
81	وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار ...	64
85 : 90	قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ...	39
102	فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساطون ...	20
115	أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ...	157
	✪ سورة النور :	
41	ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض	34
42	ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه	73
44	يقلب الله والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب	75
	✪ سورة الفرقان	
01	تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا	59
25	ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا	46
29	وكان الشيطان للإنسان خذولا	146

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
45	ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا	73
47	هو الذي جعل لكم الليل لباسا	101
	✪ سورة الشعراء :	
28.22	قال فرعون وما رب العالمين ، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ...	58
	✪ سورة النمل :	
24 ـ 22	فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين	4
25	ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض	81
66ـ61	قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى	56
63	أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ...	101
	✪ سورة القصص	
58	وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها	209
59	وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا	209-135
71	قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة	101
72	قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة	101
73	ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .	101
	✪ سورة العنكبوت :	
2 ـ 1	الم ـ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم	144
20	قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق	93
44	خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن في ذلك لاية للمؤمنين	45-40
51.50	وقالوا لولا أنزل الله عليه آيات من ربه ...	67
64	وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب	193
65	فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين	150
	✪ سورة الروم :	
6	يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون	72
7	أولم يتفكروا في أنفسهم	67-40
20	ومن آياته أن خلقكم من تراب	123

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
27	ضرب لكم مثلا من أنفسكم	64
30	فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها	180-50
33	وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه	150
36	وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها	150
50	فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها	92
	✪ سورة لقمان :	
9	خلق السموات بغير عمد ترونها	40 ـ 14
20	ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات والأرض	50-40
24	ولئن سألتم من خلق السموات والأرض ليقولن الله	96
29	ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل	72
	✪ سورة السجدة :	
8.7	الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين	123
	✪ سورة الأحزاب :	
72	إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال .	167
	✪ سورة سبأ :	
9	أفلم يروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض	74
22	قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض	39
46	قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا	67
	✪ سورة فاطر :	
28	إنما يخشى الله من عباده العلماء	71
43	فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا	88
	✪ سورة يس :	
60	ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان	146-125
61	ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون	146
73.71	أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون	100 ـ 74

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
77	أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة	153-143
78 ـ 80	وضرب لنا مثلا ونسي خلقه	56
	✪ سورة الصافات :	
4	إن إلهكم لواحد	84
6	إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب	25
27	وأقبل بعضهم على بعض يتساطون	21
171	ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين	159
	✪ سورة ص :	
4	أجعل الآلهة إلها واحدا	50
17	إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق	37
25	يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض	168
26	وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا	44
29	ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب	159
40	واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه	159
44	واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب	159
72.71	إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين	124 ـ 126 ـ 128
	✪ سورة الزمر :	
8	إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده لكفر	178
9	وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه	150
17	الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه	65
20	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض	73
46	فإذا مس الإنسان ضر دعانا	150
62	الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل	43
	✪ سورة غافر :	
7	الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم	16
8	إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر	178
57	لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس	54 ـ 53
60	وقال ربكم أدعوني أستجب لكم	175
82	أفلم يسيروا في الأرض فينظروا	92

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
	✪ سورة فصلت :	
11.9	قل أئنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين	13 ـ 14 ـ 21 ـ 26 ـ 28
36	ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر	5
46	وما ربك بظلام للعبيد	178
48	لا يسأم الإنسان من دعاء الخير	151
50	وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض و نأى بجانبه	151
52	سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم	87
	✪ سورة الشورى :	
20	من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه	176
48	وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها	141
	✪ سورة الزخرف :	
9	الذي جعل لكم الأرض مهادا	101
10	والذي نزل من السماء ماء بقدر	101
11	والذي خلق الأزواج كلها	101
12	لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم	98-9
15	وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين	141
59	إنْ هو إلا عبد أنعمنا عليه	159
	✪ سورة الجاثية :	
11	الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ..	98
13	وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه	96
21	وخلق الله السموات والأرض بالحق	40
26	ولله ملك السموات والأرض	39
	✪ سورة الأحقاف	
19	ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم	177
	✪ سورة محمد :	
4	ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم	144
20	فاعلم أنه لا إله إلا الله	70 ـ 76
31	ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم	144

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
	✪ سورة ق	
6	أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها	30
8	وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب	75
16	ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه	164-147
	✪ سورة الذاريات :	
5	إن ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع	84
7	والسماء ذات الحبك	82
21	وفي أنفسكم أفلا تبصرون	78-31
47	والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون	19
56 ـ 58	وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون	156
	✪ سورة الطور:	
36.35	أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون	54
	✪ سورة النجم :	
1	والنجم إذا هوى	83
2	ماضل صاحبكم وما غوى	84
30	ولله ما في السموات والأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا	39
41.39	وأن ليس للإنسان إلا ما سعى	176-158
	✪ سورة الرحمن :	
6	والنجم والشجر يسجدان	34
15.14	خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار	124
37	فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان	46
	✪ سورة الواقعة :	
6	إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا	46
75.61	أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ...	55

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
80.75	فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم	84-83-59
	✪ سورة الحديد	
5	له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور	39
20	اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم	193 ـ 192
	✪ سورة المجادلة :	
7	ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم	164
11	يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات	72
	✪ سورة الحشر:	
16	كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر	146
	✪ سورة الجمعة :	
10	فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض	174
	✪ سورة الطلاق :	
7	لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها	162
12	الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن	24
	✪ سورة التحريم :	
6	لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون	128
	✪ سورة الملك :	
1	تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير	59
2	الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا	144
14	ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير	136
15	هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا	197 ـ 174 ـ 99
	✪ سورة الحاقة :	
43.38	فلا أقسم بما تبصرون وبما لا تبصرون	83 ـ 59

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
	✪ سورة النبأ :	
19	وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا	46
	✪ سورة النازعات :	
33.27	أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها	74 ـ 54 ـ 21 ـ 20 ـ 14
	✪ سورة عبس :	
20.17	قتل الإنسان ما أكفره	190 ـ 153 ـ 141
32.24	فلينظر الإنسان إلى طعامه	74
	✪ سورة التكوير :	
3.2.1	إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت	46
6	وإذا البحار سجرت	46
11	وإذا السماء كشطت	46
15	فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس	83
	✪ سورة الإنفطار :	
3.2.1	إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت	46 ـ 25
7.6	يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم	126
	✪ سورة الإنشقاق :	
6	يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه	163 ـ 130
17.16	فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق	83
18	والقمر إذا اتسق	82
	✪ سورة البروج :	
1	والسماء ذات البروج	82
	✪ سورة الطارق :	
7.6.5	فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق	190 ـ 153 ـ 92
8	إنه على رجعه لقادر	147

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم الآية	النص	الصفحة
	✪ سورة الغاشية :	
20.17	أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت	92
	✪ سورة البلد :	
10	وهديناه النجدين	180
	✪ سورة الشمس :	
2.1	والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها	82
4.3	والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها	83
7.6.5	والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها	82 ـ 83
10.9	قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها	84
	✪ سورة الليل :	
2.1	والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى	83
4	إن سعيكم لشتى	84
10.5	فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى	175
	✪ سورة التين :	
4	لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم	126 ـ 163
	✪ سورة العلق :	
5.1	اقرأ باسم ربك الذي خلق	69 ـ 191
7.6	كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى	141
	✪ سورة العاديات :	
6	إن الإنسان لربه لكنود	84
	✪ سورة العصر :	
3.2.1	والعصر إن الإنسان لفي خسر	84 ـ 138

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث

النص	الصفحة
أ	
أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم	174
أتدري أين تذهب الشمس	36
أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار	161
أحسن إليها ، فإذا وضعت فأتني	202
أعملوا فكل ميسر	175
ألا تصليان	142
أنا عند حسن ظن عبدي بي	161
إن الله خلق آدم من تراب	142
إن الله كتب الحسنات	162
خ	
خلق الله آدم على صورته	126
خلق الله عز وجل التربة	27
ذ	
ذاك الذي عليك	202
س	
سددوا وقاربوا	162
ط	
طلب العلم فريضة	72
ل	
لَلّهَ أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب	161
لَلّهَ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله	161
م	
من سلك طريقا يلتمس فيه علما	72
من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب	160
هـ	
هل تدرون ماقال ربكم	5
و	
ولكني أصوم وأفطر	196
ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها .	67 ـ 79

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام

الاسم	الصفحة
- أ -	
آدم (عليه السلام) :	7 ـ 69 ـ 71 ـ 123 ـ 124 ـ 125 ـ 127 ـ 138 ـ 139 ـ 168 ـ
أنس بن الك :	161
إبراهيم (عليه السلام) :	3 ـ 4 ـ 57 ـ 58 ـ 97 ـ 98 ـ 125 ـ 140 ـ 159
إبراهيم الحوراني :	111
إدوارد لوثر :	10
إدوارد كربنز	208
أحمد بن حنبل :	27 ـ 142 ـ 202
أحمد أبو حجر :	30
أحمد الغمراوي :	31
أحمد محمد جمال الفندي :	71
أمين الخولي :	31
الأشقر سليمان :	178
أبي بن كعب :	201
أبو نجيد :	202
أبو عبيدة بن الجراح :	204
أوغست كونت :	207
ألبرت شفيترز :	208
ألكسيس كاريل :	218 ـ 219 ـ 220 ـ 221 ـ 222 ـ 224
إحسان حقي :	117 ـ 118
إسحاق (عليه السلام) :	159
أيوب (عليه السلام) :	159
إسرائيل :	119 ـ 120 ـ 121
أبو بكر الصديق :	169
أدلر :	132
- ب -	
البخاري :	5 ـ 28 ـ 76 ـ 160 ـ 162
البوطي :	9 ـ 41 ـ 100 ـ 103 ـ 110 ـ 116 ـ 127 ـ 152 ـ 173 ـ 186 ـ 187 ـ 189 ـ 205 ـ 210 ـ 223 .
ابن باديس :	19 ـ 81
بيشوب :	110
البزار :	124
البغوي :	171

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاسم	الصفحة
البيضاوي :	172
بيكون :	207
بكير بن سعيد أغوشت :	101
- ت -	
الترمذي :	124 ـ 173 ـ 202 ـ 224
ابن تيمية :	174 ـ 179 ـ 180
تقي الدين نبهاني :	188
تايلور :	188
توينبي :	208
- ج -	
جوليان هكسلي :	6 ـ 10
جمال الدين القاسمي :	25 ـ 35
جمال الدين الأفغاني :	111
جيتيه :	207
جعد بن هبيرة :	203
ابن جرير الطبري :	171 ـ 205
- ح -	
أبو حامد الغزالي :	70 ـ 203 ـ 204
حنفي أحمد :	15 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 22 ـ 28 ـ 31
حليم عطية سوريال :	111
ابن حبان :	124
حواء :	125
ابن حجر العسقلاني :	21 ـ 124 ـ 126 ـ 160 ـ 161
الحسين بن علي :	142
الحاكم :	204
أبو حيان :	172
- خ -	
ابن خلدون :	71 ـ 208 ـ 216
خير الله اسطفان :	111
- د -	
الدمرداش سرحان :	11
داروين :	107 ـ 108 ـ 112 ـ 113 ـ 115 ـ 116 ـ 119 ـ 127
داود عليه (السلام) :	159

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرسم	الصفحة
دوبوا :	117
أبو داود :	204 ـ 124
ديكارت :	207
ـ ر ـ	
الرازي :	4 ـ 18 ـ 19 ـ 21 ـ 22 ـ 27 ـ 30 ـ 47 ـ 51 ـ 168 ـ 171 ـ 196 .
الراغب الأصفهاني :	43 ـ 64 ـ 96 ـ 167 ـ 169 .
رشيد رضا :	196
ـ ز ـ	
الزركشي :	41
زين خالد الجهني :	5
الزمخشري :	171
ـ س ـ	
السدى :	168
سليمان (عليه السلام) :	4 ـ 159
سليمان الخطيب :	187
ابن سعد :	204
سيسيل :	10
سعد بن جبير :	16 ـ 17 ـ 20
سعيد حوى :	24 ـ 25 ـ 29
سعيد المقبري :	124
سيد قطب :	29 ـ 31 ـ 32 ـ 33 ـ 40 ـ 45 ـ 47 ـ 52 ـ 74 ـ 89 ـ 90 ـ 96 ـ 99 ـ 103 ـ 134 ـ 135 ـ 137 ـ 138 ـ 139 ـ 140 ـ 143 ـ 148 ـ 149 ـ 151 ـ 159 ـ 178 ـ 186 ـ 187 ـ 191 ـ 196 ـ 197 ـ 221 ـ 222 ـ 223 ـ 224 ـ 225 .
ابو السعود :	34 ـ 181
ـ ش ـ	
الشاطبي :	31 ـ 87 ـ 88
الشافعي :	139
الشوكاني :	36 ـ 37 ـ 171
شبلي شميل :	111
اشينجلر :	208 ـ 210
ـ ص ـ	
صلاح عبد القادر البكري :	218
صلاح أبو العنين :	15

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإسم	الصفحة
- ض -	
الضحاك بن مزاحم :	171
- ط -	
طنطاوي جوهري :	31 ـ 78 ـ 79 ـ 90
- ع -	
ابن عباس :	16 ـ 17 ـ 20 ـ 21 ـ 139 ـ 168 ـ 171
عكرمة :	36
العقاد :	64 ـ 66 ـ 101 ـ 111 ـ 112 ـ 113 ـ 114 ـ 116 ـ 128
عائشة (رضي الله عنها) :	79 ـ 162 ـ 204
عمر بن الخطاب :	161 ـ 202 ـ 203 ـ 204
عبد المجيد عبد السلام المحتسب	30 ـ 90
عبد المجيد النجار :	70
عيسى (عليه السلام) :	123
ابن عاشور :	167 ـ 168 ـ 169
عمران بن الحصين :	142 ـ 203
علي بن أبي طالب :	142 ـ 203
عماد الدين خليل :	158 ـ 177 ـ 206
عبد القادر عودة :	169
عبد الستار نوير :	34 ـ 35 ـ 37 ـ 38 ـ 173
عفت الشرقاوي :	198 ـ 207 ـ 208 ـ 209
العلاء بن الحصين :	200
عروة بن الزبير :	200
عبد الله بن دينار :	203
عبد الرحمان بن موه	204
عثمان بن عفان :	204
عمر عبيد حسنة :	210
عبد العظيم الزرقاني :	86
عبد الله دراز :	31
عبد الكريم الخطيب :	66 ـ 116
- غ -	
غرو كلارك :	117
- ف -	
فاطمه الزهراء	142

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاسم	الصفحة
فرويد :	119 ـ 120
فرعون :	58
فيكو :	208
ـ ق ـ	
قتادة :	16 ـ 17
القرطبي :	3 ـ 26 ـ 76 ـ 96 ـ 99 ـ 200 ـ 168 ـ 171 ـ 197
القشيري :	27
القرضاوي :	19 ـ 161 ـ 202 ـ 203 ـ 204
ابن القيم :	47 ـ 82 ـ 165 ـ 194
ـ ك ـ	
ابن كثير :	3 ـ 4 ـ 14 ـ 15 ـ 16 ـ 17 ـ 19 ـ 20 ـ 27 ـ 28 ـ 35 ـ 53 ـ 54 ـ 76 ـ 96 ـ 98 ـ 99 ـ 125 ـ 126 ـ 139 ـ 140 ـ 142 ـ 143 ـ 169 ـ 171 ـ 194 ـ 195 ـ 196
كريسي موريسون	10
كعب الأحبار	28
كارل ماركس :	113 ـ 119
ـ ل ـ	
لامارك :	107 ـ 108
لقمان :	42 ـ 72 ـ 96 ـ 97
ـ م ـ	
مجاهد :	27
محمد (صلى الله عليه وسلم)	70 ـ 76 ـ 144 ـ 195
محمد الصادق مرجون	56 ـ 60 ـ 88 ـ 89 ـ 90 ـ 91 ـ 92
محمد الصالح الفلكي :	10
محمد علي صناوي :	188 ـ 189
محمد أبو زهرة :	57
محمد الغزالي :	19 ـ 31 ـ 59 ـ 77 ـ 78 ـ 81 ـ 85 ـ 86 ـ 93 ـ 208 ـ 209 ـ 218
محمد المكي الناصري :	80
محمد بن المنكدر :	203
محمد عزة دروزة :	194 ـ 195
المراغي :	4 ـ 15 ـ 17 ـ 18 ـ 21 ـ 27
مسلم : (الإمام)	27 ـ 161 ـ 162 ـ 208
محمد قطب :	45 ـ 119 ـ 120 ـ 121 ـ 129 ـ 130 ـ 131 ـ 132 ـ 133 ـ 223 ـ 224 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاسم	الصفحة
محمد رضا آل علامة	111
محمود شلتوت :	78 ـ 77 ـ 32 ـ 31
محي الدين بلتاجي :	30
ابن مسعود :	168
ابن ماجة :	72
المودودي :	217 ـ 216 ـ 209 ـ 208 ـ 187 ـ 186 ـ 172
ماعز بن مالك :	204
موسى (عليه السلام) :	28 ـ 57
ابوموسى الأشعري :	124
معاذ بن جبل :	204
معاوية بن أبي سفيان :	204
مصطفى السباعي	221
مريم (عليها السلام) :	156
مالك بن نبي :	187 ـ 186
ـ ن ـ	
النووي أبو المسن :	218 ـ 215 ـ 214 ـ 213
النسائي :	202 ـ 124
نوح (عليه السلام) :	117 ـ 125 ـ 25
النووي :	161
ـ هـ ـ	
ابو هريرة :	173 ـ 160 ـ 124 ـ 28 ـ 27
هود (عليه السلام) :	178 ـ 166 ـ 149 ـ 25
هوس :	214
هيفو دوفريس :	109
ـ و ـ	
وحيد الدين خان :	103 ـ 10 ـ 9 ـ 8 ـ 6
ولاس :	107
ول ديورانت	188
ـ ي ـ	
يعقوب (عليه السلام) :	159
يوسف (عليه السلام) :	146 ـ 79 ـ 65
يونس (عليه السلام) :	178 ـ 149 ـ 148 ـ 102 ـ 101 ـ 95 ـ 91 ـ 74 ـ 42
يونج :	132

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	
التمهيد	
الفصل الأول : الكون في القرآن الكريم .	
ـ **المبحث الأول :** نظرة الإنسان الروحية إلى الكون ...	3
ـ تأليه بعض أجزاء الكون	3
ـ غرور الإكتشافات العلمية	8
ـ **المبحث الثاني :** حقيقة الكون وصـــــلته بالله في القرآن الكريم	13
أولا : حقيقة الكون في القرآن الكريم	13
1ـ أصل الكون	13
2 ـ مسألة ترتيب خلق السماء بالنسبة لخلق الأرض ...	20
3 ـ حقيقة الأيام الستة في أقوال المفسرين	26
4 ـ موقف العلماء من التفسير العلمي	29
ثانيا : صلة الكون بالله في القرآن الكريم	34
1 ـ الكون عابد لله	34
2 ـ الكون ملك لله	38
3 ـ الكون من خلق الله	39
4 ـ الكون مخلوق لحكمة	44
ثالثا : نهاية الكون	46
ـ **المبحث الثالث :** الكون معلم هداية إلى الله	50
الفصل الثاني : علاقة الكون بالإنسان في القرآن الكريم	
المبحث الأول : دعوة القرآن إلى دراسة الكون وإعماره	63
المبحث الثاني : تسخير الكون للإنسان	95

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث : حقيقة الإنسان وصلته بالله في القرآن الكريم

المبحث الأول : نشأة الإنسان في الفكر الغربي اللاديني في العصر الحديث 107

1 ـ مذهب النشوء والإرتقاء : تاريخه وروّاده 107

2 ـ موقف علماء اللاهوت وعلماء الطبيعة الغربيين منه 110

3 ـ مذهب النشوء في الشرق العربي 111

4 ـ بعض ما قيل في المذهب 114

5 ـ إيحاءات المذهب وما تركه من آثار في العلوم الإنسانية 118

المبحث الثاني : حقيقة الإنسان في القرآن الكريم 123

1 ـ الإنسان مخلوق من حيث الجنس من تراب ، متكاثر من حيث المصدر من الإنسان الأول آدم عليه السلام 123

2 ـ الإنسان مخلوق منذ النشأة الأولى في أتم مظهر وأحسن تقويم 126

3 ـ الإنسان نو طبيعة مزدوجة 127

4 ـ أحوال الإنسان وأوصافه في القرآن الكريم 136

المبحث الثالث : صلة الإنسان بالله عز وجل في القرآن الكريم 156

1 ـ الانسان عبد لله 156

2 ـ الإنسان كائن كريم على الله 163

3 ـ وظيفة الإنسان من خلال القرآن الكريم 166

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع : أثر تلك العلاقة في بناء الحضارة الإنسانية

المبحث الأول : ملامح الحضارة في ظل التصور القرآني 186

المبحث الثاني : ملامح الحضارة في غياب التصور القرآني 213

الخاتمة 228

قائمة المصدر والمراجع 232

فهرس الآيات 244

فهرس الأحاديث 260

فهرس الأعلام 261

فهرس الموضوعات 267

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية